رواية

حارس حديقة المُحبّين

وليد خيري

دار العين للنشر

حارس حديقة المحبِّين

حارس حديقة المحبِّين

رواية

وليد خيري

الطبعة الأولى / ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/٢٢٠٦٤

I.S.B N 978 - 977 - 490 - 304 - 5

حارس حديقة المحبِّين

روايــة

وليد خيري

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

خيري، وليد

حارس حديقة المحبِّين: رواية/ وليد خيري.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٥

ص؛ سم.

تدمك: ٥ ٣٠٤ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٢٠٦٤/ ٢٠١٥

إهداء

إليها

كشجرة زنزلخت طيبة

في حديقة عامة

ستترك ذرة من خلاياك فى كل زاوية
ستغادر قاطنين وتمر بمبطئين
ومسرعين يفوتونك غير عابئين
لن تسعفك الظلال الكثيفة

عماد غزالي
المكان بخفّة

القسم الأول

حَدَائِقُ ذَاتُ بَهْجَةٍ

(1)

حارس الحديقة I

"علاقتي مع الناس كأوراق الشجر
من يبقى يثمر ومن يسقط لا يعود"

جورج برنارد شو

أنا حارس حديقة يرتادها العشاق.

أعرف أنكم لا تلتفتون لحارس مثلي رقيق يبكي، وأمنحكم العذر لذلك، فأنا لا ألوم المنشغلين بالحب عنِّي - فما على العاشق ملام - حين لا ترون الدموع في عيني.. نعم أبكي.. حين أرى شجار النهايات أبكي، أستحلفكم بالله لا تفترقوا، فإن مع كل قصة حب تنتهي تموت نبتة صغيرة في الحديقة.

الحدائق هنا في بلادي لم تصمّم للحب العذري، كما هي الحال في الحدائق الصينية القديمة، لكنها صممت في إطار فلسفة إشباع الغرائز، والتي من ضمنها الحب على أية حال.

قد راودتكم الظنون عن شيء من المبالغة، لكن أريدكم أن تعرفوا أن أشجار الحديقة الناشئة في تناقص مستمر بسببكم.. بسبب قصص حبكم الفاشلة الناقصة.

يا عاشقين أتموا القصص، واكتبوا لها خاتمة السعادة أجمعين حتى لا تجف الأشجار، وتختفي الحديقة، فأخسر عملي، وينقطع

رزقي، وتقطع الأشجار التي تتدارون خلفها. الأشجار التي تتسلل الشمس من خلالها، فتضيء عيونكم المحبة، فتصبحون أجمل.. والله أجمل.

أعرف أن مدنيّتي تطاردكم أينما كنتم. والبوليس الذي تفرون منه، البوليس الذي يحرس النظام، منتشر بالحدائق في شكل رجل أمن، يرتدي قميصا لبنيًا، مترصد لكم أيها المحبون الطيبون.. يراقبكم. يعد أنفاسكم. يتحيّن الفرص، ويعرف اللحظة التي يقرر فيها أحدكم أن يسرق (بوسة)، ويفهم كيف تنتفخ الأوردة بالدم والرغبة، وكيف تتحول سراويل العاشقين إلى منطاد يُفتح على مصراعيه، حتى تتم رحلة الهبوط بسلام، ويسمع الشهقات المكتومة من البنات، حين ترى سراويل الأولاد المنتفخة، ويطرب لعزف الأنامل العاشقة على تلك السراويل الممتلئة بأوردة منفجرة عاشقة.

أريد أن أصرخ في كل العاشقين بالحديقة، لا تخافوا بالله عليكم لا تخافوا، فأنا لست حارسا يترقب. لست سوى حارسٍ يترجل - بين الأشجار - ويقدم الدعم للزهرات العطاشى التي تتفتّح في شكل شفاه ظمأى، تترقب القُبلة كالماء، لست حارسا يصطاد القبلات قبل أن تصل للشفاه ليحرر بها محضرا عاطفيا في إدارة الحديقة، ولست أنا الحارس الذي يغض الطرف، لتمرروا له جنيهات بسرعة البرق إلى يده أو جيبه، بل أنا ملاككم الحارس في ظل إدارة حدائق تطارد العاشقين، كما تطارد الهاموش في أرجائها.

أذكر كم مرة أصابني الانزعاج، حين عرض عليّ عاشق مالا، كمكافأة لصمتي الذي كان يراه العاشق تواطؤا، حين رآني، وقد رأيته وهو يحشو فم حبيبته بالقبلات. ربتُّ على يد العاشق في حنوٍّ لا يقل عن تربيت يد حبيبته منذ قليل على كتفه، وطلبت منه أن يستمتع.

أفهم أن تصرفي هذا لا يبدو منطقيا، مع دوري كحارس للفضيلة في حدائق يفضِّل مرتادوها الحديث عن كل شيء إلا الفضيلة، لكن هل من المنطقي أن أفسد فرحتهم بالحب لمجرد أني أؤدي وظيفتي.. تبًّا لهذه الوظيفة التي تخلق مني عزولا، بقميص لبني فوق الجسد، "وإيزبلايط" فوق الأكتاف، وكاب فوق الرأس، لو كان الأمر بيدي لأهديت كل زوج من الأحبة زهرة، حتى يشعروا بالأمان، ولا يضطرون اضطرارا إلى سرقة الحب، ويواصلون تغريدات الحب في ثقة، كما يفعل فوقهما عصفوران، يعتليان أعلى غصن في الشجرة، يتبادلان التغريدات والقبلات دون خوف من ملاحقة عصفور أمنيّ لهم.

بعضكم الآن يحلو له أن يصفني بلقب "معرص". لكني أقسم بالله أني لست كذلك، كل ما في الأمر أني أرى الحب مظهرا من مظاهر انسجام الحديقة، وعلى استعداد للقسم ثانية، أن زهرة تتفتح مع كل قُبلة خجلى، تطبعها عاشقة مترددة على خد عاشق متلهّف.

على سيرة القسم بالله المتكررة.. أنا رجل حامل لكتاب الله في قلبي وذاكرتي، فأنا من حفَّاظ القرآن الكريم، وليس في قلبي غل ولا حقد ولا "تعريص" لأحد.. وقد ذكرت أني من حملة كتاب الله من باب سد الذرائع، لا من باب التفاخر.. والدليل أني لم أذكر ذلك لأحد، ليس لكوني عشت وحيدا لفترة طويلة، لكن لأني بطبعي كتوم، لا أبوح حتى لو كنت أصادق بني البشر كلهم.

تعلمت ذلك من عالم الحيوان، الذي كنت أراقبه بشغف لسنوات طويلة يوم الجمعة عبر التليفزيون المصري، الذي كان يقدم صباح الجمعة برنامجه الشهير "عالم الحيوان" الذي يقدمه مذيع النشرة الوقور "محمود سلطان" قبل أن أنتقل إلى متابعة محمومة لحيوانات أخرى، عبر قنوات غير مصرية مثل: ديسكفري وأنيمال بلانت وناشونال جيوجرافيك، تلك القنوات التي منحتني بسخاء كل شيء عن أي شيء، وقد ساقني هذا الاهتمام الحيواني المبكر إلى أن أبحث عن عمل، يجعلني قريبا منهم ولصيقا بهم، فربيت أنواعا شتى من الطيور والحيوانات، لكن كل مشاريع التربية كانت تبوء بالفشل، لرفض أبي وجود حيوانات بالمنزل، كان آخرها الكلب رعد، لأنه كما يقول دائما: بتجيب حساسية وصدري مش ناقص يا ابني.

بعد إنهاء دراستي، وعدم حصولي على فرصة عمل مناسبة،

سعيت للالتحاق بالعمل كحارس في حدائق الحيوان بالجيزة، حتى أراقبها عن كثب، وليس عبر شاشة تليفزيون أبيض وأسود ببطاريات ثم تليفزيون ملون ثم شاشة LCD، لكن الإدارة المركزية للحدائق ارتأت أنه من الأفضل أن أراقب الناس، وبخاصة العشاق منهم، بدلا من الحيوانات، فتم تعييني حارسًا للفضيلة كما يبغون في حديقة عامة، أو حارس أمن كما يقول مسمَّاي الوظيفي.

لكن ذلك لم يمنعني من التوقيع على بيان حركة "بيطريون بلا حدود" لتدشين حملة شعبية لإنقاذ حديقة الحيوان بالجيزة من البيع، باعتبارها من أهم مواقع البحث العلمي البيطري في مصر، فضلا عن كونها أهم مزار للفقراء، وحذرت حركة "بيطريون بلا حدود" في بيان لها من التعليمات التي أصدرتها الإدارة المركزية للحديقة بضرورة تقليص عدد الزائرين، بحجة أن الزيادة العددية لهم والتي تزيد على خمسة عشر مليون مواطن سنويا تتسبب في إيذاء الحيوانات، وما اعتبرته الحركة خطوة جديدة لبيع الحديقة.. وقالت الحركة في بيانها: إن وزارة الزراعة بدأت أولى خطواتها لبيع الحديقة بإخلائها من الحيوانات، وذلك بعدم اهتمامها بشراء حيوانات جديدة بدلا من الحيوانات التي نفقت في الحديقة، ثم بدأت أخيرًا في إخلاء الحديقة من زوّارها، وذلك من خلال تقليص أعداد الزائرين، ورفع تذاكر الدخول من جنيه إلى جنيهين.

وأضاف البيان أن الوزارة استغلت خروج الحديقة من التصنيف العالمي لحدائق الحيوان، ولم تقم بأي تطوير يذكر حتى تتمكن من عملية البيع، ومن جانبه طالب رئيس حركة "بيطريون بلا حدود" بضرورة إعلان وزارة الزراعة، ولجان الطب البيطري التي فحصت الجمال التي تعرضت للذبح قبل أعوام، بالكشف عن تقريرها بخصوص هذه الجمال الذي لم يتم نشره حتى الآن، متسائلا عن الأسباب الحقيقية لعدم إعلان هذا التقرير.

ولو عرفتم أن توقيعي على هذا البيان ربما يعرضني للفصل التعسفي من عملي لعرفتم كم أحب الحيوانات.

أعتقد دائما أن عملي في حديقة عامة حارسًا هو عناية إلهية أرسلت من المولى للمحبِّين، وحتى تصدقوا ما أقول أريد أن أخبركم أن كلمة الحب ومشتقاتها ذكرت في القرآن ستًا وسبعين مرة، وإني لحب الحب لشديد، هل تأكدتم الآن أني رسول المحبة إليكم.. لكن لن أشطح مثل الشعراء لأمنح نفسي لقب رسول المحبة، لأنه قد يُحدث تشويشا لدى بعض المؤمنين، لذلك فإن قصص الحب التي كانت على مسمع ومرأى مني، والتي شاهدت منها قصصا قديمة كلاسيكية، وعاصرت قصص حب أخرى متطورة، راقبت فيها المحبين بتقديس من باب توفير الحماية لهم، كل هذا وذاك يجعلني أمنح نفسي وأنا مرتاح الضمير لقب "حارس حديقة المحبين".

آخر أحداث الحديقة ولد نزق، مزق خطابات حبيبته، وأخذ ينهرها بشدة وهي تبكي وتترجَّاه، والولد العاشق مثل المجنون، الغيرة تأكل قلبه، رأيت بعيني الولد ينثر قصاصات الجوابات في الهواء، ورأيت ذلك وأنا أراقبها بحزن الشجرة التي يقفان تحتها تتساقط أوراقها، وربما تلاقت القصاصات وأوراق الشجرة في رحلة الهبوط الأرضي، كدت أن أنفلت باتجاه الولد وأصرخ فيه، توقف، أنت تفسد كل شيء والشجرات الباقية من الحديقة لم تعد كثيرة، والعشاق كثر ويحتاجون الأشجار يستظلون بها ويتدارون فيها، ماذا تفعل يا مجنون. ربما أيضا أفقد وظيفتي بسببك حين يهجر المحبون هذه الحديقة، ويأتي مستثمر ليخصخصها، ويشتريها بتراب الفلوس، لكن ما قيمة الحدائق إذا هجرها العشاق، وما قيمة الأشجار الطيبة في الحدائق العامة إذا لم يستظل بها حبيبان من هجيرة أيامنا، وما قيمة الأغصان في الأشجار الطيبة في الحدائق العامة إذا لم يتأرجح عليها عصفوران في حالة غرام.

كدت أندفع مرة أخرى تجاه الولد النزق، لكني تمالكت نفسي حين توقف عما يفعله فجأة، وجلس على الدكة الخشبية، وظل يبكي وينهنه بصوت مسموع مثل طفل فقد أمه، يبكي حتى النشيج.

(2)

الولد النزق I

"العواصف القوية تقتلع الشجر الضعيف إلا أنها
غالبا ما تدفع الشجر القوي لبناء جذور أعمق"

هربرت جورج ويلز

كان أول خطـــاب أفلحت في تجميعه من خطابات الولد النزق.. خطابـــا كتبته حبيبته التي كان يشـــك في ســـلوكها. هـــو قال لها يا "شـــرموطة" أثناء انفعاله في الحديقة، وقبل أن يمزق الخطابات التي بين يدي الآن.

كانت الحبيبة تصف في خطاب أرسلته للحبيب النزق أول قُبلة بينهما، وكيف ساخت الأرض من تحت قدميها، حين لامست شفتيه، وتصف كيف كانت تشب على أطراف أصابعها حين قبَّلته (معها حق فالولد النزق كان طويلا بشكل واضح، وعليها بالفعل أن تشب قبل أن تقبله، وأنا أصدقها حتى لو كانت "شرموطة" بحسب وصفه).

كان خط الخطاب عاطفيا، وباركته الحبيبة بقبلات مرسومة بأحمر الشفاه، فرجَّحت أن الخطاب في بداية العلاقة لما له من طابع غزل عفيف، فضلا على أنها علاقة كلاسيكية، يكفي أن ترى أحمر الشفاه مطبوعا داخل الخطاب حتى تتأكد من ذلك، وأن هذه الحبيبة تسير على نهج زمن أمِّها في الحب.

نصف خطاب من الولد الطويل النزق جمعته أخيرا، ولم أفلح في الحصول على نصفه، بدد كل أوهامي عن العذرية والعفة في العلاقة بينهما، إذ يصف الولد في نصف الخطاب مشاعر الدفء، التي أحس بها، وهو يولجه داخلها برفق.

على ضوء أباجورة على شكل لمبة الجاز القديمة.. كنت اشتريتها من مول رمسيس هيلتون، وهو متجر متعدد الأقسام وكوزمبوليتاني، ولا عجب لاستخدامي هذه الكلمة المتثاقفة، فأنا قرأت عن طريق صديقي الشاعر عددا من الكتب لا بأس بها، وبعضا من قصائد النثر اللعينة التي لا أفهمها، وأشعار بعض المتصوفة أمثال الحلاج وابن الفارض ورابعة العدوية، ولا تنسَ ثقافتي المرئية التي حصَّلتها من قنواتي التليفزيونية المفضلة، وحضرت عددا من ندوات الشعر في المجلس الأعلى للثقافة، وجالست لفيفا من المتقعرين في مقاهي زهرة البستان وريش والتكعيبة وأفتر إيت، وحضرت بعض العروض المسرحية السخيفة في الهناجر، ومسرح روابط.

عالم غريب اسمه وسط البلد دخلته معصوب العينين في صحبة شاعر وأجنبية، يتسكعان في المقاهي والطرقات والميادين الصغيرة، وأنا منقاد إليها، أتفرج على هذا العالم الصغير بأعضائه المنتفخين بثقافتهم الغريبة، وشعورهم المنكوشة، والكتب التي يحملونها تحت آباطهم، كانوا يبدون بهيئتهم تلك، مثل حيوانات منقرضة قادمة من

كهف التاريخ، أحيانا كنت أكرههم بشدة لكثرة ادعائهم، وصلفهم، وإحساسهم أن لا أحد في العالم يفهم دونهم. كان الواحد منهم يتكئ على ترابيزة متسخة، يلهط سندوتش فول مدمس مسوِّس، في مقهى أقرب إلى إسطبل خيل، ويظل ينظِّر عن العالم، والعرق ينز من جبينه، بينما سندوتش الفول يبظ بين يديه، وعلى حواف فمه، وهو يسخر من الناس كلهم، ويضحك على ذلك، فتظهر قشور الفول التي لفظتها أسنانه، ولم تفلح في الوصول إلى معدته، وتظل عالقة بأسنانه، تظهر كلما ضحك وسخر من أحد، ويهتز أيضا كرشه، الذي لا يتناسب مع نحافته، ومما كان يسهم في زيادة كراهيتي لهم أنهم كانوا يتناوبون النساء فيما بينهم، كما يتبادلون أنواع السجائر الفرط التي يشربونها، كان ذلك يشعرني كأني موجود وسط "مبولة" داخل مراحيض عامة، يأتيها رجل من كل جانب ويسقط بنطاله ليبول فيها بولته ثم يرفع بنطاله، وينصرف، ليأتي غيره، ويفعل نفس فعلته.

نساؤهم أيضا منكوشات الشعر، يشبهن رجال مقاهيهن إلى حد بعيد، مراهقات مرهقات، وأربعينيات مطلقات، وخمسينيات يائسات، يرتدين سراويل ضيقة، أقسم أن أفخاذهن تسلخت تحتها، من فرط التصاقها بهن، ومن كثرة اللف والبرم، وهذا ما يجعلهم يصعبون عليَّ - نساءهم ورجالهم - وهذه هي الأحيان التي لا أكرههم فيها بل أتعاطف معهم، حيث يتنقلون بين المقاهي في جماعات

وأسراب، تشبه مواسم الهجرة الجماعية، التي تقوم بها الطيور أو أسماك السلمون، التي كنت أراها على قناة ناشيونال جيوجرافيك، حيث يواجه سمك السلمون خلال رحلته الطويلة التي تتجاوز أربعة آلاف كيلومتر، عدة تحديات منها اجتياز المياه السريعة ومنحدرات الأنهار، علما أنه لا يتناول شيئا خلال هذه الفترة، بل يعتمد على احتياطيات الدهون المخزّنة من أواخر الصيف. وفي هذه الفترة يتكون اللون الأحمر المميز عند سمك السلمون، كما تتغير هيئة الأسماك الذكور إذ يصبح ظهرها محدَّبا.

وبعد عشرة أيام من عملية الإخصاب، يتحول لون الأنثى والذكر من الأحمر إلى الرمادي الطباشيري، وتبدأ علامات التعب تظهر على أجسادها بسبب الرحلة الشاقة التي قطعتها إلى أن تفارق الحياة، مخلفة وراءها الأجيال الراقدة تحت الحصى.

هم يشبهون السلمون إلى حد بعيد، في لون وجوههم الذي يستحيل إلى آخر، بعد أن لوَّحته الشمس، وفي ظهورهم التي تصبح محدوْدبة، بعد أن لوَتها الأيام.

ينتقدون كل شيء ولا يعجبهم العجب، إذا نجح فيلم نجاحا جماهيريا، قالوا عنه: فيلم خفيف، وإذا ما حققت رواية مبيعات كثيرة وعملت Best seller، كما يقولون، يصمونها بكلمة واحدة قائلين: "ده مش أدب ده Pop Art".

وعلى ذلك فأفلام السبكي لا تعجبهم، وروايات علاء الأسواني بالنسبة لهم رواية نميمة، بالمناسبة قرأت له رواية اسمها "شيكاغو" وأعجبتني، لكني خفت أن أقول أمامهم إني قرأت شيئا لعلاء الأسواني، وأني أذهب في العيد إلى السينما، لأشاهد أفلام السبكي، التي يظهر فيها المنتج في لقطة من الفيلم بشخصيته الحقيقية، وسأعرف منهم أنه جزار، لذلك يصفون أفلامه بأنها أفلام اللحم الرخيص، في استسهال في التشبيه، بينما هم يركبون على بعضهم بعضًا دون تمييز مثل البهائم، وإن كانت الحيوانات لا تفعل ذلك، فالشمبانزي غيور جدا على شريكة حياته، حتى إن الشمبانزي الذكر يصبح عدوانيا عندما يشتبه في أن شريكة حياته غير وفية، أو مرحبة بذكر آخر، إلا أن العدوان يأخذ شكل الحراسة والإكراه والمغازلة، ليس كشلة المثقفين المرحبين دائما أن تفتح صديقاتهن سيقانهن لأي واحد في الشلة، حيث يعزل ذكر وأنثى الشمبانزي نفسيهما، ويتزاوجان لمدة شهر، لكن الكثير منهم إما يشوه شريكته، أو يخرجها من حياته عند الاشتباه في خيانتها.

على ضوء هذه الأباجورة الأرتستيك، كما وصفها المرافق لي وقت شرائها، كنت أجمع قصاصات العاشق النزق، الذي مزق خطابات الحب في الحديقة، وأحاول إعادة ترتيبها ولصقها بشريط لاصق شفاف، اشتريته خصيصا لجمع الخطابات الغرامية الممزقة، حتى لا يخفي اللاصق الغامق حروف بعض كلماتها.

كنت بعد انصراف الولد النزق، الذي تأكل الغيرة قلبه مثل ذكر شمبانزي، قد هرعتُ إلى قصاصات الخطابات التي مزقها، أجمعها في تؤدة وصبر، في غالب الوقت، عقب مغادرة عاشقين لبقعة ما من الحديقة، أطلب أحد عمال النظافة بجهاز الاستدعاء ليرفع بقايا الطعام والشراب، لكني ولسبب غامض كنت أحتفظ بالخطابات الممزقة، والمناديل المتكلسة بالمنيّ إن وجدت - ربما كنت أسعى لأكون مندلًا جديدا، مثل مندل القديم، صاحب قوانين الهندسة الوراثية - ولا أستدعي عامل النظافة إلا بعد أن أتحصل على كنزي الثمين منها.

وكنت أشم في كلامها - الخطابات الممزقة والمناديل المتكلسة - عطر الكلمات، ورائحة الحب النفاذة.

هذا ليس أول الخطابات الغرامية التي أجمعها، ولا آخر المناديل الناشعة بماء الحب التي أفرزها فرزا دقيقا، حيث أضع مناديل (ربما تسمى هذه المناديل فيما بعد مناديل مندل) كل شخص مشبعة بمنيّه في كيس شفاف، وألصق عليه بطاقة من الخارج، مكتوبا عليها صفة العاشق البارزة... التي ربما ستكون هي الصفة الوراثية السائدة لطفله بحسب مندل .وقوانين هندسته الوراثية، إذا ما قدر لهذه الحيوانات المنوية أن تجد رحما يحنو عليها، ويحتويها لتسعة أشهر.

أعرف أن جريجور يوهان مندل، القس النمساوي صاحب قوانين الهندسة الوراثية، استخدم نبات البازلاء لمعرفة من أين تأتي الصفات، كما جاء في كتاب الأحياء للصف الأول الثانوي طبعة 1992، والذي تجاهلت أبلة كريمة فيه شرح درس الجهاز التناسلي للرجل والمرأة، مما أثار موجة استياء عارمة بين طلاب مدرسة سراي القبة العسكرية بنين الشغوفين بالعلم! أو بهذا الفصل تحديدا من العلم، ومن كتاب الأحياء، وقد استخدم مندل البازلاء لأن أزهارها تميل إلى التلقيح الذاتي، بواسطة القليل جدا من حبوب اللقاح، التي تنتقل من زهرة إلى أخرى.

وقد لاحظ أنه إذا تُرك النبات دون تدخل، فإن النباتات الطويلة دائما تُنتج نباتات طويلة، وتُنتج البذور الخضراء بذورا خضراء. وقد أطلق مندل على الصفة التي ظهرت في أفراد الجيل الأول بالصفة السائدة، والصفة التي اختفت في الجيل الأول ثم عادت للظهور في الجيل الثاني بالصفة المتنحيّة.

كنت أستغرب جدا كيف طبخت ملايين الأمهات في العالم، البسلة ملايين المرات، ولم يكتشفن مثل مندل قوانين الوراثة، مثلما يحيِّرني تماما أن أشهر شيفات العالم في الطبخ من الرجال وليس النساء! وعلى طريقة مندل أتأمل الأكياس البلاستيكية، والبطاقات التي تحمل صفات ساكنيها الوراثية، حتى لا يفوتني اختراع مهم

كما فات الأمهات الطيبات اللائي طهون البسلة دون أن يدركن أن هناك ما هو أهم من طهوها.

دون تدخل مندلي أقرأ: أولاد الأشقر الغامض.. أولاد الأسمر المفتول.. أولاد القصير الممتلئ.. أولاد ذي الشعر الخشن.. أولاد الرجل الخمسيني سريع القذف.. أولاد ذي الأفخاذ العريضة... أولاد الرجل الذي يشخر وهو يقذف.. أولاد ناكح يده كثيرا... أولاد ذي العضو الضخم.

أشعر أن غرفتي كلما نظرتُ إلى هذه البطاقات، تمتلئ بصراخ مليارات الأطفال، أحيانا يؤنسون وحدتي، وأحيانا أخرى يسببون لي الضجر، هم أبناء لرجال مختلفين، لكنهم مخلصون جدا لذكورتهم، هم أبناء لحظة واحدة. لحظة انفجروا فيها جميعا. لحظة أرادوا فيها الخروج. أو بالأحرى لم يتحملوا فيها البقاء.

بعد الانتهاء من قراءة نصف الخطاب، أبدأ في مرحلة التصنيف الدقيق، فأضع خطاب حبيبة الولد النزق ضمن الخطابات الغرامية، بينما أضع نصف الخطاب الجنسي بجوار أكياس المناديل المشبعة بالمنيّ، وألصق بطاقة صغيرة مكتوبا عليها: الولد الطويل النزق، أتنفس بشعور الارتياح وأتمنى لو يحالفني الحظ في الحصول على بطاقة تحمل اسم سلطان العاشقين.

(3)

سلطان العاشقين I

"ممنوع الجلوس على الحشائش"

تعليمات إرشادية

كل أربعاء كنت أنتظره، أو بالأحرى كل أربعاء كان يأتي، بقامته المتوسطة فهو لم يكن بالطويل ولا بالقصير، عوان بين ذلك. يأتي مصطحبا بنتا جديدة. اختياراته للعاشقات متنوعة بحيث لا يمكن أن تحدد ذائقته في النساء.. هن دائما متباينات الأعمار والأشكال والأطوال والألوان، مختلفات في كل شيء إلا في أمر واحد وهو الإجماع على عشقه. فمنحته دون عناء لقب "سلطان العاشقين"، ليس كعمر بن الفارض صاحب اللقب الحقيقي، يكتب شعرا في العشق الإلهي كما أخبرني الشاعر حين تلا أمامي:

قلبي يحدثنى بأنك مُتلفي

روُحي فداك عرفت أم لم تعرفِ

مالي سوى روحي وباذل نفسه

في حب من يهواه ليس بمسرفِ

ثم سرد لي صديقي الشاعر سبب توجه عمر بن الفارض

للتصوف، حيث ذهب ابن الفارض في أحد أيام الجمع لأحد المساجد لأداء صلاة الجمعة وقد أدركه وقت الصلاة، رأى رجلا متكئا على شجرة، وهو يدندن بنغمة، فقال في نفسه بعد الفراغ من الصلاة سوف أحاسب هذا على وقوفه هنا يغني، بدل الذهاب إلى المسجد. وبعد انقضاء الصلاة وخروج ابن الفارض من المسجد، تعرض له نفس الرجل، مومئا إليه بإشارة فذهب إليه، وإذا بالرجل يقول له شعرا:

قسم الإلهُ الأمــــرَ بين عباده فالصبُّ ينشدُ والخليُّ يسبِّحُ

ولعمريَ التسبيحُ خيرُ عبادةٍ للناسِكينَ وذا لقــــومٍ يَصلحُ

فكأن هذين البيتين أيقظاه من سبات كان فيه، فصحب الرجل وسلك على يده، يد الشيخ البقال. فجدّ في طلب العلم وأخذ عنه الفقه، والحديث أخذه عن شيوخ مصر، وسلك طريق الصوفية، فتزهد، وسلك طرق المجاهدة والانقطاع للعبادة في جبل "المقطم".

وطفق صديقي الشاعر ينشد أجمل ما أحببت فيما بعد من أشعار ابن الفارض حتى إني نظمت لها لحنا رغم أن أذني غير موسيقية:

زِدني بِفَرطِ الحُبِّ فيكَ تَحَيُّرا، وارْحَمْ حَشىً بِلَظَى هَوَاكَ تسعَّرَا

وإذا سألتك أن أراك حقيقةً، فاسْمَحْ، ولا تجعلْ جوابيَ لن ترى:
يا قلبُ! أنتَ وعدتني في حُبِّهِمْ صَبْرا، فحاذِرْ أنْ تَضِيقَ وتَضْجَرَا
إنَّ الغَرامَ هوَ الحَياةُ، فَمُتْ بهِ صَبًّا، فحقُّكَ أنْ تَموتَ وتُعْذَرَا
قُلْ للَّذينَ تقدَّموا قَبْلي، ومَنْ بَعْدي، ومَنْ أضحى لأشجاني يَرَى
عني خذوا، وبيَ اقْتَدوا، وليَ اسْمعوا، وتَحَدَّثوا بِصَبابَتي بَيْنَ الوَرَى
ولقدْ خَلَوْتُ معَ الحَبيبِ، وبَيْنَنا سِرٌّ أرَقُّ مِنَ النَّسيمِ، إذا سَرَى
وأباحَ طَرْفي نَظْرَةً أمَّلْتُها، فغَدَوْتُ مَعْرُوفا، وكُنْتُ مُنَكَّرَا
فَدُهِشْتُ بَيْنَ جَمالِهِ وجَلالِهِ، وغَدَا لِسَانُ الحالِ، عَنّي مُخْبِرَا
فأدِرْ لِحاظَكَ في مَحاسِنِ وَجْهِهِ، تلقى جَميعَ الحُسْنِ، فيهِ، مُصَوَّرَا
لوْ أنَّ كُلَّ الحُسْنِ يكمُلُ صُورَةً وراَهُ، كانَ مُهَلِّلا، ومُكَبِّرَا

هل كان سلطان العاشقين المعاصر يكتب شعرا في العشق النسائي؟ للدقة، هو لم يكن شاعرا، لكن كل لمساته المدربة وكل نظراته المقفاة لعشيقاته تشبه الشعر أو تشبه موسيقى الشعر، كنت أراقبه لعلي أبلغ مبلغه من العلم في بحور العشق، لكن كنت مثل التلميذ الخائب البليد الذي يهز رأسه لأستاذه بينما هو لا يفقه كلمة واحدة مما يقول، ومع ذلك لم يمنعني هذا من تصوُّر نفسي جاثيا على ركبتي أمامه، أنهل من علمه، بينما يقف هو شامخا، يرضى عني أحيانا ويركلني أحيانا أخرى، ربما راودني هذا الخيال العنيف، لما رأيت منه من غلظة وقسوة عند شجار النهايات.

لكني أعود وأذكر براعته في الحب، فأغفر له قسوة الختام، وأذكر هذه البنت ذات الشعر الأحمر، التي تصرخ من لوعة ألم فراقه الآن، بينما كانت منذ شهور تضحك من كل قلبها، حين كان يميل عليها، وهما يجلسان على الدكة الخشبية المفضلة لديه الكائنة بجوار نخلة مثمرة، وكأنه يختار هذه الدكة حتى تساقط عليه تلك النخلة رُطبا جنيًّا، لكن في الحقيقة الرطب الجنية لم تكن تتساقط من النخلة الشاهقة، كانت تتساقط من فمه على شفاه حبيبته، في شكل قبلات جَنيَّة ترطِّب فم ذات الشعر الأحمر اَلقصير، فتأكل شفاهه، وتشرب رحيق حبه، وتقرّ عينهُا بذكر رجلها الذي ينتصب مثل النخلة القائمة بجوارهما. تعجبني اختياراته الذكية، فسلطان العاشقين يرطب فم حبيبته بالقبلات، كالرطب الجنية التي تتساقط من النخلة، وينتصب قائما عضوه كالنخل الواقف في شموخ وشمَم.

يملك يدا مدربة على تخلل الشعر أو التسلل تحت الحجاب إلى العنق، وذلك بحسب ما ترتديه مرافقته، بعد العنق يتلمس الطريق إلى النهدين، فهو المسئول بدرجة كبيرة عن تكويرهما، خاصة لتلك البنت ذات الشعر الأحمر القصير، تابعت رحلة نمو وتكور نهديها عبر يدي وفم سلطان العاشقين، إذ كان مبلغه من الجرأة كبيرا، لدرجة القيام برحلة استخراج النهدين داخل الحديقة بعد أن يتأكد أن أحدا لا يراه، ويجلسها على حجره لأنه يعلم كما تقول اللافتة

"ممنوع الجلوس على الحشائش". وقْفَتي المتوارية خلف الشجرة العريضة لا تسمح له، ولا لغيره من العشاق أن يراني.

أعرف أن وقفتي المراقبة تلك تسيىء الكثيرين، لكن إذا عرفتم أنها من باب الإعجاب والاستمتاع لا من باب المكايدة العاطفية، ولو عرفتم أني أستمتع بما يفعله سلطان العاشقين، لأنه يقدر أن يفعل ما لا أفعله، ستلتمسون لي ألف عذر، ورغم أنه شعور غريب فإنه يراود بعض الرجال العاجزين عن إتيان المرأة لأسباب مختلفة، ذلك الشعور الذي يتمنى فيه رجل، أن يقع رجل آخر على امرأة يتمناها، ويكون قمة أورجازمه أن يأتيها هذا الرجل الآخر بقوة، وكأنه يأخذ بثأر صاحبه، من تلك المرأة التي عجز أن ينالها، فقدمها طبقا شهيا لغيره، واكتفى بالفرجة والتشجيع، مثل أن تكون فاشلا في لعب كرة القدم، فتشجع ناديا أو لاعبا يملك مهارات في المغازلة بالكرة، لا تملكها أنت. وتصرخ من السعادة كلما أحرز ذلك اللاعب هدفا، وتقوم وتتنطط وكأنك صاحب هدف الفوز، أو يقوم فنان كبير بتقبيل شفاه ممثلة، طالما حلمت أنت بها فتشعر ناحيته بالامتنان لا بالغيرة والحقد. بعض الرجال يجد متعة في أن يقوم آخرون بأداء أفعال تمنوا لو أدركوها، لكن لم تسعفهم الظروف فأسعفهم هؤلاء الرجال.

ما يعجبنى في سلطان العاشقين ليس فقط براعته في الحب، وترطيب الشفاه، وتكوير النهد، إنما أيضا براعته في إحسان الخواتيم، فحين

تقف ذات الشعر الأحمر القصير دافنة وجهها بكفيها الصغيرين، من لوعة الفراق، يكون سلطان العاشقين محدِّقا في السماء، ينتظر الوحي الذي سيهبط عليه برسالة عشق جديد، وهو مثنٍ الذراعين، لأنه حديث عهد بجيم، يبدو ذلك من خلال جلسته الدائمة مثنيَّ الذراعين ومستندا على الدكة الخشبية، حتى يبين تكوير عضلة الباى، أو مشددا من قضبته أثناء السلام على إحدى عشيقاته، فيظهر امتداد عضلة التراي.

كنت أضحك من فعلته المكشوفة تلك، التي من السهل على واحد مثلي ذهب للجيم لفترات قليلة متقطعة أن يعرف مغزاها.

ذهبت إلى صالة الألعاب الرياضية والتي تختصر ابتذالا بكلمة gym وهي في الإنجليزية "gymnasium" المشتقة من الكلمة اليونانية "gymnos" والتي تعني "عارٍ".

فقديما كان الرياضيون يتدربون عراة بمصاحبة الموسيقى، وكانوا أيضا يلعبون في الألعاب الأولمبية وهم عراة، ولم يكن مسموحا للنساء بالمشاركة أو الحضور كمشاهدات، حيث نظمت أولى ألعاب أولمبية عام 776 قبل الميلاد، كما تقول المعلومات الموجودة في شكل ملصقات على حوائط صالة الألعاب الرياضية التي التحقتُ للتدريب بها. بالطبع كان بعض المتدربين في الجيم حين يقرأون هذه المعلومات، يتمنون لو شاركوا في الألعاب

الأولمبية قبل الميلاد، لكن بشرط أن تتسع مدرجات جبال الأولمب للمشجعات.

التحاقي بالجيم كان لأسباب غير رياضية بالمرة، السبب الحقيقي أن أحدهم كان مدينا لي بمبلغ من المال، أقرضته إياه، وماطل أكثر من عام في تسديده، فما كان مني إلا أن ذهبت إلى مقر عمله، حيث يعمل مدربا مشرفا على صالة ألعاب رياضية، وبداخلي إصرار على استرداد المبلغ تحت أي ظرف.

كانت هذه شجاعة، فقد ترددت كثيرا في أن أذهب إليه في عقر عضلاته، لكن يبدو أن حملة استرجل الإعلانية، لأحد المشروبات الغازية بثّت في نفسي تحديا واضحا، خاصة بعد أن تجرعت علبة كاملة من هذا المشروب اللعين دفعة واحدة. رغم أن هذا المشروب ينصح به الأطباء للمرأة الحامل كمشروب سحري لاحتوائه على الشعير الغني بفيتامين Folic - acid والذي يؤدي نقصه إلى تشوه العمود الفقري للجنين قبل الولادة، لكن الإعلان الظريف أنساني تلك الحقيقة العلمية وملأني بطاقة من الوهم.

المهم، توكلت على الله، وطالبت مديني باسترداد مالي، وكأن سهما أصابه من طلبي ذاك، فأرغى وأزبد وانتفخت عروقه البارزة بامتداد ذراعيه، وانتفش بنشه، وقال: أنت جاي تسيَّح لي. وكأن كلماته ما هي إلا طقس من طقوس الإشارة، إذ تجمع حولي عدد من

أصدقائه المنتفخين المخلصين، بأنفاس متهدِّجة إذ إنهم لا يزالون أثناء التمرين وسألوا: فيه حاجة يا جامد. ساعتها أيقنت أن ساعة حتفي حانت، لكن الجامد أخبرهم بأني مشترك جديد في الجيم، وهو يشرح لي التمارين، وقال عليّ أن أبدأ تمارين General لمدة أسبوع، لأني لم ألمس بارًا حديدًا من قبل، ودون أن أدري التزمت الصمت، وكأن مفعول حملة استرجل قد تسرب، وسطع في ذهني إعلان حملة always أو بامبرز، وهو يوضح بالتجربة العملية كيف يمكن أن يحدث التسريب، إذا كان المنتج منتجا آخر غير منتجهم.

وبعد تسرب المنتفخين المخلصين، وانصرافهم واحدا تلو الآخر إلى تمارينهم، عقد الصفقة الرياضية معي فهو مدين لي بمبلغ من المال، وأنا مدين له بحياتي كاملة بعد أن كاد ينهيها الأصدقاء الأشاوس، وكان عليّ أن أقبل الصفقة خاصة بعد أن تخيلتهم محدقين بي بأذرعتهم الغليظة القاسية، مثل كوبرا تحكم قبضتها حول عنق وجسد أحد ضحاياها.

وتمت الصفقة تحت تهديد الباي والتراي الصلبة القوية كحجر صوان، كانت الصفقة تقتضي: أن لي حق ممارسة الرياضة في الجيم لمدة ستة أشهر، مقابل ما لي عنده من مال، وعملا بمبدأ المصالح تتصالح، والنفط مقابل الغذاء - حقيقة هذا ما ورد إلى ذهني حين عرض الصفقة - قبلت الصفقة مرغما وقلت لنفسي: أحسن من مافيش.

أتمنى أن يلتحق سلطان العاشقين بنفس الجيم الذي أتدرَّب به، تذكرته حين رأيت جون جولدمان وهو مثني الذراعين، في بوستر كبير خلف جهاز الطرمبة المخصص لتمارين الظهر، كانت وقفته تشبه وقفة سلطان العاشقين، ومحدقا في السماء، متجاهلا الحبيبة التي تبكي أمامه من ألم الفراق، بينما أمنع نفسي بالكاد من أن تتساقط دموعي حتى لا تلحظها زميلتي في العمل التي تحشر مؤخرتها الهائلة في مقعد بلاستيكي، يكاد "يتفشخ" من تلك المؤخرة التي تحرس حمام السيدات.

(4)

حارسة الحمام

دورة مياه للسيدات

W.C

السيدة التي تجلس على باب الحمام تسدُّه مثل عين الشمس. من المفترض أنها تحرسه، وهي التي تبيع الفوط الصحية سندريلا، المنخفضة التكاليف لكن بنفس سعر الأولويز. تبيعها بالواحدة، لأولئك النسوة والبنات اللائي عاجلهن الحيض أو البريود أو الإكس، كما تسميها زميلتي في الحديقة، التي تتكسب رزقها من دم النساء الفاسد، يذكرني ذلك بقضية انتشرت عن أكياس الدم الفاسد.

حارسة الحمام تجلس بالضبط تحت اليافطة، التي تحمل صورة استعارية لوجه ذي شعر طويل يرمز للمرأة، مكتوبا أسفل منها حمام السيدات، وأستغرب كلما تأملت الكلمة، وكأن أول واحد دق هذه اليافطة، وثبَّتها على أحد الحمامات العامة، وتبعته أجيال فعلت نفس فعلته الشنعاء، كان يتخيل أن البنات لسن بحاجة إلى دخول الحمام مثل النساء. ربما كان النحات الأول الذي نحت هذه اليافطة رقيقا جدا وحالمًا، لدرجة أنه تخيل أن البنات لا يدخلن الحمام، ولا يتغوطن مثل السيدات، ويذكرني ذلك بطفولة لعينة صدمت فيها، حين رأيت مدرسة الدراسات الاجتماعية الفاتنة، تخرج من

باب الحمام الذي كنت أسمع صوت ضراطها عبر بابه، فصرخت في وجهي: بتعمل إيه عندك. بينما كانت الجيبة المحشورة فيها عجيزتها الطرية مبللة من الخلف.

ولم أكن مخطئا ساعتها بدخول الحمام الحريمي، بل كنت أتعمد ذلك وأقصده، وأعرف أن سنوات عمري القليلة ستجعل تسللي إلى حمام السيدات يمر بسلام.

حارسة حمام الحديقة، زوجة لأحد العاملين بالنظافة في الحديقة، هي من أتت به، وألحقته بالعمل هنا. عامل النظافة النحيف جدا لدرجة أني أتخيل أن زوجته لم تأت به فقط للعمل في الحديقة، لكنّ رحمها أتى به أيضا، ولفظه إلى الدنيا والحديقة.

مشكلة يا أخي والله، أن تعمل في مؤسسة معك فيها زوجان، يشبه أحدهما عصفورا والآخر ديناصورا. إذ يعمل خيالك المريض في اتجاه ذي مسار إجباري، إذ كيف لعصفور أن يركب ديناصورا؟ كتلك النكتة التي تحكى عن فأر يركب فيلا، "يدقه" في حديقة، تحت شجرة برتقال، فإذا ببرتقالة تسقط من أعلى الشجرة، فوق رأس الفيل مباشرة، فيهتز من المفاجأة، فيهلل الفأر منتشيا بينما يعتلي مؤخرة الفيل: "اثبت لافتأك".

حال نوم الزميلين الزوجين مع بعضهما بعضًا، يصبح الشغل الشاغل لأفراد تلك المؤسسة، وحالتهما المزاجية كل صباح يمكن أن

تُتخذ كمؤشر قوي على ما حدث ليلة إمبارح، وتفسر الأشياء تفسيرات تبدو منطقية أحيانا، ومبالغا فيها أحيانا أخرى، فالشعر المبلول له دلالة، وتقطيب الحاجبين له دلالة، والعضعضة الصغيرة في العنق، إنما هي برهان ودليل سابغ على توحش أحدهما واستئناس الآخر.

كانت امرأة سمينة، وكان حلمها رجلا يرفعها كالريشة تحملها النسمات، لكن من أين لها بهذا الرجل، لكن ولمَ لا وهي تشاهد قناة الحلبة التي تبث مباريات المصارعة، وترى رجالا ضخاما جدا، يتم حملهم من قبل مصارعين آخرين أشداء، تتمنى لو تشارك في هذه الحلبة ويحملها مصارع قوي، ساعتها ستشعر بخفتها التي لا تُحتمل، لكنها كانت تفيق على مشهد هذا المصارع يحمل المصارع الآخر، إلى أعلى ويرزعه على الحلبة، كالريشة تحملها النسمات.

زميلتي في الحديقة، لا تخجل من العضعضات الصغيرة في العنق، ولا من الفتق في بنطلون "اليونيفورم" الذي لم يتحمل اتساع مؤخرتها اليومي داخله فانفجر قليلا، ولا تخجل من أن أعطيها رشوة مالية صغيرة نظير سكوتها، عن مخالفات أرتكبها بحق العمل، بل أحيانا تكون متطلبة وطامعة، وخاصة حين يكون ما أريده صعبا، ويعرِّض مستقبلها المهني المشرق للتهديد والخطر، وربما مستقبل زوجها أيضا مثل طلبي الأخير الذي دفعها إلى تعلية سقف الرشوة، لتصبح مبلغا لا بأس به من المال. دفعني حجم

مخاطرتها بمستقبلها إلى القبول، ودفعها أيضا إلى أن تؤدي علامة التثليث بخوف ورجاء: خوف من اللـه... ورجاء في ستره.

لحظة التثليث هذه تحيلني إلى مرحلة مدرسية تعسة، انقضت في محاولات جعل رفيق الفصل يدخل في حضن الإسلام، ومما دفعني إلى هذا التفكير الدعوي المبكر، هو أن جرجس كان يطمئن لي دون باقي الفصل لأني لا أقول له: يا عضمة زرقا، ولا أربعة ريشة، ولا أشترك في الكورال النشاز الذي يغني له ذلك الغناء الكيدي: جرجس جرجس يا بتاع البنات، الكنيسة خربت والقسيس مات، كما يفعل الأطفال الملاعين الآخرون، ولا أصرخ بالِقرب منه قائلا: محمد.. محمد، كان ذلك بناء على أسطورة طفولية تقول إن ذكر اسم محمد يجعل المسيحيين يعيدون صلاتهم، مما يجعل بعض الصبية يذهبون بالقرب من الكنيسة الموجودة على ناصية أحد الشوارع القريبة من بيتي أيام الآحاد ويهتفون صارخين: محمد محمد، ثم يطلقون سيقانهم للريح، بعد أن يكونوا أفسدوا صلاة المسيحيين، وبعد قليل يعاودون الكرَّة من جديد.

أذكر أن الولد إسلام حسين كان يتفاخر بأنه أفسد صلاتهم ذات أحد أكثر من عشرين مرة، فيصيبني خيال طفولي مريض آنذاك، بمدى الجهد الذي بذله إسلام حسين في نشر الإسلام، أو على الأقل إيقاف الزحف الصليبي على العمرانية، وأراه مقطوع الأنفاس في سبيل اللـه، في شوْط السعي والجري بين الكنيسة والمسجد الذي

يعد منطقة آمنة، لا يستطيع أن يطوله فيها ميلاد حارس الكنيسة الصعيدي، ذو الجلباب واسع الأكمام والعمامة الضخمة.

تعمدت ذات مرة ونحن في الفسحة أن أخرج أمام عيني إسحاق، المقلمة الصاج اللبني ذات المفصلات الصغيرة، المرسوم عليها خريطة العالم، كانت المقلمة جديدة، وصاجها يلمع من الداخل، وبها أدوات مدرسية كاملة: برْجل فضي ومثلث ونصف دائرة وأستيكة وبرَّاية وأشياء أخرى، وكأن المقلمة المرسوم عليها خريطة العالم من الخارج، تحوي كل أشياء العالم من الداخل.

رأيت الانبهار في عيني إسحاق الذي سألني: جبتها منين دي، فأعرف بسؤاله أن خطتي في طريقها إلى النجاح، وأخبره بفخر متعمد: خدتها جايزة في الجامع. ولما "يبلم" إسحاق، أكمل بحماس لديني: عشان أنا حافظ سور كتير من القرآن. وفي مرحلة استقرائى لردة فعله، أو تعليقه على ما قلته، تقع عيني، وأنا أتفرس وجهه، على السلسلة التي يرتديها إسحاق في صدره تحت مريلة المدرسة، لكنها تظهر من تحت الفانلة الداخلية عند الرقبة، كانت السلسلة تلمع في عنق إسحاق، ويلاحظ هو ذلك، فيسألني بحماس لا يقل عن حماسي لديني: عاجباك؟ وقبل أن أرد، يخرج السلسلة من صدره، فأرى في آخرها دلاية مرسوما عليها صورة المسيح، مصلوبا، فيدق قلبي بعنف لروعة الصورة ولمعان السلسلة، وحين

يرى إسحاق ذلك في عيني يقول كلمة واحدة في شكل سؤال: تبدل؟ فأهز رأسي بالإيجاب وأمد يدي كالمنوَّم مغناطيسيا بالمقلمة اللبني المرسوم عليها خريطة العالم، بينما أرى الفرحة والانتصار في عيني إسحاق وهو يحاول أن يخلع السلسلة من عنقه بسرعة، قبل أن أرجع في كلامي.

ما فعلته مع زميل الصف المسيحي، كان من باب الإعجاب بالسلسلة التي عليها صورة المسيح ذي الوجه الجميل، ومن باب التعاطف أيضا، فقد لاحظت أن أعيادنا أكثر من أعيادهم، وأعدادنا أكثر من أعدادهم، كما أنهم ليس لديهم شهر رمضان مثلنا، يحملون خلاله الفوانيس، ويأكلون فيه القطائف التي تنز بالعسل، وأهمية أن تتعاطف مع صبي في مثل سنك، لأنه لا يأكل القطائف الغرقانة في العسل، ولا يقول وحوي يا وحوي، لو تعلمون أمر عظيم.

(5)

صاحبة الولد النزق

"في حالة الخطر اتبع تعليمات الأمن الصناعي"

مخرج طوارئ

التعاطف فعل إنساني، ولمَ لا، ونحن لا نفقده حتى في أشد اللحظات حزنا، وفي أكثرها بهجة، حيث لا يفوتنا التعاطف مع امرأة لم تحصل على حظها من الجنس، ولا على قدر كافٍ من المضاجعة في فيلم "بورنو" قصير، يدور بين رجل وامرأتين، ونشعر ساعتها بتعاطف غريب ناحية تلك المرأة، الأقل حصولا على عضو ذلك الرجل وحنانه، ولا نرى لذلك الرجل أي وجه حق في ألا يعدل بينها وبين المرأة الأخرى، لمجرد أنها أكثر جمالا منها، وتجيد الغنج وتملك فرْجا متطلبا. تبًا لكم أيها الرجال، أنتم موظفون عند الجنس والجمال.

لم يكن طلبي من حارسة الحمام بعد الرشوة الكبيرة نسبيا، لدخول حمام السيدات، خلف البنت صاحبة الولد النزق، الذي مزق الخطابات العاطفية، لدوافع جنسية. إنما هي مآرب أخرى من باب التعاطف الإنساني، فبعد أن مزق الولد النزق الخطابات العاطفية، اختفى من الحديقة، ولم يعد يأتي إليها، بينما ظلت صاحبته تأتي

إلى الحديقة بمفردها، وتجلس على نفس المقعد الذي كانا يجلسان عليه معا، تقعد ساهمة شاردة، تبتسم أحيانا، وتحدِّث نفسها أحيانا أخرى وتبكي غالبا، وحين تكون نوبة البكاء شديدة، تهرع إلى حمام السيدات، لتفرغ طاقتها من البكاء، كنت أتأسَّى لحالها، ويرق قلبي لها، لذلك قررت ألا أقف مكتوف اليدين، وأن أدعم هذه الفتاة التي هجرها حبيبها.

اخترت من أيام الأسبوع يوم الإثنين، حيث يكون عدد رواد الحديقة من العاشقين قليلا، واخترت من ساعات اليوم آخره، حيث يكون عدد الرواد أقل كثيرا، واخترت من اللحظات، اللحظة التي هرعت فيها صاحبة الولد النزق إلى الحمام، بعد أن فاجأتها نوبة بكاء، كما تفاجئها الدورة الشهرية.

بحسب أيام الأسبوع يكون عدد مرتادي الحديقة كبيرا أو صغيرا، فأيام إجازات نهاية الأسبوع تعج الحديقة بالعشاق، بدءا من الخميس وحتى السبت، وتكون نوعية العشاق موزَّعة بين طلبة واقعين في الغرام، أو موظفين لهم عشيقات سريات، أو مطلقات تركن أولادهن لآبائهم، وتركن لأنفسهن الحبل على الغارب.

وبحسب أيام الأسبوع أيضا تكوْن نوعية العشاق، فعشاق أيام الآحاد غالبتيهم من الصنايعية، الذين تغلق ورشهم ومحالهم كل أحد، ويقرر ساعتها الصبيّ منهم أن يصطحب حبيبته أو الحتة

بتاعته، كما يحلو لمعظمهم أن يطلق على الحبيبة، في ابتذال رخيص لمعنى الشريك، لكن قد تلتمس لهم العذر، إذا عرفت أنهم طوال الأسبوع يسمعون سبّ الدين، يوجّه إليهم بداعٍ أو دون، وإن كان لا يوجد أبدا داعٍ لسبّ الدين من أصحاب الورش التي يعملون بها، لذلك ليس غريباً أن أمرّ بجوار أحدهم، وهو يمسك يد حبيبته في الحديقة، وينظر في عينيها بولهٍ، فأسمعه يقول، بعد أن أسترق السمع: بحب دين أمك.

الأغرب من ذلك أن البنت ساعتها، تفشخ ضبَّها من السعادة، لما قاله حبيبها الرومانسي، فالفشخ في لغة هؤلاء يعبر عن منتهى الشيء وذورة سنامه وتمامه، أو كما يعبرون أيضا بلغتهم عن ذلك قائلين لبعضه: هو ده تمامك، بما يعني أن ذلك مبلغهم من الأمر.

هؤلاء لا يتورعون عن إخراج أعضائهم الجنسية، أو أعضاء حبيباتهم إذا استبد بهم الشوق، ولا يتورعون أيضا عن إخراج مطواتهم إذا استبد بهم الحارس. بالطبع لست أنا هذا الحارس، لكن حكى لي صديق، عمل حارسا لفترة وجيزة لإحدى الحدائق القريبة من إحدى المناطق الشعبية، عن أنه ذات مرة قفش عاشقا، يخرج عضوه لفتاته، والتي كانت تمسكه بيدها كطفل صغير، وحين وقف ذلك الحارس عند رأسه - رأس الفتى بالطبع وليس رأس عضو الفتى - وهمَّ باصطحابه إلى إدارة الحديقة وتحرير محضر، أدخل

الفتى في حركة مدربة عضوه داخل بنطاله، وأخرج من جيب بنطاله أيضا مطواته، ومطواه هنا بالمعنى الحقيقي لا كالمعنى الرمزي الذي يستخدمه بعض الصنايعية في الإشارة للعضو الذكري.. مطواه قرن غزال، وهمَّ أن يغزًّها في بطن الحارس قائلا له: أشقك نصين. في الحقيقة لم يكن الحارس في حاجة إلى أن يشقه نصفين، فتركه لحال سبيله.

أنا لا أسوق هذه القصة لأقول إني أترك العشاق يلهون بأعضاء بعضهم بعضًا، لأني أخاف من الشق إلى نصفين، لكني أفعل ذلك باقتناع وعقيدة راسخة أن الحب كالعطر لا يختبئ، بما في ذلك ظهور وبروز أعضاء من الجسد لا يمكن أن تختبئ، وإلا أصبح الحب ناقصا أو عنِّينا.

أما اليوم الإثنين الذي اخترته، حتى أخفف وطأة ألم الفراق على صاحبة الولد النزق، فذلك لأن في هذا اليوم يكون رواد الحديقة قليلين جدا، وفي الغالب يكون مرتادوها من الحلاقين، الذين يأخذون يوم الإثنين يوم راحة أسبوعية لهم، وأصبحت أعرفهم من مجيئهم إلى الحديقة ذلك اليوم، ورائحة الكولونيا خمس خمسات المنبعثة من وجوههم حين أقترب منهم، ويد الواحد منهم التي لا تفارق شعر حبيبته، يمسه وكأن يده استحالت إلى مقص متحمس.

ومن الواضح أن الحلاقين أجبروا من قديم الزمن على تلك

الإجازة، إذ يعزف جل الزبائن عن قص شعورهم أو تهذيب لحاهم يوم الإثنين، الذي يقع في وسط الأسبوع، ذلك الوقت الذي لا يمثل بداية الأسبوع ولا نهايته، وعليه فقد عانى الحلاقون من قلة الزبائن في ذلك اليوم، ففضل حلاق قديم ذكي ناجح، أن يجلس في بيته، ويقضي مصالحه المؤجلة المتلتلة، فاختار يوم الإثنين.

طلبت من حارسة الحمام أن تسمح لي بدخول الحمام خلف البنت، ووعدتها بأني لن أفعل مصيبة، وطمأنتها معرفتها بطبعي، وطمأنها ودفّأها أكثر المبلغ الذي دسته في جيب جاكت اليونيفورم.

لما دخلت الحمام تفاجأت بنفسي أمام المرآة وأنفاسي مبهورة، كنت خائفا بعض الشيء، وحاولت أن أستجمع شتات نفسي وأنفاسي.

عبر باب الحمام المغلق، يأتيني صوت بكاء ونهنهة صاحبة الولد النزق، أعرف أنها مصابة بداء العشق، وأعرف أنه داء لا شفاء منه، لكني أحاول. أنظر لصورتي في المرآة، وأتأمل وجهي الذي تختلج عضلاته من الخوف، وأحاول أن أضبط إيقاعي المهتز، وأتمثل وجها هادئا وهو يقدم نصحا للفتاة، وأرسم ابتسامة علّها تبثها الطمأنينة، وأتهيأ لطرق الباب، وقبل أن أفعل تدخل حارسة الحمام لتستعجلني، وهي تنزف عرقا وخوفا، فأشير لها بالموافقة عن طريق هز رأسي، وتخرج وهي ترسم علامة التثليث، فأتذكر طقوس ديني فأرفع يدي للسماء - وفي الحقيقة لم تكن هناك سماء،

لم يكن سوى سقف حمام متهالك الطلاء - طالبا من اللـه النصرة، وبذات اليد التي رفعتها للسماء، أطرق باب الحمام المغلق، فتتنحنح الفتاة من الداخل، ولا تتكلم.. فأتفاءل خيرا بتلك الفتاة، التي تحافظ على كل طقوسنا الشرقية، حيث لا تتكلم في الحمام، وإنما تتنحنح فقط، حتى لا تتلبسها الشياطين، وأرى أن ذلك بشارة خير لأن الموقف سيمر بسلام.

بعد قليل، تخرج البنت بعيون مفحوتة من العياط، وحين رأتني تحولت العيون المفحوتة من العياط إلى فم مفتوح من الصراخ، وقبل أن يخرج الصوت كانت يدي على فمها وكأن صرختها طلقة خرجت من مسدس كاتم للصوت.

حاولت وأنا أطبق على فمها، وهي تفلفص كالذبيحة بين يدي، أن أشرح لها أني لست مغتصبا ولا لصا، لكني ناصح أمين وأعرف قصتها مع الولد النزق الذي مزق الخطابات العاطفية، وأني لا أراها "شرموطة" مثله، وأني متعاطف معها جدا وأبكي لحالها فعلا، وبينما أقول ذلك تتساقط دموعي سخينة، وأنا أرتعد من الخوف والتوتر، فتشعر البنت بدموعي، تهطل على وجنتيها، وعلى حواف فمها، الذي خففت من حصاري له قليلا، حين بدأ جسدها يسكن في يدي.

ودون أن أدري وجدتني أتلو عليها أبياتا من شعر صديقي وأنا

أبكي وأهذي:

في حديقة روحك شيئان
يستقبلان المدى
يمران عبر الطريق الذي مهدته الحروف
سوف يحلم تأكيدا بالحنين
جنة عن يمين
وجنة عن شمال
وتقوم ذاكرة لتمطر في حدائق الأساطير
الحدائق أغلقت أبوابها، والورد لم يهب الأجنة سوءا.
لا تمشِ منفردا وكن حذرا إذا ما أخطأت قدماك
كنت وحيدا.. كأن الأرض لم تخلق إلا لي
وكنت صعبا.. كأن البلاد تحاولني مرة أخرى
كان الظلام دامسا
لذلك وجدتنى أثقب السماء بأصابعي
لعلها ذات بكاء تلتقيني
دون أن يقف عزيزها بالباب
ودون أن يشهد من أهلها.
شاهدون.

أعرف أن دموعي فعلت فعل السحر، في صاحبة الولد النزق،

وأعرف أنها صدَّقتها، لكني لا أعرف لماذا لم تعد تأتي للحديقة بعدها، ربما لم يعجبها الشعر.. الشعر اللعين مثل صاحبه.

(6)

شاعر قصيدة النثر I

"لسان القط سلاحه الدائم فهو مملوء
بغدد تفرز سائلا يضمد جرحه عدة
مرات حتى يلتئم"

ناشونال جيوجرافيك

لم يكن هذياني بالشعر لحظة الخبل والخوف، مع صاحبة الولد النزق، داخل حمام السيدات من قبيل المصادفة. لكن هذا الشعر الذي لا أفهمه، طفح من داخلي مثل بلاعة مرت فوقها مقطورة فكسرتها، فانبثقت منها عيون المجاري، أو رفع عنها غطاؤها الحديدي الزهري، فلفظت خَبَثها. نعم خبثها، الشعر خَبَث ومجون، والشعراء يتبعهم الغاوون، والمخمورون.

ويصل ولع بعض الشعراء بالخمر أن يتمنى أن يدفن عند موته تحت كَرْمة كما قال أحدهم:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة

تروّي عظامي في ماتي عروقها

ولا تدفنني في الفلاة فإنني

أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وقال الخيام في إحدى رباعياته:

فإذا ما مت فاجعلها حنوطي

وتحت عناقيد الكرم

احتفر لي

وكفنّي بأوراق الشجر.

شاعر قصيدة النثر أغواني وقال اتبعني فاتبعته، أسقاني شعره خمرا، وأسقاني خمره شعرا، استغل حاجتي للكأس وضيق ذات يدي، فقاسمني الشراب وألقى على مسامعي أشعاره كاملة.

وبينما كنت أقذف داخل جوفي كأسا من الخمر، كان يقذف داخل روحي قصيدة، كان يقول حين أستعجب من ذلك الشعر: إن هذه قصيدة نثر، فأقول لا أفهمها، يقول: ليس مهما أن تفهمها، مهم أن تحفظها، كأنه يستودع قصائده عندي، ويقول: هشرحلك.

ويرصُّ كلاما لا أفهمه أكثر قائلا: ذهبت سوزان برنار إلى أنّ قصيدة النثر، هي قطعة نثر موجزة بما فيه الكفاية، موحّدة، مضغوطة، كقطعة من بلّور، خلق حرّ، ليس له من ضرورة غير رغبة المؤلف في البناء خارجا عن كل تحديد، وصنع شيء مضطرب، لكن إيحاءاته لا نهائية.

لقصيدة النثر إيقاعها الخاص وموسيقاها الداخلية، والتي تعتمد على الألفاظ وتتابعها، والصور وتكاملها، والحالة العامة للقصيدة.

وكما يقول أنسي الحاج - أحد أهم شعراء قصيدة النثر العربية إن لم يكن أهمهم - عن شروط قصيدة النثر: لتكون قصيدة النثر قصيدة حقا لا قطعة نثر فنية، أو محملة بالشعر، هناك شروط ثلاثة: الإيجاز والتوهج والمجانية.

يزيدني ما شرحه ارتباكا، فأشعر أنه يقول ذلك ليتعالى عليّ، لا ليفهمني، فأكرهه في تلك اللحظة. وحين يشعشع الخمر داخل رأسه، يقول ربما لا يبقى أحد يحفظ أشعاري سواك، بعد أن يندثر التدوين والكتابة، ويحكي لي عن الحفَّاظ الذين نقلوا كل الثقافات والديانات إلى أجيال أخرى، ويخبرني أن دوري لا يقل أهمية عن دور هؤلاء الحفَّاظ.

ورغم أنه غير مؤمن يحكي عن نزول القرآن منجما أي متفرقا، بمناسبة الأحداث التي تجري في المجتمع وقتها، والاستفسارات التي يطرحها الناس حول الوقائع والأحكام والعبادات.

فكيف جُمع القرآن وُرتبت آياته وسوره؟ يسألني أنا حافظ القرآن، ولما أسكت عن الجواب، يقول مستغربا ومتباهيا: أنت المؤمن والحافظ لا تعرف، وأنا غير المؤمن أعرف.

يحب هو أن يلعب معي دور المعلم المتباهي بعلمه أمام تلميذه البليد، فيبدأ الحكي بلسان ثقيل من أثر الخمر، مثل شريط كاسيت يسف داخل جهاز تسجيل:

كان الحفظة من الصحابة يحفظون الآيات شفاهة عن محمد.

فأرد قائلا: صلى اللـه عليه وسلم.

فينظر لي باستغراب ثم يكمل:

فقد ورد فيما يسمى صحيح مسلم عن عبد اللـه بن عمر قال: سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم.

فأنظر له باستغراب فيرد:

أنا بقولك الحديث بنصه مش معناه إني كفرت بعدم إيماني، ويضحك ويستغرق في الضحك وهو يقول:

ناقل الإيمان ليس بمؤمن.

ثم يكمل الحديث ويقول:

خذوا القرآن من أربعة، من عبدِ اللـه بن مسعود، فبدأ به، وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأُبَيِّ بن كعب، فالحديث يشير إلى كمال ودقة حفظ هؤلاء للقرآن، فهم الذين كانوا يسمعون ويحفظون عن لسان محمد مباشرة.

وحين يأتي دوري في الكلام يقول تكلم، فأقول:

ما أنا بشاعر.

يرد:

لا تقل شعرا، احكِ فقط يا حارس حديقة المحبين، قص عن قصص العشاق في الحديقة.

كان غالبا ما يناديني يا حارس الحديقة، حتى كدت أنسى أن لي اسما، وعلمني الأسماء كلها، علمني أن أطلق على الأشخاص صفات، لأن الصفات أبقى من الأسماء، وكان يضرب لي مثالا على ذلك، إذا أردت أن أحكي لشخص عن آخر وقلت اسمه فربما يسألنى: من هذا؟ فإذا قلت له: إنه ذو الشعر الفضي أو القصير الممتلئ أو "الخول" لعرفه، وأن الصفات تأتي بعد الأسماء لتكون أكثر تحديدا، ونحن نقول شجاع مثل الأسد، وغبي مثل الحمار، ولا نقول شجاع مثل فلان، أو غبي مثل علان.

كانت نظريته هشة، قابلة للتحطيم بمثال واحد، ومع ذلك صدقته، وربما رحت لما هو أبعد من التصديق، لقد اعتنقتها، لأنها تجعلك تقول عند رؤية أحدهم بمنتهى البساطة: إزيك يا "علق". لأنه كذلك، في حين أن اسمه حازم وهو ليس كذلك، وهذا يشعر الواحد منا بالدقة وتحري الصدق حين يسمِّي الأشخاص بمسمياتهم.

وحين يلح عليّ الشاعر في الحكي عن قصص العشاق أروي له قصة صاحبة الولد النزق وما فعلته معها، كان سعيدا للغاية وقال إني أحسنتَ التصرف. توقف كثيرا عند مسألة هذياني بشعره وهتف مفتخرا: كده يا معلم أموت وأنا مطمِّن.

وأكد لي أن مسالة أنه يختصني بهذا الشرف لم تأتِ من فراغ، بل جاءت بعد تمحيص واكتشاف لذاتي، وأنه قبل أن يسري إلى جسدي، عرج إلى روحي بالشعر، ووجدها مهيأة فاستودع شعره عندي، ثم يختتم كلامه في هذا الباب قائلا: وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. فأستغرب عدم إيمانه في ذات الوقت الذي يستخدم فيه تعبيرات قرآنية.

كان ينزعج جدا حين أقص له عن سلطان العاشقين، ودائما يصمه بصفة واحدة: أفّاق. ثم يذكر أن مسألة إيقاع فتيات ونساء في حبائله مسألة ليست بالصعبة، فأسهل شيء هو أن توقع النساء، لأنهن صيد سهل، وأن اصطياد بنات الأفكار أصعب كثيرا من صيد بنات البشر.

أول مرة رأيت شاعر قصيدة النثر بصحبة واحدة من بنات البشر كانت أجنبية بلوند شقراء، إنه يقول إنها بنت شقراء فاقع لونها تسر الناظرين، وحين يكون غاضبا منها يسميها بقرة صفراء. هي الجحيم الذي لا تهمد ولا تخمد ناره، وأحيانا يراها فردوسا لا يزول نعيمه، بينما كنت أخاف أن أراها، ربما لجمالها الأخاذ الذي لا يطاق.

كنت أنا حارس حديقة المحبين مع شاعر قصيدة النثر مع الأجنبية البلوند الشقراء نصلح كثالوث يمكن أن تقوم عليه دراما فاقعة.

(7)

الأجنبية البلوند الشقراء I

"فتش عن المرأة"

مثل فرنسي

علاقتي بشاعر قصيدة النثر والأجنبية البلوند الشقراء تصلح دراما إغريقية عتيدة، لكن من باب التشويق وتأخير المأساة والفجيعة لن أوضح ذلك الآن، ربما لاحقا.

الأجنبية البلوند الشقراء فرنسية تعزف الناي، وتعكف على دراسة أكاديمية متخصصة في الموسيقى الشرقية والشعر، وتقيم أحيانا حفلات موسيقية قليلة العدد وقليلة الأهمية، تعزف فيها بمهارة متوسطة على الناي أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وأحيانا عبد الحليم، وحين تكون ثَمِلة تغني للمطرب والملحن الفرنسي "جون جاك جولدمان" والذي أعرف من الشاعر أنه المطرب المفضل عند الفرنسيين، رغم تحفظه وتعقله، وتكون فخورة وهي تخبر الشاعر الذي يترجم لي أن "جون جاك جولدمان" من أشهر مطربي ثمانينيات القرن الماضي وهو مغنٍّ وملحن مشهور عالميا، وحصل على جائزة "جرامي" الأمريكية، وذاع صيته في العالم العربي من وراء أغنيته "عيشة" التي يغنيها مطرب الراي الجزائري الشاب خالد، التي ترجمت إلى ثلاثين لغة، وحطمت

الرقم القياسي في المبيعات عام 1996.

وأستغرب جدا حين يقرأ الشاعر قصائده فتهز رأسها متفاعلة مع القصائد إعجابا، وأقول في نفسي: حتى الأجانب يعرفون النفاق، لكن حين لاحظتُ اندهاشي، تقول بالفرنسية للشاعر شيئا، يترجمه لي الشاعر ترجمة غير فورية، لأنه لا يقول لي ماذا قالت إلا بعد فترة، حين يسود الصمت بيننا فأسأله: ماذا قالت عني الشقراء، فيترجم: قل لصاحبك لا يندهش، فأنا أتمايل مع الشعر كما تتمايل مع الموسيقى، نحن نحس الموسيقى ولا نفهمها.

كانت مؤمنة بأن الشعر هو موسيقى، وربما لا تكون مؤمنة بذلك، ولكن دراستها للعلاقة بين الموسيقى والشعر، هي التي تجعلها تصدق ذلك، حتى يصدقها الدكتور الذي سيمنحها درجة الماجستير.

أول لقاء بيني وبين الفرنسية، تصادف أن يكون يوم عيد ميلادي، الذي أصر الشاعر أن يحتفل به على طريقته الخاصة، فقدمها لي وهو يقول مازحا: الأجنبية البلوند الشقراء، وقدمني إليها على أني من أعز أصدقائه، والليلة هي ليلة عيد ميلادي، فمالت عليّ وقبّلتني، ونطقت كلمات بلغة لا أفهمها، قال: إنها تقول لك كل سنة وأنت طيب بالفرنسية.

ساخت قدماي في الأرض بعد قُبلتها، لم أكن أحس بشهوة، كنت فقط أشعر باستغراب، هذه أول مرة تقبّلني فتاة وأنا كبير، قبّلتني

فتيات كثيرات في سني، ونحن صغار، ربما لأنهن كن يتعاملن معي على أني إحداهن. كانت الأجنبية البلوند الشقراء تشبه إلى حد كبير بطلات السينما الأمريكية اللاتي كنت أشاهد أفلامهن مع خالي الذي كان يصطحبنى معه إلى السينما بشرط ألا أخبر أحدا عما أراه يفعله في السينما، وكنت أوافق حتى لا أفقد فرصة الفرجة على 3 أفلام في بروجرام واحد كما كان يقولها خالي.

خلعت الأجنبية الشقراء عن عنقها كاميرا صغيرة، كانت تتدلى من صدرها، الذي يشبه رمانتين، وأعطتني إياها كهدية عيد ميلادي، فلما لاحظ الشاعر ترددي قال: خذها ولا تخف.

هذه الكاميرا ستمنحني فيما بعد، بهجة في الحياة، وقلبا يدق بعنف، خوفا من اكتشاف سر هذه البهجة.

أخذني الشاعر من يدي، واضعا ذراعي تحت إبطه، وكذلك فعلت الأجنبية الشقراء مثل فعله، بأداء يشبه الرقصات المصمَّمة على مسرح فقير، مثل الأماكن التي كان يحرص الشاعر أن نذهب إليها معا. وإذا بنا نصعد نحن الثلاثة في أسانسير قديم متهالك، لكنه يصلح قطعة أنتيكا.

صعدنا حيث تسكن الأجنبية التي سحبتنا من أيدينا أنا والشاعر إلى المطبخ وفتحت باب الثلاجة المليئة بكل أنواع الخمور وصرخت: سنحتفل.

قبَّلها الشاعر وقبَّلني فرحا، وبدورها قبَّلتني. يجب أن أذكر أن إحساس القبلة الثانية كان مختلفا، كانت مساحة الاندهاش أقل، لكن مساحة التحفظ كبرت داخلي، خاصة أنني كنت غير قادر على اكتشاف ماهية علاقتها بالشاعر، فكنت حذرا وقلقا من أن أتعامل معها بصورة طبيعية، ومع ذلك لم تحُل تلك الأفكار التي تتنازع نفسي دون أن أشعر بأن فراشة حطت عليّ حين لامستني شفتاها.

شعرت أن ليلة عيد ميلادي تلك ليلة استثنائية، شربنا كثيرا ودارت الخمر برؤوسنا، فقامت الأجنبية إلى الحمام، بعدها نظر إليّ الشاعر نظرة طويلة وقال: عارف، أجمل القصائد التي كتبتها وأنا سكران، أكسبتني الخمر شجاعة وهمية. فقلت له: شعرك لا يعجبني، فقهقه قائلا: لأنك لا تسمعه وأنت مخمور، ونظر إليّ نظرة عميقة أخرى وسألني: تعرف ليه كل المبدعين بيشربوا؟

فأهز رأسي بالنفي، فيخبرني أن إله الخمر عند اليونانيين كان اسمه ديونيسوس، وأنه إله ريفي، يرعى الخضرة ويحمل لقب حامي الأشجار كما يحمي جميع المزروعات وكل الخضراوات ولا سيما الفاكهة. لذلك ديونيسوس هو إله الكروم ومخترع النبيذ، ولهذا قدسه البشر ووضعوه في مصاف أكبر القوى الخيِّرة، ولما كانت الخمر هي التي تبعث النشوة في القلوب، وتجعل الإنسان يحسن الرقص وقد تلهمه نظم الشعر، فإن ديونيسوس صار راعيا

للموسيقى وحمل لقب المغني. كانت لديونيسوس حاشية مرافقة له في مغامراته ورحلاته، وهي خليطٌ من الكائنات الأسطورية التي تمثل قوى الطبيعة الفاعلة، وتجسد العواطف والانفعالات البشرية، إنها حاشية تناسب إله الثمار ومنضج الفواكه ومبدع الخمر وراعي الشعر والموسيقى.

كما أكسبتني الخمر شجاعة زائفة.. أكسبت الشاعر موهبة زائفة، فظن أنه شاعر كبير، وأكسبته أيضا رغيا زائدا، فبعض الناس حين تتفاعل الخمر مع ألسنتهم تعقدها، وبعضهم مثل الشاعر تُفلت لسانهم، فلا يتوقفون عن الكلام، ومن فضائل الخمر بالنسبة لي أنها تلهيني عن اللغو، فيتحدث المتحدث جنب أذني، لكن الكلام يصبح لي مثل الهواء، يبدو وكأنه غير موجَّه لي حتى ولو كان المتحدث يرغِي ويعزف فوق طبلة أذني، وغير مزعج على الإطلاق.

وحين عادت الأجنبية كان الشاعر يلقي قصيدة.

ثم ألقى الشاعر قصائد ماجنة قال إنها لشعراء عباسيين، لكني غير مطالب بحفظها، وألقى قصائد أخرى لم أفهمها، وقال إنها من أشعاره وعليّ أن أحفظها، ذكرني ذلك بالشعر المدرسي الذي كان ينقسم إلى قسمين، نصف للحفظ وآخر للدراسة، ولم أكن أفهم على أي أساس هذا الشعر يحفظ وذلك الشعر يدرس، ومن باب العند كنت أحفظ شعر الدراسة، وأدرس شعر الحفظ.

الأجنبية البلوند الشقراء حين عرفت من الشاعر أني أعمل حارس حديقة، يلتقي فيها العشاق صرخت: واو. وسألتني عن المحبين والعشاق وأحوالهم وحين بدأت أحكي عن العشاق، أخرجت الناي ونفخت فيه من روحها، أغنية لكوكب الشرق، بينما أنا أحكي.

(8)

حارس الحديقة II

"ممنوع استخدام الفلاش"

يافطة

الحكي عن العشاق لا ينتهي، وقصص الحب مثل الطاقة المتجددة، لا تفنَى ولا تستحدَث من عدم، واللحظة التي لا يتحمل فيها العاشق أن يبقى الحب سرا بين فخذيه، ويهرع إلى حمام الحديقة، يفرغ طاقة الحب أكون أنا موجودا، أراقب عن طريق الكاميرا الصغيرة التي أهدتها لي الأجنبية البلوند الشقراء.

أول مرة ثبتُّ الكاميرا داخل الحمام الرجالي بالحديقة كاد قلبي ينخلع من الخوف، كانت مهمة إخفاء أو دس الكاميرا داخل كوَّة بالحائط، ليست بالمسألة السهلة، خاصة أنه من المهم ألا يظهر جزء من الكاميرا، قد يلحظه أحد العشاق.

مسألة انكشاف موضوع الكاميرا أصبحت أحد هواجسي في الحقيقة وفي المنام، حيث هاجمتني كوابيس مرعبة، عن اكتشاف أحدهم للكاميرا داخل الحمام، وعن مثولي أمام إدارة الحديقة التي أمرت بفصلي، وطردي من العمل بالحديقة، بعد مطاردة مثيرة بين أشجار الحديقة، كان من يقوم فيها بمطاردتي مدير الحديقة، الذي

كان في بداية المطاردة يرتدى بذلته كاملة، بينما أنا أسبقه بقليل، بين الفينة والأخرى أنظر خلفي، فأجده قد تخلى عن كرافتته، ثم جاكت البدلة، وحين ألتفت في المرة الأخيرة، أجد لحيته بدأت تنمو بشكل لافت للنظر، وكأن المطاردة أخذت زمنا طويلا.

وكوابيس أخرى، وقد تم الزج بي في السجن بعد محاكمة مهينة، كان يخطب فيها ممثل النيابة، ويشير إليّ وأنا في القفص صارخا: خائن للأمانة ومطلع على العورات ومتربِّح من وظيفته.

ثم يطالب هيئة المحكمة بتوقيع عقوبة الإعدام عليّ حتى أكون عبرة، لمن تسوِّل له نفسه أن يتتبع عورات الناس. أراني مرتديا البدلة الحمراء، ويتم اقتيادي في أصفادي إلى غرفة الإعدام، فأكاد أبول على نفسي، وأهب مفزوعا من النوم، أتحسس رقبتي للتأكد من أن حبل المشنقة لم يلتف حولها بعد، ثم أهرع إلى الحمام، لأتبول كمية كبيرة من المياه المبخرة الدافئة، تليق برجل كان سيبول على نفسه، وهو يجر رجليه في طريقه إلى حبل المشنقة.

أعترف أن الكاميرا التي أهدتها لي الأجنبية البلوند الشقراء ليلة عيد ميلادي الأخير، قد قلبت حياتي رأسا على عقب، صحيح هي حجَّمت خيالي بشكل كبير، وأفردت مساحة كبيرة للواقعية الجديدة، فما كان مبنيا على الخيال أصبح علميا بدرجة كبيرة، وكنت وأنا أقوم بتفريغ محتوى الكاميرا كل يوم، ونقله إلى جهاز الكمبيوتر،

الذي يربض فوق منضدة تستعمل؛ كترابيزة سفرة أحيانا، ومكتب كمبيوتر أحيانا أخرى، ومكتبة أحيانا ثالثة، إذ كنت أجلس إليها أقرأ دواوين شاعر قصيدة النثر لاستظهارها، لقاء قنينة الخمر أو البيرة التي يمنحها لي مقابل الحفظ.

أشعر وأنا أقوم بنقل محتوى الكاميرا إلى الملفات المخفية في قسم (D) على الكمبيوتر، بأني عالم جليل يخفي أبحاثه المهمة للبشرية، حتى لا تصل إلى أيدي اللصوص، الذين يستخدمون الاختراعات البريئة، المفيدة للبشر ويحولونها إلى اختراعات شريرة تدمر البشرية، وعلى سبيل المثال العالم نوبل مخترع الديناميت، الذي كان يبتغي به وجه اللـه، قد تحّول اختراعه إلى مصدر شرور العالم، بفضل الاستخدام السيئ له من قبل أشرار، يشبهون أشرار السينما الذين يحاولون العثور على الديسك أو السي دي أو الفلاشا - بحسب زمن إنتاج الفيلم - التي تحمل الاختراع لسرقته وتحويله إلى شر مطلق.

كنت أتمثل نفسي فيما أفعله، أو أخترعه مثل ألفريد نوبل رجلا يريد الخير والسلام، بينما من يحاولون الحصول على محتوى الكاميرا هم الأشرار، الذين يريدون سرقة الاختراع، في الحقيقة لم يكن هناك أحد يحاول الحصول على محتوى الكاميرا، أو بالأدق على "الفلاش ميموري" الخاص بالكاميرا، لأن لا أحد كان يعرف

أن هناك كاميرا بالحمام سواي، لكنها الهلاوس التي تصاحب ارتكاب فعل يراه البعض مشينا.

وللموضوعية فكرة أني ألفريد نوبل ليست من بنات أفكارى، ففي الحقيقة كنت أتابع برنامجا تسجيليا عن حياته على قناة ديسكفري، فهو مهندس وكيميائي سويدي. وكان قد اخترع الديناميت لأغراض سلمية لكنه استخدم في الحروب والتدمير، ومن ثم أوصى بكل ثروته التي جناها من الاختراع إلى جائزة نوبل التي سُميت باسمه.

فهل كان نجيب محفوظ يدري أن جائزته التي منحت له في الأدب، لمنحه المتعة للبشرية بقصص مسلية وهادفة عن الحارة المصرية وفتواتها، ما هي إلا كفارة لرجل شعر بالذنب تجاه البشرية. على ذكر نجيب محفوظ، قرأت روايته ميرامار من مكتبة الشاعر، وأعجبتني جدا، أسلوبها شيق، وربما أعجبتني أيضا، لأني كنت أتمنى أن أعيش في بنسيون قديم في الإسكندرية مثل أبطال الرواية. نجيب محفوظ يصف الإسكندرية في أول الرواية وصفا جميلا، ذكَّرني بأول مرة رأيت فيها بحرها فانفشخ فمي غصبا من الانبهار بروعته واتساعه وجماله وزرقته.

من خلال الكاميرا استطعت أن أمنح النطف، التي أجمعها في أكياس بلاستيك صفاتها الوراثية بدقة، ويتحول خيالي هنا إلى القس مندل، أتذكره بلحيته الكثَّة كما كانت في كتاب الأحياء بالصف الأول الثانوي، وما بين حيرتي من كوني ألفريد نوبل أو مندل

أو نجيب محفوظ، كانت متعتي كبيرة، وأنا أتلصص على رجال في كامل هندامهم، وهم ينكحون أيديهم، داخل حمام حديقة عامة، بينما يحكّون ذاكرتهم كما يحكّون ذكرهم، لمحاولة استعادة تفاصيل المحبة العشيقة المنتظرة على دكة خشبية في نفس الحديقة العامة، ومحاولة استعادة ملامح وجسد من نعشق، تجربة خبرها كل من نكح يده ويعرفها جيدا، وهي مسألة تسهم بشكل كبير في شحذ همة العضو، حتى يقذف بكل ما أوتي من قوة.

أعرف أن الكثيرين منكم يعتبرون التلصص عملا غير قانوني، وأعرف أنه لا يروق للكثرة، لكن هؤلاء وأولئك ينسون دائما أن الكل يفعل ذلك، لكن بدرجات مختلفة، وإلا ما معنى أن الكل يسير مفتوح العينين والأذنين. من منكم لا يراقب جارته من خلف الشيش الموارب، وهي تنشر الغسيل في البلكونة بملابس شفافة، من منكم لا يضع بؤبؤ عينه على العين السحرية لباب شقته، حين يسمع صوت جلبة في الطرقة الموجودة أمام باب شقة الجار الأعزب، ليتأكد من اصطحابه فتاة إلى شقته، ويبرر فعل المراقبة ذلك، بأن غرضه هو الحفاظ على قيم العمارة العتيقة. من منا لا يتابع مكالمة هاتفية بين واحد وحبيبته في مواصلة عامة.

لو أردتم عدم التنصت حقا، فعليكم أن تصموا آذانكم، وتستغشوا ثيابكم. غير ذلك، فأنتم متورطون مثلي تماما، بعيونكم المفتوحة ليل نهار، وآذانكم التي تسترق السمع.

(9)

ناكح يده كثيرا

"ممنوع ضرب العشرات"

حائط حمام

يأتي إلى الحديقة وحده، ويمشي وحده، ويأكل وحده، و"ينيك" وحده، يراقب في صمت العشاق فيتلصص عليهم في الحديقة، ويمعن النظر في العاشقة، بنظرات خبيرة مدربة حتى يستدعيها عند حلب نفسه.

يأتي ومعه حقيبة عامرة بالسندوتشات وكأنه طالع رحلة، وحين يهم عاشق بحركة جريئة يبدأ ناكح يده في لغ الطعام، وكأن السندوتش قد استحال إلى عاشقة وقعت تحت يده، أو بين أسنانه. يهرع إلى الحمام، ويفك حزامه بمهارة ودربة من كثرة ما فعل ويسقط بنطلونه عن مؤخرته التي تسد عين الكاميرا، ويلتقم ذكره بيمينه، ويبدأ في دعكه ببطء في البداية، ثم تزداد وتيرة الحك في كونشرتو متصاعد، حتى أظن أنه نتيجة احتكاك ذكره بيمينه ربما تخرج شرارة من بينهما.

وفي رحلة الحك ذات الكونشرتو المتصاعد، يسب الدين لهاجر، ويصف صفاء بـ"المنيوكة" ذات الفرج المتطلب، ويعد مُنى بأن

يضبعه بين نهديها كما تحب دائما، ويطلب من نجوى ألا تصرخ بصوت عالٍ، حتى لا يسمع من في الحديقة، ويصرخ فيهن جميعا: ماتخافوش يا "شراميط". كل واحدة هتاخد نصيبها.

ثم يتفل ناكح يده في كفه حتى يلين ذكره، قسمات وجهه الجادة، وإخلاصه في أداء عمله تشعرك أن الرجل في مهمة وطنية، وتذكرني حين حاولت أن أفعل ذلك أول مرة في طفولتي، حين أخبرني أحد الأصدقاء في المدرسة، أنه يتوجب عليّ أن أجري اختبارا لمعرفة إذا ما كنتُ قد "بلغت" أم لا، وأخبرني أن أحضر صابونة بريحة، وليست صابونة غسيل، لأنه جرب صابونة الغسيل تلك وكوت له ذكره، ويطلب مني حين أفعل فعلتي أن أستحضر في ذهني امرأة أحبها وأتخيلها معي تحت البطانية أو في الحمام أو فوق السطوح، جارة أو ابنتها، ممثلة سينما. مذيعة تليفزيون أو ربط.

كان مخلصا في النصح، أمينا في النقل فصدقته، ثم أخبرني قائلا إنه يجب أن أرغي يدي بالصابونة، وبعدها أبدأ بحك ذكري بتلك اليد ذات الرغوة، فإذا خرج من فتحة ذكري لبنٌ فهذا معناه بلوغي، وأني أصبحت رجلا، فأبتسم خجلا مما يقوله، فيكش صديق المدرسة الابتدائية المشتركة عينه ويقول: الضحكة دي خبيثة، شكلك "ضربت عشرة" قبل كده.

فأهز رأسي نافيا، وأحلف: واللـه أبدا.

وإن لم أكن ساعتها أفهم ما قاله، لكن فيما بعد أعرف أن "ضرب العشرة" هو الاسم المنتشر بين عالم الذكورة للعادة السرية، كما تسميها الدوريات العلمية والأطباء في مجلة طبيبك الخاص، أو نكاح اليد، وهذه تسمية كتب التراث كما أخبرني صديقي الشاعر.

المفجع في الأمر، أنني مع المحاولة الأولى للتطبيق العملي، لما قاله زميل الصف ذات صيف، وكان الجو نارا، وأبي في العمل، وأمي في السوق، وأخي نائم، فأنتهز فرصة غياب وتلهي الجميع إما بالعمل أو السوق أو النوم في إجراء اختبار الرجولة الأول في معملي الخاص.

في الحمام، كل شيء كان مرتبا تماما، الصابونة العطرية كاميه برائحة الليمون، البيت الفاضي، المرأة الجميلة التي تشحذ همة عضوي الصغير، كانت مذيعة الربط بالقناة الثانية حياة عبدون، تتمايل بعنقها الطويل الذي لم يعد كذلك الآن، وتقول: أعزائي كل أفراد الأسرة. وابتسامتها لا تغادر فمها، وكأن الابتسامة اتخذت ثغرها عنوانا لتسكن فيه.

خلعت ملابسي تماما في الحمام، وعلقتها على شماعة صغيرة مثبتة ببابه، ساعدتني على خلع هدومي حرارة الجو الفظيعة، وابتسامة حياة عبدون تتراقص أمامي على مرآة الحمام وهي تميل

برقبتها الهيفاء وتقول في دلال: لا يا عزيزي، بينما عيناها تقولان: نعم يا عزيزي.

لم أتمالك نفسي مع ذلك الدلال من مذيعة الربط العزيزة على قلبي آنذاك، فرغيتُ الصابونة العطرية بسرعة، وبدأت رحلة البحث عن رجولة مبكرة، كانت الرغوة كثيرة، فبدأ عضوي يتزفلط من يدي، مثل قرموط لا تزال تدب فيه الروح.

أبي الذي كان يأتي من الشغل، محصورا يجري إلى الحمام لدرجة أنه لو تأخر ثانية أظن أنه سيعملها على روحه، يطرق طرقة خاطفة على باب الحمام، لا يتمالك نفسه بعدها، فيزق الباب قبل أن أستوعب أي شيء.

لن أنسى هذا المشهد ما حييت، أنا عريان ملط، والرغاوي تملأ يدي التي تمسك ذكري المحمرّ من أثر الصابون والاحتكاك، والعرق يلجمني من حر الصيف، ومجهود الرغبة، ومفاجأة الأب.. وأبي مصعوق ومحصور ولا يدري ماذا يفعل، لايص مثلي تماما، وبعد فترة قصيرة جدا، أظن أنه كان لا يستطيع أن يطيلها أكثر من ذلك حتى لا ينحصر من البول أكثر، يشخط فيّ ويقول بانفعال وهو يفك سوستة بنطاله: دوَّر وشك الناحية التانية يا ابن الكلب، عشان هاعمل مية.

أستجيب لرغبة أبي وأوليه ظهري وأنا خجل من كون أبي يرى

مؤخرتي، وكأنه لم يرني بلبوصا تماما منذ قليل!

بعد أن فك أبي حبسة بوله.. لم ينظر إليَّ ولم يكلمني، كل ما فعله أنه أخذ كل ملابسي المعلقة والفوطة. زم باب الحمام، وخرج.

ذات مرة قررنا أن نعرف في المدرسة، لماذا تم تسميتها "ضرب عشرة" وكانت نتائج البحث كالتالي:

ـ لأنك تبذل مجهودا أثناء القيام بها يساوي ضرب عشرة رجال.

ـ لأنك تستخدم يديك الاثنتين في حركة تبادلية ومجموع الأصابع في اليدين عشرة.

ـ لأن المنتج الذي يخرج من عضوك يندفع عند العدد عشرة.

وتفسيرات كثيرة أخرى، لكن يبقى في ذهني أن كل هذه التفسيرات لم تقنعني إلى الآن، كما لم يقنعني ناكح يده، أن كل تلك الأسماء التي ذكرها هي لنساء عاشرهن، وإنما من المؤكد أنها من نسج خياله أو لنساء تمناهنَّ ولم ينلهنّ، كنت أشعر بالدرامية والمبالغة في أدائه، حتى كدت أشعر أن ذكره سيُبرَى من كثرة حكه بيده.

لكن هناك وجاهة في الأمر، فعادة المتعة الذاتية أو العشرة الطيبة كما تروق لي تسمية ضرب العشرة، تنطوي على قدرة على

الاستغناء عن العالم، ويذكرني ذلك بمقولة يرددها صديقي الشاعر لغاندي تقول: إن السعادة ليست أن تملك أكثر بل السعادة أن تحتاج أقل، فناكح يده كثيرا، ليس ضعيفا ولا وحيدا كما يبدو، لكنه قادر على الاكتفاء بذاته والانكفاء على أعضائه. هو صاحب نفسه، هو سيد عالمه بلا منازع، وحين يريد أن يستجلب بعض العاشقات، يفعل ذلك بكبسة زر الاستدعاء في مخيلته، كما كان يستدعي الملوك والأثرياء الجواري بصفقة يد داخل القصر الملكي.

كانت دائما ما تنعقد داخل رأسي مقارنة بين ناكح يده وسلطان العاشقين لا أعرف لماذا؟ رغم أني لم أرَ سلطان العاشقين، ينكح يده إلا مرة واحدة فقط، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أنه ربما بعد مغادرة الحديقة سيصطحب فتاته إلى شقة أحد الأصدقاء القريبة من الحديقة. ولأن الواحد الأولاني يكون سريعا جدا، وغير مشبع، فقد فقرر أن يستغل حمام الحديقة في التخلص من الواحد السريع البروتوكولي حتى يستطيع أن يجامع رفيقة الحديقة على مهل دون أن يعاجله القذف.

(10)

سلطان العاشقين II

"فجأة شاف أسد في البيت
فجأة شاف أسد في البيت
العلبة الذهبية من واحد لمية"

أوكا وأورتيجا
إعلان العلبة الذهبية

المرة الوحيدة التي نكح فيها سلطان العاشقين يده، كان ذلك لأسباب غير جنسية، ولغرض غير إمتاع الذات. يبدو ذلك من طريقة تعجله أثناء تمرير يده على قضيبه، كان يفعل ذلك بشكل روتيني، ويبدو كموظف يوقِّع على أوراق اعتيادية أو كمن يريد التخلص من عبء يحمله على خصيتيه، هذه المرة الوحيدة منحتني مناديل متكلسة بمنْيه أضعها داخل كيس بلاستيك، وأرصه بعناية فائقة، بجوار أكياس منيّ مختلفة لرجال آخرين، عاجلهم الشوق بعد أن ألصق عليه بطاقة تحمل اسم سلطان العاشقين، بكل فخر أنظر إلى أكياس المني التي أملكها وأحرسها، وكأني أحرس أحد بنوك الدم.

سلطان العاشقين لم يكن يعلم أنه بينما يتخلص من الواحد البروتوكولي، داخل حمام الحديقة العامة، أكون أنا مراقبا لعشقيته، التي تجلس في انتظاره على دكة خشبية، في نفس الحديقة، ولتزجية الوقت حتى عودة سلطانها، تتصرف مثل جارية تتهيَّأ تماما لليلتها مع السلطان، فتقوم ببرد أظافرها ونفخها.

سلطان العاشقين يدير ظهره للكاميرا، ويتحرك كثيرا داخل الحمام، مثل طائر حبيس داخل قفص، ويملأ وجهه الكادر فأراه ساطعا وممتلئا بالحماس للعاشقة الجديدة، التي تفتح مسارات جديدة للطاقة داخل روحه.

فهو كطبع كل السلاطين ملول، يصيبه الضجر بعد أن يملك الشيء، يزهد فيه لدرجة يستحيل معها أن تتخيل أنه سيقدم على نفس الصنف مرة أخرى، لكنه يمنِّي نفسه مع كل إشراقة عشق جديد، بامرأة مختلفة يجد فيها ما لم يجده في سابقتها، ويكون مناط التعلق بكل واحدة شيئا يخصها وحدها، يركز عليه ولا يرى فيها سوى هذا الشيء الذي يخصها دون غيرها، حتى ولو كان تشققا في باطن القدم، ولا عجب في ذلك، فسلطان العاشقين وقعت في هواه؛ فلاحات وعاملات ومهنيَّات وراقصات ومناصرات لقضايا نسوية ومحجبات وسافرات وصحفيات ومحظيات ومتحذلقات، يختلفن في كل شيء ولا يتفقن سوى في أنهن يملكن فرجا متطلبا.

ولكن ماذا بعد، ماذا بعد أن جرب وذاق كل أصناف النساء، وشم ودس أنفه في كل الروائح والعطور، بدءا من رائحة صابون محلي رخيص، مرورا برائحة جسد تسفد صاحبته على ذكرها، حتى روائح عطور عالمية باريسية، جُلبت من بلادها إلى جسد رفيقته مباشرة.

ماذا بعد لو زهد في النساء، وهل هناك صنف آخر يضمن له المتع كما ضمنتها له أحضان وآهات وتأوُّهات نساء يذبن عشقا تحته.

بعض الأحيان يتمنى لو كان مخصيًّا، ساعتها كان سيعيش وسط النساء، ولا تهتز له شعرة ولو كان في العصر القديم كان زمانه "أغا" قد الدنيا، وربما كان يشتغل مع الأغوات الذين يعملون في خدمة الحرمين الشريفين، وتوارثوا هذه المهنة منذ مئات السنين، وكلمة أغا، لقب تشريفي استُعمل في اللغة الكردية والتركية والفارسية، ويطلق على الرؤساء والشيوخ وعلية القوم منهم.

ويماثل هؤلاء الأغوات الذين توكل إليهم حراسة ومراقبة الحرمين الشريفين وبيت المقدس، أغوات آخرون يؤدون عملا خاصا لا يستطيع تأديته غيرهم، وهو فرز الرجال عن النساء في الطواف والمسعى وعند إقامة الصلاة.

وهم أيضا مراتب من خلال السلم الهرمي لوظائفهم في الحرمين، وبالتأكيد كان سلطان العاشقين سيأخذ السلم الأغوي راضيا، والذي يبتدئ من فوق بشيخ الأغوات، وينتهي من أسفل بـ"ولد عمل"، وهو الذي ينام في الحرم سبع سنوات متوالية، حتى يترقى إلى مرتبة "شيخ بطال".

لكن سلطان العاشقين سيتراجع بالتأكيد عن تلك الفكرة المجنونة،

حين يعرف كيف تتم عملية الخصي حيث يتم الجبُّ عادة في فصل الخريف لاعتبارات صحية، ولا يكتفي القائمون بالجبِّ على بتر عضو الذكورة وحده، بل يبترون بالموسي جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به، ثم يصبون في الحال على مكان البتر الزيت المغلي، ويتبعونه بإلقاء مسحوق الحناء، ويثبتون أنبوبا في الجزء الباقي من مجرى البول، ثم يدفنون الضحية في الأرض إلى ما فوق بطنه، وبعد أن يتركوه على هذه الحالة يوما إلى يومين، يستخرجونه من التراب، ويدهنون مكان الجرح بعجينة من الطين الإبليز والزيت.

كان سلطان العاشقين ينظر إلى قضيبه، آلته الحادة، التي يستخدمها في تقطيع النساء، ويخاف أن تقطع آلته الحادة تلك، في عملية جب انتقامية من إحدى النساء، إذا ما علمت بخيانته، أحيانا ما كانت تفاجئه هذه الصورة، وهو يروح ويجيء بسرعة، داخل إحدى عشيقاته، كان يحلو له أن يتصور ذكره مثل منشار حاد ينشر بلا شفقة ولا رحمة.

لكنه يواجه سؤالا وماذا بعد؟ سؤال وجودي من الأسئلة التي يضيع فيها العمر ولا يجد المرء إجابة لها، مثل سؤال لاعب كرة ماهر وهو في عز عطائه الكروي متى يعتزل؟

بدلا من هذا عليه أن يعمل ويعطي كل طاقته في اللعب، لأن عمر اللاعب قصير في ملاعب الكرة، كما أن عمر الذكر قصير

في ملاعب النساء، ولا يصح أن ينقضي عمراهما في تلك الأسئلة اللعينة والخيالات المريضة التي دائما يرى فيها جمهوره من المشجعات وجمهوره من النساء ينصرفن عنه ويذهبن للاعب جديد يمتلئ طاقة وحيوية.

كل رجل يعرف أن آلته ذات عمر محدود لا يتجاوز ربع حياته على الأرض، وأن دوره كذكر منتج يبدأ مع البلوغ، وينتهي حين يفشل في حرث النساء في السرير، يجدب ذكره، وتعطب آلته، ويصبح مثل الأرض البور، التي لا تفلح معها كل أنواع الأسمدة والمقويّات الجنسية، التي تتنافس شركات الدواء العالمية في إنتاجها، وفي منح ذكورة زرقاء في شكل قرص فاخر معتبر، يمنح صاحبه لياليَ حمراء معتبرة، بالمصادفة، نعم، فالفياجرا حبيبة الرجال والنساء أيضا! كانت في البدء علاجا للقلب، لكنه فشل. من قال إنه فشل؟ فقد عالج بالفعل قلوب الرجال، فالكل يعرف أن قلوب الرجال في نصفهم السفلي.

طرح دواء الفياجرا في الأسواق عام 1996 وحققت شركة فايزر المنتجة له منذ ذلك الوقت ربحا يقدّر ب 15 مليار دولار، ويقدّر أنه كل ثانية يتم استهلاك 9 حبات فياجرا في العالم.

قصة اختراع هذا الدواء، الأول من نوعه في هذا المجال، والذي ما زال يزرع الابتسامة والرضا على وجوه الرجال، والنساء أيضا

طيلة ما يقارب عقدين من الزمن، قصة عجيبة.

في عام 1991 أجرى طبيبان إنجليزيان من مدينة "كنت" البريطانيّة عدة تجارب، لتطوير دواء يستخدم لعلاج ألم الذبحة القلبية، الهدف منه توسيع شرايين القلب، وأيضا علاج ارتفاع ضغط الدم.

فشلت التجارب والدراسات فشلا ذريعا في علاج الذبحة القلبية وخابت آمال الأطباء، لكن لوحظ بعد انتهاء التجربة أن الرجال الذين شاركوا في البحث قاموا بالاحتفاظ بما تبقى من حبّات الدواء ورفضوا إرجاعها للباحثين، ولدى التحري عن السبب، لوحظ أن إجابتهم جاءت متوافقة معترفين أنها حسّنت الأداء الجنسي عندهم بشكل ملحوظ.

لم يغفل الأطباء هذه الميزة غير المتوقعة للدواء المدروس، وسرعان ما حوَّلوا مجرى البحث للتحري عن فوائد الفياجرا في معالجة ضعف الانتصاب لدى الذكور، وأكملت الدراسة في هذا الصدد، فكانت النتائج مذهلة في هذا المجال.

دورة حياة الذكورة القصيرة التي تساندها تلك الأدوية الزرقاء، جديرة بأن تجعله يلحق كل ثانية فيها، ولا يضيِّعها في تلك الأسئلة التي لا طائل منها، سوى إضاعة الوقت والفرص، وعليه أن يلحق الآن بجاريته، التي تنتظره على دكة خشبية بالحديقة، وإن كان ولا بد من التفكير في هذه المسائل، فليكن بين شوطي المباراة،

في استراحة ما بين الشوطين، كما يتلقى اللاعبون التعليمات من المدرب في كرة القدم، أو في وقت مستقطع كما في مباريات كرة السلة، أو في استراحة بين واحدين كما في الجماع، حيث تكون الحكمة والأسئلة الوجودية في أوج عظمتها.

(11)

جارية السلطان

"ممنوع الكتابة على الشجر"

لافتة على شجرة فيكس بنغالي

بعدما انتهت من برد أظافرها، جلست جارية سلطان العاشقين، تنتظر عودته من حمام الحديقة، كانت تجلس على دكة خشبية مصنوعة من جذوع الأشجار، وأمامها شجرة ضخمة تبدو من نفس نوع الدكة الخشبية.. لفت انتباهها ذلك التشابه، وأعجبت بفكرة صنع مقعد في حديقة عامة من نفس نوع الأشجار، الذي ينتشر في تلك الحديقة، وفكرت في أن تصنع بمبردها شيئا مشابها في تلك الشجرة الرابضة أمامها، لكن تفكيرها لم يسعفها سوى بنحت قلب وسهم داخل الشجرة، لتنقش على طرفي السهم اسمها، واسم سلطان العاشقين.

وقبل أن تستعمل مبردها في نحت قلب على لحاء الشجرة، تتلفت حولها يُمنة ويُسرة، وترى إن كان أحدٌ من حراس الحديقة يرى فِعلتها، فهي تعرف بحكم ارتيادها الحدائق العامة، أن بعض حراس الحدائق يتمتعون بغلاسة فطرية، تجعل الواحد منهم ينصِّب نفسه إلها للعفة، ويصبح مثل مضرب الذباب، يصطاد القبلات في الهواء قبل أن تصل إلى شفاه أتعبها الظمأ.

لذلك ما من قُبلة قبّلتها لشفاه أو عضو عشيقها، إلا وكانت عينها تدور في أرجاء المكان، مفتشة عن حارس حديقة متأهب، لسحبها هي والعاشق لتحرير محضر عاطفي ضدهما، وشيئا فشيئا أصبح هناك ارتباط شرطي بين أفعال الحب، واستدارة عينيها داخل محجريهما بحثا عن حارس الحديقة المترقب، حتى وهي تتمرمغ فوق سريرها وحبيبها فوقها، يحدث ذلك لدرجة أنها ذات مرة ضحكت رغما عنها، وكادت تفصل من "المود"، بينما كان يركبها عامل توصيل الطلبات للمنازل فوق سريرها، لأن "يونيفورم" محل البيتزا الذي يعمل فيه هذا الديلفيري يشبه إلى حد كبير زيّ رجال أمن الحدائق ذا اللون اللبني، و"الإزبلايط" على الأكتاف.

ساعتها شعر عامل خدمة توصيل الطلبات بالإهانة، ورجح أنها ربما تسخر منه لأن عضوه صغير أو لأن مهنته بسيطة، وكان على وشك أن ينفجر في وجهها، ويخبرها أنه خريج كلية التجارة، وأن المكنة التي يقوم بتوصيل الطلبات عليها ملكه، وليست ملكا لمحل البيتزا، وأنه ليس فقيرا جدا كما تظن، لكنه تراجع حين اعتذرت له، وكان اعتذارها رقيقا، مشفوعا بقبلات دافئة وساخنة مثل البيتزا، التي تفوح رائحتها من فمها.

عامل توصيل البيتزا للمنازل، وجد أنه من المناسب، بل ومن الضروري - حتى يلطِّف الأجواء التي توترت نتيجة سوء التفاهم

الذي حدث بينهما - أن يحكي للزبونة التي جلب لها البيتزا، فجلبته لسريرها، تاريخ البيتزا كما تحصَّل عليه من خلال دورة تدريبية قصيرة، سرد فيها المحاضر نشأة البيتزا بطريقة مشوِّقة، في الحقيقة هي لم تكن سلسلة محلات هي: 3 محلات بالعدد، واحد في فيصل، والثاني في الشرابية، والثالث وهو أرقاها في منطقة عابدين. حكى لهم المحاضر، أن بائعا جوالا كان يبيع في شوارع أحياء نابولي الإيطالية الفقيرة، نوعا خاصا من الخبز المفرود والمزخرف بصورة جميلة. وكان الفقراء يتهافتون على شراء هذا الخبز، ومع الأيام وإقبال الناس على هذا البائع أخذ يتفنن في إعداد هذا الخبز وأضاف إليه شيئا من الزخرفة الأخرى.

وحين بدأ عامل الديليفري، يخبرها أن الملكة مارجريتا ملكة إيطاليا وزوجها، كانا في جولة لتفقد أحوال رعيتها، في ذلك المقطع من الحكاية، أخذت جارية السلطان وضعية من يستمع لحدوتة قبل النوم، وتوسَّدت فخذه وأخذت يده، ووضعتها فوق شعرها حتى يداعبه، وهو يحكي فاستجاب، وبدأ يتخلل بيده في شعرها، وعاد يحكي. شاهدت الملكة أولئك الفقراء يزدحمون على ذلك البائع، ويأكلون من ذلك الخبز الذي كانوا يسمونه بيتزا، فأعجبها طعمه وشكله وداومت على أكله، وأصبحت تخرج لذلك البائع خصيصا لأكل البيتزا، لكن رئيس الطهاة لم يرق له خروج الملكة الدائم لأكل ذلك الخبز فأخذ يصنعه لها، وما لبث أن أضاف إليه شيئا من

صلصة الطماطم، فأعجبها أكثر وأكثر ثم توالت الأيام.

وكان أن أضاف إليه شيئا من جبنة الموزريلا والريحان الأخضر ممثلا بذلك ألوان العلم الإيطالي: الأحمر من صلصة الطماطم، والأبيض من الجبن، والأخضر من الريحان.

وسمِّيَ ذلك الخبز باسم الملكة (بيتزا مارجريتا)، وهكذا اشتهر هذا النوع من البيتزا بهذا الاسم إلى يومنا هذا، تمييزا له عن بقية الأنواع الأخرى.

وكانت جارية السلطان قد طلبت بيتزا، وحين أعجبها عامل التوصيل طلبت منه بيتزا مارجريتا إضافية لأن البيتزا السوبريم طلبتها أمها، ثم نزلت بعد أن جاءها تليفون عاجل من أختها، وهي لا تحب هذا النوع من البيتزا، وترجَّته أن يأتي بالبيتزا ساخنة على نار، ووعدها بذلك بابتسامة مهنية تعلمها من إعلانات الشركات العملاقة للوجبات السريعة على شاشة التليفزيون.

في الفترة التي ذهب فيها عامل الديليفري لجلب بيتزا المارجريتا، كانت جارية السلطان تفتش عبر جوجول عن أحد أهم المواقع الإباحية الأثيرة لديها pornhub في أحد أقسامه الكثيرة والمتعددة، عن موقف مشابه لعلاقة بين امرأة وحيدة، وعامل ديليفري، ويا حبذا لو كان عاملا بأحد محلات البيتزا، حتى لا يكون هناك

انفصال بين الواقع والتطبيق، وكانت قد شاهدت من قبل مقاطع قصيرة من هذا النوع.

بالفعل حصلت على ضالتها: اسم القسم والموقع، وجدت مقطعا، تفتح فيه البورنو ستار الباب لعامل التوصيل والذي يتصادف أن يكون عاملا لمحل بيتزا، وبالفعل يعطيها العامل طلبها، وحين تذهب لجلب النقود تتحسس جسدها بشهوة عارمة وتعود عارية كما ولدتها أمها، إلا من النقود التي تمد بها يدها لعامل التوصيل، الذي يبلع ريقه بصعوبة، ثم يمد يده ليأخذ الحساب، فتجذبه إليها وتتحسس بنطاله. وتخلع عنه كابه، في هذه الأثناء تكون جارية السلطان قذفتِ مرة أو مرتين، وتنتظر عامل البيتزا الحقيقي، ورغم الفارق الهائل في الطول وقوة البنيان بين البيتزاوي في مقطع البورنو حيث زاده الله بسطة في الجسم، وبين البيتزاوي البائس خريج كلية التجارة فإن "اليونيفورم" المتشابه، قام بإكمال الصورة الذهنية، وسد الفوارق الهائلة في الحجم، وقوة الباءة.

لم تكن هذه نهاية جارية السلطان مع البيتزا، فبعد أن يخبو الحماس بينها وبين سلطان العاشقين لأسباب تخصه وحده، تتعرف من خلال الحديقة - ملتقى العشاق - إلى ناكح يده كثيرا، ويترافقان إلى محل بيتزا، بعد أن دعته جارية السلطان من أجل أن يغذِّيها بينما كانت تتأبط ذراعه وهو غير مصدق نفسه أن امرأة ذات دلال وجمال دعته قائلة: فيه محل بيتزا في أول فيصل يجنن.

لن تستطيع جارية السلطان رغم حرصها وبراعة دوران عينيها في محجريهما، مثل عيون النمرة لاكتشاف أن أحدا يراقبها، أن تراني، فأنا متوارٍ خلف شجرة، وهذه مآرب أخرى تكتسبها أشجار الحديقة، غير أنها تُصنع منها دككٌ خشبية للعشاق، ومرمى لسهام كيوبيد.

وتبدأ جارية السلطان في أعمال الحفر على الخشب ـ الشجر ـ وترسم بمبردها قلبا ذا بُطين أيمن معوج، لم يحالفها الحظ في أن يكون منضبطا مثل البطين الأيسر، قبل أن يفاجئها عامل النظافة النحيف زوج حارسة حمام السيدات، وكأنه جنِّيّ خرج لتوه من تحت الأرض وفي يده مقشة طويلة يشبه بها حراس معابد الفراعنة.

(12)

عامل النظافة النحيف

"الحديقة ملكُ لكَ فحافظ على نظافتها"

الهيئة العامة لتنظيف وتجميل القاهرة

المقشة البلح الطويلة التي يكنس بها أوراق الأشجار المتساقطة، المقشة التي يتوكأ عليها للراحة، بعد تعب الكنس لفترات طويلة، خاصة حين يكون المشرف موجودا، ويفتش عن كل ذرة تراب خلف عامل النظافة النحيف، المقشة ذات العصا الطويلة يتوكأ عليها، وله فيها مآرب أخرى، مثل استعطاف رواد الحديقة، وخاصة من هم في وضع تلبُّس، حين يعمل بهمة أمامهم، ويكنس كما لم يكنس من قبل، وفي عينيه رجاء، ربما يجود أحدهم بمال، أو بنصف علبة بيبسي، أو بسندوتش يرم العظم، وإن كان أكثر ما يهم عامل النظافة النحيف هو المال، لأنه على أية حال بمجرد مغادرة الرواد، يهرع إلى بقايا طعام أو شراب فينسفها نسفا. أما المال فلا بد من قليل استعطاف، بالإضافة إلى همة مفتعلة في العمل، ويا حبذا، لو تلألأت حبات العرق على وجهه المكدود، وبالغ في رسم علامات البؤس على ملامحه.

ورغم محاولات إقناعه وغيره من العاملين بالهيئة العامة

لتنظيف وتجميل القاهرة، بأن مهنتهم هي مهمة جليلة، ولولاهم لامتلأت وسُدت شوارع وطرق المدينة بالقمامة، حتى إن زميلهم عامل النظافة المثقف الوحيد بينهم، يئس من إقناعهم، وهو الذي دائما ما يحتفظ بأي كتاب يجده في القمامة حتى لو كان نصف كتاب، هو غريب لا يشبه العاملين بالهيئة العامة لتنظيف وتجميل القاهرة الذين تنحصر أحلام يقظتهم ومنامهم، في أن يجدوا مبالغ مالية في الزبالة، أو قطعة من الذهب، أو يمنحهم عابر رصيف في حنو بالغ حقيبة سامسونيت مليئة بالنقود، والذين يرون مهنتهم ما هي إلا مهنة الشحاذة المقنّعة. زميلهم المثقف يعلق في لوحة إعلانات صغيرة تشبه مجلات الحائط داخل الهيئة هذه القصة: لا أنسى توفيق الحكيم وهو يمسك المقشة، ويكنس الشارع، فقد كان يقود حملة لتنظيف شوارع القاهرة، وقد صُوّر ممسكا بالمقشة، كان الحكيم سعيدا بنشر صورته بإحدى المجلات، وهو يكنس، وكان يقول إن النظافة حضارة والحضارة نظافة.. ولن تكون مصر في حالة حضارة إلا إذا كانت نظيفة.. فمشكلة مصر عدم نظافتها.. ولن تكون نظيفة إلا إذا نزل المثقفون والأدباء والكتّاب، أي صفوة المجتمع إلى الشارع.

حين شرعت جارية السلطان في رشق سهم كيوبيد، داخل قلبها المعوج، كان عامل النظافة النحيف عند رأسها المائل، على جذع

الشجرة يهتف بتوسل: كل سنة وانتي طيبة. تلك الجملة التي اخترعها الشحاذون في بلادي، ليجعلوا أيامنا كلها أعيادا أو بالأحرى أيامهم كلها أعيادا.

في موقف ملتبس مثل هذا، لا يسع المرء إلا أن يدفع، خاصة وقد ضُبط متلبسا، وهو يشوه ويخرب إحدى الممتلكات العامة، كتلك الشجرة الباسقة، أو حين يضبطك شرطي، وأنت تخطف ملفًا عكسيا بسيارتك، ساعتها لا يسعك إلا أن تتوقف، وتدفع له وأنت تبتسم، ولسان حال كل منكما يقول للآخر: كل سنة وأنت طيب.

ولأن البنت نحيفة، قبل منها المبلغ البسيط الذي جادت به، فهو في حنين دائم إلى امرأة خفيفة لا تبرك فوقه رامية ثقلها عليه، مثل زوجته اللحيمة التي مجرد ما إن تنتقل للنوم إلى جواره في سريرهما المسكين، يشعر بالسرير يبكي من تحتها، كما ينوء هو بثقلها حين تركبه في لقائهما الحميمي العقابي، يريد أن يفهم سر إصرارها على ركوبه رغم ثقل وزنها، لماذا دائما تصر أن تكون فوقه؟ هل لديها شعور بالتسيد تجاهه، لأنها هي التي جلبت له تلك الوظيفة.. عامل نظافة بالحديقة؟

هو لا ينكر أن الوظيفة تعجبه، وإن كان ذلك ليس مبررا لأن تفعل ما تفعله معه في السرير. لكن لأجل عيون العمل بالحديقة عليه أن يتحمل، فهو هنا في الحديقة يكسب جيدا، حين يجود العاشقون المتلبسون، كما أنه يشم هواء الحديقة النظيف، بدلا من الجلسة

طوال النهار في غرزة الموقف التي منحته رئة سوداء، وربما قلبا أسود أيضا، حيث كان يعيش وسط دخان السجائر، والشيش، وعوادم السيارات المتهالكة، وأبخرة الشاي المغلي كثيرا.

لم تكتف غرزة الموقف بمنحه كل هذا الدخان الكثير، لكنها منحته أيضا تلك المرأة الهائلة زوجته التي تعرف إليها في الموقف، حين كانت تركب كل يوم في نفس الميعاد، تجلس قبالته فيشوف الصليب المدقوق في يدها، يعلن بوضوح عن هويتها الدينية، بينما السلسلة ذات الصليب، تبدو مثل طفل رضيع متشعلق في عنقها المدكوك في كتفيها، بلا أي مساحة تهوية، وتقرأ في الكتاب المقدس. كل شيء فيها من مخبرها إلى سحنتها يعبر عن هويتها الدينية، حتى كاد أن يشعر بها مسيحا، يجلس على دكة خشبية في موقف سيارات أجرة، جاء ليخلصه من آلام العمل بالموقف.

ديانته نفس ديانتها، لكن لا شيء يعبر عن هويته الدينية مثلها، فهو لا يحمل صليبا ولا إنجيلا، فعائلته لم تعمِّده، ولم تدق الصليب في يده، هو الوحيد دون أخوته، وذلك لسبب غير معلوم، ولا يدري ما الذي دفعه حين التقت عينه بعينيها ذات مرة، أن يقوم بعلامة التثليث حال استفتاحه بأحد الزبائن، الذي نفحه ثمن كوب شاي، وبدلا من أن يقوم بتقبيل فلوس الاصطباحة كما جرت العادة، وجد نفسه يقوم بعلامة التثليث ليعلن لها بكل وضوح عن هويته الدينية، وكانت المرة الأولى التي تعرف فيها هذه المعلومة، لأنه حتى الاسم

الذي كان ينادَى به من قبل قائدي سيارات الأجرة ليل نهار، كان اسما محايدا مائعا، يصلح لكل الديانات، وليس اسم علم من أعلام المسيحية.

تمنى ساعتها لو كان يملك اسما مسيحيا خالصا، جرجس مثلا أو صليب. اسمه المحايد الذي ليس اسم علم مسيحي، بالإضافة إلى يده الخالية من التعميد، كانا سببا في مواجهة الكثير من المواقف المحرجة منذ طفولته، حتى إنه اضطر إلى الصلاة في مساجد المسلمين، في مواقف مختلفة، والأدهى أنه صلى بالناس - في الحقيقة هم لم يكونوا كبارا بل كانوا أطفالا - صلاة المغرب ذات مرة ببعض الآيات من سورة يوسف، التي كان يحفظها من تسجيل المقهى الملاصق لبيته. صاحب المقهى يدير نفس الشريط يوميا، يستفتح به العمل، كان يراه وهو يسمك الخرطوم كل صباح، يرش أمام مقهاه، بينما الشيخ محمد صديق المنشاوي، الذي عرف اسمه من صاحب المقهى، لما سأله عن الذي يقرأ القرآن في التسجيل بحس جميل: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ۝ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فيخاف أن يفعلها إخوته معه، مثلما فعل إخوة يوسف، رغم أن أباه لم يكن يحبه مثلما كان يعقوب

يحب يوسف، لذلك لم يكن يذهب بعيدا للعب مع إخوته في الزرائب، حتى لا يرمونه في البئر، أو مع خنازير وحلاليف تلك الزرائب.

أحب أبا يوسف في القرآن أكثر مما أحبه في الإنجيل، لأنه كان طيبا في القرآن، ولم يشخط في ابنه يوسف، كما شخط فيه في الإنجيل، حين قص عليه رؤياه والشمس والقمر له ساجدان، أما إخوة يوسف، فكانوا أشرارا - مثل إخوته - على أية حال، سواء في الإنجيل أم في القرآن. يتذكر حين اصطحبه أبوه إلى الكنيسة ذات مرة، وسمع القسيس يتلو من الإنجيل:

وَحَلُمَ يُوسُفُ حُلْمًا وَأَخْبَرَ إِخْوَتَهُ، فَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ. فَقَالَ لَهُمْ: "اسْمَعُوا هذَا الْحُلْمَ الَّذِي حَلُمْتُ... إِنِّي قَدْ حَلُمْتُ حُلْمًا أَيْضًا، وَإِذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا سَاجِدَةٌ لِي". وَقَصَّهُ عَلَى أَبِيهِ وَعَلَى إِخْوَتِهِ، فَانْتَهَرَهُ أَبُوهُ وَقَالَ لَهُ: "مَا هذَا الْحُلْمُ الَّذِي حَلُمْتَ؟ هَلْ نَأْتِي أَنَا وَأُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الأَرْضِ؟" فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ، وَأَمَّا أَبُوهُ فَحَفِظَ الأَمْرَ.

كان يتمنى أن يكون أبوه في معاملته وحبه له مثل يعقوب مع ابنه يوسف في القرآن، الذي كان يبكي لفراق ابنه، حتى ابيضَّت عيناه من الحزن، أما هو فأبوه كان يجعله يبكي من الحزن، لأنه يعامل إخوته أفضل منه، لا يعرف منذ أية لحظة بدأ أبوه لا يحبه

معها، ربما من ساعة مولده، وذلك يفسر له الآن لمَ لمْ يعمِّده، كان يسمعه يقول لأمه في صيغة اتهام حين يغضب منه لأتفه سبب: الواد ده مش من صلبي.

في الوقت الذي يكون فيه عامل نظافة الحديقة منشغلا بالتشكك في صحة نسبه، ويتذكر خوفه القديم من أن يرميه إخوته في البئر، أكون أنا منشغلا بالولد النزق الذي مزق الخطابات العاطفية، وهو يظهر من جديد في الحديقة بصحبة فتاة أخرى، تشبه إلى حد بعيد صاحبة الولد النزق، فأفرك عيني، حتى أتأكد هل عاد الولد النزق لصاحبته، أم أن هذه الشبيهة ما هي إلا أختها التي ارتمت في بئر ذلك الولد النزق بمحض إرادتها.

(13)

الولد النزق II

"المرأة كالسيجارة أولها في فمك وأوسطها
في صدرك وآخرها تحت قدميك"

حائط facebook

غريب يا أخي والله أمر المحبين، فما يلبث عاشق أن يتخلص من حبيب آلمه، حتى ينتقل إلى حبيب آخر يشبهه لدرجة تذهلك، فتفكر هل هذا نوع من الحنين؟ أم أن العشق مثل الطعام والشراب والملبس، ما هو إلا ذوق، ولكل ذوقه، الذي يتكرر في نفس الاختيارات، فالذي يحب الكمثرى سيظل يختارها كلما جاءت له فرصة الاختيار من طبق أمامه مليء بأنواع الفاكهة المختلفة.

لديَّ نظرية - قد تبدو غريبة لأول وهلة - تدعو إلى استبدال الفاكهة بالنساء، وذلك على اعتبار أن الفاكهة كائن مسالم، ويستطيع القيام بنفس الدور الذي تلعبه المرأة، فكما تلاحظون، هناك فاكهة رجولية مثل البطيخ والبرتقال، وهناك فاكهة أنثوية بامتياز؛ المشمش مثلا كالنساء سواء بسواء، موسمه قصير، مفضوح الزهو، مبهرج اللون، لذيذ المذاق، مر النواة.

وكذلك الموز أيضا، سهل التقشير، ممشوق القوام، ناعم البشرة، طري الملمس، لذيذ الطعم، يمكن ببعض الجهد تحويل كليهما إلى عصير، إلا إذا كنت كسولا بشكل لا يطاق!

أما أقرب الفاكهة للنساء فالمانجو بلا منازع، بعض الثمار وقورة خضراء، والأخرى صفراء متبرجة، مكتنزة بدينة القوام أحيانا، رشيقة القوام ناعمة أحيانا أخرى.

ليس من قبيل المصادفة أن المانجو لها ثلاث طبقات؛ بشرة ناعمة وقوام لين وقلب صلد، هذا القلب لا سبيل للوصول إليه إلا بكسره، وهو في كل الأحوال مر المذاق بعكس المتعة الفائقة للقوام اللين، من أجل ذلك فإن أغلبية عشاقها يتلذذون بنعومة القوام اللين، ولا يعبأون بالقلب.

على أنه توجد للمانجو مزايا كثيرة يصعب وجودها في المرأة، النساء متقلبات جدا ويتغيرن بسهولة، لكن هل رأيت من قبل ثمرة مانجو خائنة؟

بدانة المرأة كارثة، لكن ماذا عن اكتناز المانجو؟ النساء يعشقن النكد، ويحترفن العكننة ولا أظنك - مهما كنت متحاملا - قابلت ثمرة مانجو نكدية أبدا.

لن تطالبك ثمرة المانجو قط بتكريس حياتك من أجلها، وإذا أردت أن تخلو بنفسك قليلا فلا مشكلة مع المانجو!

التنوع سهل جدا في المانجو، لكنه مستحيل مع النساء، عليك أن تتصور مفاوضاتك المضنية مع أهل المرأة، واضطرارك لتحمل حديث الأب الذي لا ينتهي عن نفسه، ومباهاة الأم بابنتها وسخافات

إخوتها، في الوقت الذي لا توجد فيه مفاوضات من أي نوع مع بائع المانجو. ثم إنها لن تشتري بمالك الذي جمعته بدم قلبك أدوات تجميل لتتزين لغيرك، شخصيا لم أصادف أبدا ثمرة مانجو متبرجة!

وفي شهور الشتاء، حينما ينتهي موسم المانجو، فعليك - عزيزي الرجل - باليوسفي، صغير الحجم معطر الرائحة سهل التقشير!

حين رأيت الولد النزق مع بنت تشبه إلى حد كبير الكمثرى، أو صاحبته التي حاصرتها من قبل داخل حمام الحديقة، جفلت للحظة، وتضايقت أن البنت عادت إلى الولد النزق، بعد أن سبها ومزق الخطابات العاطفية، لكن مع قليل من الإمعان والاقتراب منهما، بحيث أراها ولا تراني أدركت أنها ليست نفس الفتاة التي ألقيت على مسامعها الشعر، بينما يدي تطبق على فمها.

راعني الشبه الكبير، وقلت: ربما الولد النزق مهووس بمضاجعة كل بنات تلك العائلة، ربما أراد أن يؤلم صاحبته أكثر فقرر أن يعاشر أختها. وتمثلته مثل فحل طلوقة يتم جلبه لمزرعة لينزو على كل إناث البقر في تلك المزرعة، دون أدنى اعتبار لزنا المحارم. مثل الفحل الهولندي الطلوقة، الذي تسبب في أزمة بين السودان والعراق، أثناء الغزو الأمريكي للعراق، كما جاء في الفيلم التسجيلي، الذي عرض على الجزيرة الوثائقية، تلك القناة التي كنتُ قد بدأت

أتابعها بشغف بعد أن بدأت ناشونال جيوجرافيك، وإنيمال بلانت في تكرار أفلامهما بصورة مملة.

كان لدى شركة سكر سودانية فحل فيريزيان، وظيفته الأساسية تهجين الأبقار ورفع نسبة الجينات الهولندية في أبقار المنطقة المعروفة بضعف إنتاج الألبان مقارنة بالبقر الهولندي. والفحل أتت به الشركة خصيصا لتحسين نسل أبقار الموظفين بالشركة، فيأتي الموظف ببقرته سعيدة الحظ ويدخلها إلى الحظيرة ويغلق الباب ويراقب المعركة من بعيد، فما إن يغلق باب الحظيرة ويشم هذا الفحل رائحة الأنثى حتى تصيبه حالة من الشبق العارم، فينتفض مثيرا الغبار ويصدر خوارا يصيب البقرة المسكينة بالهلع، ويصيب صاحبها بالرجاء ويطفق يدعو في سره خوفا على استثماره الذي وضعه تحت رحمة تلك الدبابة الحيوانية التي لا ترحم، ويدعو أن يأتي ربنا بالعواقب سليمة، وتحمل البقرة في بطنها نطفة هولندية تزيد من دخله وترفع رأسه بين الزملاء. تحاول البقرة الإفلات يمينا ويسارا ولكن هيهات فالباب وراءها والفحل الشبق أمامها وتحاول البعض منهن القفز فوق السور، لكن أولاد الحلال رفعوا السور بصورة يستحيل معها الإفلات والقفز فوقه إلا للطير، وفي النهاية لا تجد البقرة المسكينة غير الاستسلام لهذه الرغبة العارمة والشبق المحمي بكتل من العضلات، فترى

أنه لا بد مما ليس منه بد فتهدأ مستسلمة ومسلمة مصيرها لهذا الفحل الهولندي الذي لا يرحم.

وحظيَ هذا الفحل الهولندي الجبار بلقب تسبب في أزمة دبلوماسية بين السودان والعراق، فقد أطلق السكان المحليون على الفحل لقب صدام حسين، وكان ذلك بعد حرب الخليج الأولى، ونتيجة للتكثيف الإعلامي، صوِّر صدام كبطل جبار، سيهزم كل الجيوش الصليبية ويذيقهم كأس الهزيمة ويردهم خائبين، فأصبح كل من يريد أن يحسِّن نسل بقرته، يقول إنه سيذهب ببقرته إلى صدام حسين.

طبعا في إطار التعاون وتوثيق العلاقات مع دولة العراق الشقيق، تم تنظيم زيارة للاطلاع على مراحل صناعة السكر ومدى تقدمها، ومن ضمنها كان الاطلاع على إدماج الحيوان في دورة زراعة السكر، وتمليك الموظفين للأبقار المهجنة، ودعم دخولهم بمصادر أخرى.

وقد وقع على عاتق مدير العلاقات العامة بشركة السكر عبء مرافقة الوفد الزائر، والطواف على المزارع والمصنع، وجميع مرافق المصنع، ومن ضمنها زيارة صدام حسين في مربضه، كأنه أرادها مفاجأة مفرحة للوفد، فكانت الضربة القاضية.

فما إن وصل الوفد للحظيرة حتى قام بواجب التعريف بين الوفد والوحش الشبق، فقال واصفا الفحل بأعظم الصفات، وختم بأننا

نطلق عليه اسم صدام حسين، فثار السفير العراقي، وغضب غضبا شديدا: كيف تهينون القائد العظيم هكذا وتطلقون اسمه على ثور؟ وحاول مدير العلاقات العامة تدارك الموقف فطفق يطلق على الثور من صفات الشجاعة والنخوة والثبات والصمود والقدرة، فقال السفير الدبلوماسي المحنك في دهاء: إذا كان الموضوع هكذا فلماذا لم تطلقوا عليه اسم عمر البشير، وهو الأحق بحكم أنه رئيسكم وتؤمنون أن صفاته لا تنقص شيئا عما ذكرته؟

لم يكن يعلم الولد النزق مثل الفحل الهولندي ما قد يسببه نزقه من أزمة غير دبلوماسية، وهو يطوِّق عنق الفتاة وكأنه يقبض عليها ولا أجدع عسكري، بينما هي مستسلمة لقبضته تماما، وشعرت كم هن مسكينات هؤلاء النساء حين تكون كل علاقتهن بالرجال تحت طائلة التعذيب، حتى في الحب يطوِّق الرجل عنق امرأته من شدة الحب، مثل الثور الهولندي الفيريزيان حتى يكاد أن يقصف عنقها، ويصعد فوقها بحمله في اللحظات الحميمة، ويظل يدقها مثل مرزبة تهوي في إيقاع منتظم فوق جسدها، ويضرب مؤخرتها بقوة، حال هياجه أو أن يحشو فمها بعضوه القذر، ويجذب شعرها حتى يكاد يقتلعه من جذوره حين يعاجله شوق القذف، ويترك في رقبتها آثار(love bite) كما أخبرني اسمها بالإنجليزية صديقي الشاعر، وذلك حين أشار إلى تجمعات دموية في عنق الأجنبية البلوند الشقراء وقال بكل فخر (love bite) إلى أن يخمد جسد

الواحد منهم كجثة فوق امرأته بعد أن يهدَّه الشوق وخروج المني منه، وكأن روحه خرجت من بدنه.

الرجال الأجلاف ومَن على شاكلتهم مثل الولد النزق الذين يتعاملون مع المرأة مثل كرة إسكواش يجب ضربها بقوة حتى ترتد إليك، ويدّعون بذلك أنهم يفهمون طبائع النساء، أصحاب التشبيهات الرديئة، من قبيل المرأة كالسيجارة تباس بالفم وتداس بالقدم، أو أن المرأة مثل طابع البوستة إذا بصقت عليه لزق، الذين يشعلون مواقع التواصل الاجتماعي ببوستاتهم الرديئة المصورة، والتي تعكس ضحالتهم كما قال صديقي شاعر قصيدة النشر، الموتورون الذين يشبهون عضو الرجل بالمسدس المحشو بالرصاص، وأن المرأة الجميلة هي التي تأتي وتضغط على زناد هذا المسدس لينطلق منه رذاذ الرصاص، فيصيب به من يشاء، ما هذا الخراء الذي يملأ بطون وعقول هؤلاء الصبية الذين يظنون أنفسهم رجالا.

كل ملامح الولد النزق تدل على أنه من هؤلاء الصبية الموتورين الذين يرون العالم من ثقب ضيق كفرج امرأة بحسب تشبيهاتهم المبتذلة، أنا لست ضد الحب، لكن أتمنى أن يسود العالم الحب القائم على الاحترام المتبادل، لا الحب الذي يرى فيه أحد الطرفين الطرف الآخر أقل منزلة أو أضعف.

الحب في أبسط تعريفاته هو الاحتياج وإلا لمَ نحب إن كنا لا نحتاج، أو كما قال صديقي الشاعر إن جملة: I need you من أجمل العبارات في الإنجليزية، كان يقولها بينما أنا جالس عن يمينه والأجنبية البلوند عن شماله، فيصفنا ضاحكا في أوقات المزاج المعتدل: جنة عن يمين وجنة عن شمال، ويضحك بخبث ويقول: إن كلمة you من أجمل ما أنتجت اللغة الإنجليزية، فهي تشمل الذكر والأنثى والفردي والجماعي والشخص الرفيع والشخص الوضيع، ويعايرني قائلا: إن لغتك العربية لم تنتج لفظة شاملة مثلها، لكنها تفرق بين الذكر والأنثى. ويعاير الفرنسية البلوند قائلا: إن فرنسيتك لم يسعفها أن تستخدم tu إلا للمفرد، واستخدمت vous للجمع. كان الشاعر يضج بالضحك، وهو يلعب بالمفردات، ويقول متفاخرا: إن الشاعر مهمته اللعب باللغة وأنا ألعب باللغات وأصحابها.

لكني أسامح الولد النزق كما سامحته صاحبته بعد أن رأيتهما بعد عام أو أكثر، يعبران الطريق، وصاحبته تحمل رضيعها في الكروكيت، بينما زوجها الولد النزق يأخذ بيدها ليعبرا الطريق. تمنيت ساعتها أن أخبر ابنهما الرضيع أن له ملايين الإخوة الذين أحتفظ بهم في كيس نايلون. سامحتهما وفرحت بهما لأني لا أحب قصص الحب الناقصة، لكني لن أسامح شاعر قصيدة النثر لأنه مغرور جدا، وأنا لا أحب الغرور.

(14)

شاعر قصيدة النثر II

"يكفي صديق واحد، إن كان صاحب
عقيدة، لصنع المعجزات"

هنري ميللر

أنتم الناس أيها الشعراء مزهوون بأنفسكم مثل الطواويس وكأنكم أتيتم بما لم يأت به الأولون. على رسلكم، كل أشعاركم ما هي إلا حيل لغوية، وإلا من حق السحرة أو حتى الحواة وصانعي الأفلام بحيلهم وخدعهم السينمائية المريبة التي تخدع العين أن يكونوا أكثر افتخارا منكم.

صديقي شاعر قصيدة النثر كان من هؤلاء الشعراء الطواويس الذين يرون أنفسهم مركز الكون، ربما يواتيه هذا الإحساس لأنه حين كنا نجلس بمقهى وسط المدينة كان أصدقاؤه يتحلَّقون من حوله وهو يلقي أشعاره، وما إن ينتهي من أي قصيدة لعينة حتى ينهال التصفيق بأكفٍّ يملؤها الحماس.

بعدها نتحرك ثلاثتنا أنا والشاعر والبلوند إلى بيتها العامر بأفخر أنواع الخمور. نظل نشرب ونحن نتابع فيلما فرنسيا على Tv5 ربما يكون مصحوبا بترجمة، فأفهم قدرا لا بأس به من القصة، أما إذا كان فرنسيا خالصا، فهو فرصة عظيمة لمتابعة ديكورات الفيلم

وحركة شفاه الممثلين العجيبة، وحين تدور الخمر برؤوسنا تبدأ البلوند في خلع ملابسها بشكل كامل، وكذلك يفعل الشاعر وينظران لي باستغراب على أني لم أفعل، فأشعر بالإحراج والخجل فأخلع ملابسي تحت تأثير الخمر والخجل من كوني الوحيد الذي يرتدي ملابسه كاملة، فينتابني شعور بأننا ثلاثة قرود في جبلاية، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التطلع لعوراتهما، ويتفاخر الشاعر بكونه يملك عضوا ذكريا أكبر مني، ولكنه يعود ويطمئنني أن عضوي ليس صغيرا جدا حيث إن البلوند أخبرته للتو أن هناك وفرة في عضو الرجل المصري، فأتذكر الدراسة المترجمة التي كنت قد قرأتها في طبيبك الخاص التي كنت أخبِّئها وسط كتب الدراسة حتى أوهم أبي أني أذاكر. أعقد العزم على قراءة هذه الدراسة حين أعود إلى البيت آخر الليل.

بعدها ينتقل الشاعر من التفاخر بحجم قضيبه إلى التفاخر بحجم حفظي لشعره عن ظهر قلب، ويؤكد للبلوند أن هذا دوري وأنا أؤديه بمنتهى البراعة، فأتشجع وأحكي بحماس عن موهبتي المبكرة في الحفظ، وأنسى ما يخص عورتي، وأقول إني كنت ماهرا منذ صغري في الحفظ لدرجة كبيرة حتى إنني كنت أخفي بيدي الصفحة المقابلة للصفحة التي أحفظها، لأني أحفظ الكلمات بمجرد أن تقع عليها عيناي، فيقهقه الشاعر ويستلقي إلى الوراء على ظهره حتى تظهر فتحة إسته ويقول: يا كذاب.

ويتهمني بأني أسرق مقولة الشافعي وأنسبها لحفظي، وحين تندهش البلوند الشقراء من ضحكنا وانفعالنا تهز رأسها مستفهمة، فيقوم الشاعر بالترجمة لها فتضحك هي الأخرى بقوة حتى يتفلت منها الضراط، فيضحكان أكثر وأضحك معهما، ويهبني الشاعر زجاجة خمر ويقول هذه لك. ويطلب مني أن آخذها معي إلى البيت، فأسأله إن كانت هناك قصيدة جديدة يجب أن أحفظها، فيضحك ويقول: لا دي هدية، وكنوع من الامتنان يلهج لساني بذكر إحدى قصائد الشاعر وأتذكر مديح المتنبي لسيف الدولة ولنفسه وشعره:

احرَّ قلباه ممن قلبه شبم	**ومَن بجسمي وحالي عنده سقم**
ما لي أكتم حبا قد برى جسدي	**وتدَّعي حب سيف الدولة الأمم**
إن كان يجمعنا حبٌّ لغرته	**فليت أنا بقدر الحب نقتسم**
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي	**وأسمعتْ كلماتي من به صمم**
الخيل والليل والبيداء تعرفني	**والسيفُ والرمحُ والقرطاس والقلم**
صحبت في الفلوات الوحش منفردا	**حتى تعجب مني القور والأكم**
يا من يعز علينا أن نفارقهم	**وجداننا كل شيءٍ بعدكم عدمُ**

وتبدأ الأجنبية في العزف على الناي بمهارة متوسطة، في الحقيقة العزف الوحيد الذي كانت تجيده، هو العزف على عضو شاعر قصيدة النثر، وتأخذ يدي وتجعلني أفعل مثلها، فأجفل، فتضحك وتقول إنه يشبه الناي، ولا يختلف عنه سوى أن لديه فتحة واحدة،

بينما الناي لديه فتحات متعددة، فيشير الشاعر ناحية دبره، ويقول متهكما: طب وبالنسبة للفتحة دي!

كان شاعر قصيدة النثر ماجنا لدرجة كبيرة، ويرى أن الشاعر قبل أن يكتب الشعر لا بد أن يكون ماجنا، يقول ذلك ثم يستخدم مؤخرة الأجنبية كدرامز، يضرب عليها ضربات تبادلية حتى يكتسي لونها بالاحمرار، وتصرخ البلوند منتشية ومتألمة في آن، ثم يقول لي أريدك أن تصبح خادمي، فأنظر له باستغراب، فيصحح: ليس كما في رأسك.

ويوضح أنه يقصد أن أتبعه، ويقول إنه سيأتي يوما لزيارة الحديقة التي أعمل حارسا لها، وأن أول شيء سيفعله هو أن يخبر إدارة الحديقة بأني محتسٍ للخمر بكميات كبيرة، ولا يصح أن أعمل بها، وسيسهم في طردي منها، يقول ذلك ويضحك، فأكتفي بالابتسام فيقول: ماتقلقش.. بهزر.

ويطلب مني في أسى أن أحتفظ بوظيفتي حتى لا أكون مثله بلا وظيفة، ويخبرني أن الشاعر رامبو حين بدأ الكتابة قالت عنه أمه إنه مخبول، وأن هنري ميللر حين أخبر والديه بأنه يكتب، بدا عليهما وكأنه أخبرهما بأنه سيصبح قاطع طريق.

وبدأ يلهج لسانه بالشعر وهو يصب النبيذ فوق رأسه ورأسي ورأس الشقراء.

حين عدت إلى البيت هذه الليلة كانت رأسي ثقيلة من أثر الشرب، لكني لم أنس أن أخرج عدد طبيبي الخاص كما كان يحلو لي تسميتها، وجدت العدد الذي يحوي تلك الدراسة في كرتونة، أسفل أكياس المني المتكلسة بمناديل الرغبة. كنت في بحثي أحاول التأكد من وجهة نظر الشاعر والفرنسية في وفرة عضو الرجل المصري، التهمت سطور الدراسة التي تقول:

أثبتت الدراسات أن أحجام الأعضاء التناسلية تختلف باختلاف الأعراق والمناطق والمناخات، بل وأضف إلى ذلك أن أحجام الأعضاء التناسلية لها علاقة بالجينات المتوارثة، وفي بحث قامت به شركة Andro medical (معمل طبي مختص في أجهزة زيادة كفاءة القضيب وزيادة الكفاءة الجنسية للرجل) حيث كلفت عددا كبيرا من الأطباء المشهورين، ومنهم من هو مختص في مجال الذكورة والمسالك البولية، حيث أجروا أبحاثا كثيرة حول العالم ليجمعوا معلومات عن أحجام الأعضاء الذكرية. وهذا الجدول يوضح أحجام الأعضاء الذكرية التي استنتجت من تلك الأبحاث، مع اسم الطبيب الذي أجرى الأبحاث في هذه الدول:

ملاحظة: تمت هذه الأبحاث على 155 شخصًا من كل دولة.

الدولة	حجم متوسط	حجم كبير	باحث/ طبيب
الولايات المتحدة	5 إنش - 12.9 سم	6 إنش - 15.4 سم	Wesseells H., Lue T.,McAicnich j
ألمانيا	5.6 إنش - 14.8 سم	لا توجد معلومات دقيقة	Dr.Gunther Hagler.Urologist
إسبانيا	5.3 إنش - 13.5 سم	6.1 إنش - 15.5 سم	Dr.Javier Ruiz Romero Tres Torres Clinic,Barcelona
اليابان	4.9 إنش - 12.5 سم	5.5 إنش - 14.4 سم	Japanese Journal of Sexology.
إيطاليا	5.7 إنش - 14 سم	6.4 إنش - 16.8 سم	Dr.Jamal Salhi,Italian Andrology Society Dr.Carpenito Ambulatori,Andrologist.
اليونان	4.8 إنش - 12.9 سم	5.9 إنش - 15.2 سم	Dr Spyropoulos E et coll Veterans Navalospital,Athens
الهند	5.2 إنش - 13.5 سم	6 إنش - 15 سم	The Jacobus Survey
السعودية	5.7 إنش - 14.6 سم	6.5 إنش - 16.8 سم	Dr.Mohamed Habos Masculine Genitals Behavior and Disease Clinic
إندونيسيا	5.1 إنش - 13.2 سم	لا توجد معلومات دقيقة	Dr.Hasan Sheni - Delpo Agnesex
الأرجنتين	5.7 إنش - 14.6 سم	6.3 إنش - 16.1 سم	Dr.José Martínez, & Alijandro Andrie

أستراليا	5.1 إنش - 12.9 سم	6.2 إنش - 15.8 سم	Dr.Kevin koumbera _ Karratha Lez
الأردن	5.9 إنش - 15 سم	6.6 إنش - 17.1 سم	Dr.Gasser Mohsen _ Bashir Hospital
البرازيل	4.8 إنش - 12.4 سم	لا توجد معلومات دقيقة	Dr.Paulo Palma.Urologist Carlos da Ros,Claudio Teloken.
المكسيك	5.87 إنش - 14.9 سم	لا توجد معلومات دقيقة	Dr. Francisco Ordóñez Lifestyles Condom Co, Cancun, Mexico.
كوريا الجنوبية	3.7 إنش - 9.6 سم	4.7 إنش - 12 سم	Hwancheol Son Hanjoon Leejung _ sik Huh Soo Kim & Jae _ Seung Paick
تشيلي	5.5 إنش - 14 سم	6.2 إنش - 16 سم	Dr.Eduardp Pino, Urologist/ Andrologist
فنزويلا	5 إنش - 12.7 سم	5.5 إنش - 14.2 سم	Penile dimensions in Venezuelan Population Domingo Luciani Hospital, Urology Unit.
فرنسا	5.7 إنش - 14.4 سم	6.3 إنش - 16.1 سم	Bouchet A.,CuilleretJ.
فنلندا	5.1 إنش - 13 سم	5.3 إنش - 14.7 سم	Dr.Suslen Pinny
فلسطين	5.7 إنش - 15.1 سم	7.2 إنش - 18.6 سم	Dr.Hamid Yassin _ Urology
مصر	5.9 إنش - 15.3 سم	7.4 إنش - 18.8 سم	Urology _ University of Alexandria
نيجيريا	6.2 إنش - 15.7 سم	7.4 إنش - 19 سم	Dr Jacob Obago & Saleh BANETO _ HospitalUrologyM _ Lagos
كينيا	6.5 إنش - 16.5 سم	7.6 إنش 19.2 سم	Dr.Negrel ZLIANE _ University Of Nairobi

وحين قارنت بين حجم ذكر الرجل المصري والرجل الفرنسي في هذه الدراسة التي تنتصر للقضيب المصري أدركت لماذا انبهرت الفرنسية الشقراء، وأدركت أيضا أن الأساطير المؤسسة لقوة الباءة عند الرجل المصري بها شيء كبير من الصحة هذا إذا ما استثنينا رجالا مثلي.

رغم كل تصرفات الفرنسية البلوند الجريئة التي تبدو مشينة لبني قومي فإنني كنت أراها فتاة طيبة من ذلك النوع الذي يحمرّ خجلا، إذا ما رأت رجلا يطرطر على قارعة الطريق، بينما تقود سيارتها فتكاد تفقد حياتها، لأنها تحوّل وجهها بعيدا عن الطريق، في تطبيق حرفي للمثل الشعبي المحلي: اللي اختشوا ماتوا.

(15)

الأجنبية البلوند الشقراء II

"Fuck my ass"

عبارة شائعة في أفلام البورنو

الأجنبية التي أهدتني كاميرا صغيرة وأنيقة، طلبت مني طلبا غريبا جدا، فبينما كان صديقنا الشاعر مشغولا بالتهام طعامه، كانت الأجنبية الشقراء تتابع أجنبية•شقراء أخرى على الشاشة المثبتة في حائط منزلها في فيلم بورنو مقرف، كاد يصيبني بالغثيان حتى أشحت ببصري لأني كنت على وشك التقيؤ، حيث مدت يدها إليّ بالناي وقالت كلامًا لم أفهمه بالفرنسية وأشارت إلى مؤخرتها في شبق، كنت لا أفهم ماذا تريد، وأخذت الناي مترددا، فرفع صديقي الشاعر عينه عن طبق المكرونة الإسباجتي التي كان ماهرا جدا في إعدادها، لدرجة أننا ظللنا أكثر من ثلاثة أيام نأكل مكرونة إسباجتي يعدها الشاعر، الذي توقف عن المضغ قليلا، وابتسم ابتسامته المحايدة وقال: هيَّ عايزاك تحطه من ورا.

يلاحظ خوفي وتوتري فيضحك، بينما المكرونة الإسباجتي تتساقط متراقصة من فمه مثل الديدان: مش بتاعك، الناي يا مغفل.

أحاول أن أهرب من هذا الجنون فأرتد ببصري للحائط دون أن

أدري ناحية الفيلم البورنو الذي يدور على الشاشة فأفاجأ بأن أحدهم يبول على جسد شقراء الفيلم، وأرى الشاعر وديدان المكرونة الإسباجتي يتم شفطها بواسطة الهواء إلى فمه، فلا أتمالك نفسي، وأهرع إلى الحمام أفرغ ما في جوفي، وأظل أتقيأ وأتقيأ حتى خلت أني قد أتقيأ معدتي نفسها، بينما يجيئني عبر باب الحمام صوت ضحكات الشاعر متقطعة شريرة وهو يقول: أنت قلبك رهيف.

فأسبّ له الدين بصوت واهن، ثم أتذكر أني في الحمام فأستغفر الله، وأسب الدين له في سرى، رغم أني أعرف أن الشاعر لا دين له، ويقول إن الأديان مثلها مثل الجنس والحدود سببٌ من أسباب تقسيم البشر الواهية الوهمية. أحاول أن أسلِّك الحوض الذي انسد من كثرة تقيئي، رغم أن المكرونة التي كنت أكلتها منذ ساعة تقريبا، تحولت إلى فتافيت تسبح في الحوض المسدود، كاد هذا المنظر يجعلني أتقيأ مرة أخرى، لكن معدتي لم يبق فيها طعامٌ آخر تجود به، ولو كانت تملك أن تجود بنفسها لفعلت.

وأخيرا أفلحت في تسليك الحوض بهرس فتافيت المكرونة بفرشاة أسنان الأجنبية البلوند الشقراء، وبعد أن انتهيت أعدت فرشاة الأسنان إلى مكانها داخل "المج" المرسوم عليه برج إيفل.. فعلت ذلك وأنا مرتاح الضمير ووجدت أن ذلك خير انتقام لما فعلته بي حين طلبت طلبها الغريب.

وخطرت ببالي أول مرة جرَّبت أن أعزف على الناي، حيث ظللت أنفخ فيه دون جدوى، ولما تذكرت أن الناي الذي وضعته في فمي، ربما دسَّته الأجنبية أو دسه أحدهم في مؤخرتها من قبل، كدتُ أتقيأ مرة أخرى وتملّكني شعور من يملأ الخراء فمه، فليس معنى أن تفتح لي بيتها أن أقبل بأن تخرَى في فمي، هكذا أسعفني خيالي وأنا أطس وشي بالماء ثم أصب الماء على وجهي صبا أمام مرآة تجعله أكثر بياضا.

أحاول أن أتذكر شيئا مختلفا عن الناي قالته الأجنبية منذ أيام، مثل أن زنام بن الزامر كان أول عربي عزف على الناي، أو كما في الأساطير الإغريقية والرومانية كان هناك رجل يسحر الأشجار بقيثارته اسمه أورفيوس، كانت موسيقى صوته وقيثارته - حسب ما روته الشقراء - من العذوبة بحيث كانت تتبعه الحيوانات والأشجار والأحجار، وتتوقف الأنهار عن الجريان كي تستمع إليه، بينما ناي البلوند لا يجعل الطعام يتوقف عن الجريان، من معدتي إلى حوض الحمام.

أخرج إلى الصالة فأجد فيلما عبارة عن مقابلة مع "زيتونة" وهي مغربية تمتهن "البورنو" بفرنسا تعرفت إليها للوهلة الأولى فقد كانت من فتياتي المفضلات في أفلام البورنو التي كنت أشاهدها بانتظام.

انخدعت زيتونة أو Olive في شركة إعلانات بتواطؤ إحدى صديقاتها. أجرت اللقاء الأول مع مصور الشركة بأحد المقاهي، ونصحها بقبول إجراء حصة تصوير لجمع صور بغية تقديمها للجنة الاختيار. هكذا كانت انطلاقتها لولوج عالم البورنو الشاسع.

عندما تتحدث إلى زيتونة يخيَّل إليك أنك تستمع لامرأة ورعة ورزينة، تتكلم بأدب ورزانة في مسائل ساقطة يندى لها الجبين.

زيتونة هذه، إحدى المغربيات اللواتي اشتهرن بمدينة مارسيليا، حسب تصريحها، بين ممثلات أفلام البورنو، تقول إنها متخصصة في مشاهد تبين المرأة فريسة لفحول أوربا من مختلف الجنسيات، يسألها الرجل ذو الشعر الأحمر الذي يجري المقابلة التليفزيونية المصحوبة بالترجمة للعربية، وهذه الخدمة - خدمة الترجمة - ارتأت بعض محطات البورنو أن تضيفها، حيث أكدت دراسات أن العرب يحبون الجنس الشفهي والمكتوب، واستدلت هذه الدراسات بقصص ألف ليلة وليلة والمكالمات "السكس":

- "زيتونة" هل هو اسمك الحقيقي؟

- قليلات من ممثلات البورنو، سواء كن عربيات أم أوربيات، يعلنَّ عن أسمائهن الحقيقية، ومثلهن جميعا اخترت اسما مستعارا والذي أصبح اسم الشهرة في "كتالوج" ممثلات البورنو، والآن اسمي هو olive أي زيتونة.

- لماذا اختيار هذا الاسم؟

- في الحقيقة ليس هذا الاسم من اختياري، ففي البداية كنت معروفة بـ "صوفيا"، غير أن أحد القائمين على الموقع الذي أتعامل معه نصحني بتغييره، والتفكير في اسم آخر، مرتبط ببلدي المغرب، واقترح عليَّ "أركانة"، خصوصا وأني بدأت بتصوير لقطات تهم فتاة سوسية واشمة، ترتدي لباسا سوسيا عتيقا، غير أنه بعد مدة، اقترح عليَّ المصور لقطات جنسية منها التمرغ في زيت الزيتون، وعلى امتداد شهور وأنا أصور مشاهد جنسية متمرغة في "زيت العود"، بعد أن يفرغ عليَّ مرافقي في التصوير كمية "الزيت البلدية"، ويدهن به نَهْدَيَّ، ومع تكرار مثل هذه المشاهد أصبحت مشهورة بالموقع بلقب sex olive وهكذا لقبت بـزيتونة، وما زلت معروفة بهذا الاسم حتى الآن في الكتالوج.

- هل تصورين يوميا المشاهد الجنسية، وتمارسين الجنس دون انقطاع خلال التصوير؟

طبعا لا، لكن قد يحدث أن أعمل 18 ساعة متتالية، مع فترات قصيرة للراحة والأكل، وقد أمارس الجنس مرات عديدة خلال هذه الفترة، لكن خلال الفترة الأخيرة (2008 - 2009) دأبت على تصوير مشاهد جنسية، مع الإيلاج الأمامي والخلفي، 5 أيام في الأسبوع بمعدل عمليتين جنسيتين أو ثلاث في اليوم.

- كيف تستطيعين المحافظة على هذه الوتيرة من دون انقطاع خلال الأسبوع؟

- في واقع الأمر، لم أكد أتحمل في البداية، إلا أنني عثرت على وصفة مكنتني من التحمل دون عناء كبير، إذ لم أعد نهائيا أفكر فيما سبق، وإنما فيما سيحدث، مركزة على المشاهد القادمة، وبهذه الطريقة تجاوزت المشكل.

- كيف قبلت امتهان تمثيل البورنو؟

- في البداية كان الهاجس ماديا محضا، إذ أتيحت لي فرصة المشاركة في حصة "استريبتيز" خاصة، وقد حصلت خلال ليلة واحدة على ثلاثة أرباع ما أحصل عليه كبائعة في رواق بإحدى الأسواق (سوبير مارشي). ومن "الاستريبتيز" تحولت إلى تصوير بعض المشاهد البورنو، ثم قبلت بعد ذلك بفكرة ممارسة الجنس مع صديقي أمام الكاميرا، شرط أن يضع قناعا على وجهه لإخفاء هويته.

بعد إنجاز مجموعة من المشاهد أُدرجت في بعض المواقع الإباحية بشبكة الإنترنت، فاقترح عليَّ أحد المخرجين الألمان ومنتج إيطالي تصوير فيلم بورنو خاص بي برفقة صديقي، وبدأ التصوير في غرفتي بمدينة مارسيليا. طبقت بمعية صديقي كل ما كان يطلب منا من حركات ووضعيات، وكانت ممارسة الجنس حقيقية، وقد حاولنا، نحن الاثنين، الاستمتاع باللحظة رغم وجود

الكاميرا، وفعلا شعرت بسعادة خاصة علاوة على ربح قدر كبير من المال لم يسبق أن حصلت عليه.

- وماذا عن أصداء هذا الفيلم؟

- لم أتوصل باي صدى بخصوص هذا الفيلم، لكن ما أعرفه عبر زوّار الموقع الذي يبث أعمالي، أن الكثير من الرجال استحسنوا طريقتي في التمثيل، ويشعرون أنني صادقة وغير متصنّعة، وهذا ما لمسته عندما عملت بأحد المحلات بباريس، حيث كنت أجلس وراء واجهة زجاجية وأقوم بحركات مثيرة في وضعيات مغرية وأنا عارية، وكان على الزبون أن يزود الآلة بالنقود حتى لا تحجب عنه الرؤية بعد أن تصير الواجهة سوداء أو تتجلى مرآة تحجبني عنه. ولاحظت خلال هذه الفترة أن الزبائن كانوا يفضلون زيارتي أكثر من زميلاتي الثلاث، الفرنسية والهولندية والجزائرية، اللواتي كن يقمن بنفس ما أقوم به داخل محلات بجانبي. وعندما استفسرت عن الأمر، قيل لي إن الزوار تعرفوا إلى زيتونة (صوفيا آنذاك) بموقع الإنترنت.

- ما أول مشهد بورنو قمت بإنجازه؟

- لم أصور في البداية لقطات قوية، وإنما اكتفيت بتلذذ "حشفة" مرافقي وأنا أتصورها آيس كريم في يوم صيفي محرق.

- وكيف كان أول مشهد بورنو حقيقي قمت بتصويره؟

- كان أول مشهد جنسي صورته في إطار فيلم مع أحد المحترفين الفرنسيين، وقد أثر فيَّ كثيرا لدرجة أنني قفلت عليَّ باب شقتي 6 أيام، وقطعت الاتصال بالجميع.

طُلب مني أيضا ممارسة الجنس مع أحد الأفارقة، الشيء الذي أقلقني كثيرا. لقد أعيد تصوير المشهد أكثر من مرة لأنني كنت أتردد حتى آخر لحظة.

في فترة عزلتي المؤقتة قررت التخلي عن البورنو، غير أن الأجر كان مغريا جدا، كما أنني توصلت بعلاوة إضافية بعد إنهاء التصوير لم تكن في الحسبان، كما أن مساهمتي في هذا الفيلم مكنتني من أخذ موقع بكتالوج ممثلات البورنو.

- هل العائلة على علم بامتهانك البورنو؟

- لا أريد الحديث عن هذا الموضوع، ألم نتفق على هذا قبل إجراء الدردشة.. فأين وعدك؟

- لا أريد الحديث عن العائلة وإنما معرفة رد فعلها بشكل عام.

- أعلم أن عائلتي تتقزز من أفلام البورنو لكونها عائلة مسلمة، وأنا على يقين تام من ذلك، لكن بالنسبة لي وجدت ذاتي في هذا النوع من الأفلام، وأصبحت مطلوبة لدى بعض المنتجين والكثير من المواقع.

- ما المطلوب من ممثلة البورنو؟

- المطلوب إظهار المفاتن والممارسة الجنسية في مختلف الوضعيات بما فيها الجنس الشبقي بكل أشكاله وأنواعه.

- هل سبق لك أن قمت بتصوير أفلام الخلاعة بالمغرب؟

- نعم مرة واحدة، ذهبت رفقة المصور والمخرج إلى المغرب لتصوير لقطات بإحدى معاصر الزيتون العتيقة، كانت المشاهد غير مرتبطة بعمليات جنسية وإنما بمشاهد عُرْيٍ قرب رحى المعصرة وفوق ركام من الزيتون. لكنني أعرف بعض ممثلات بورنو فرنسيات وغربيات صَوَّرن أفلام بورنو كاملة بإحدى البواخر في عرض بحر أغادير، كما صورن مشاهد جنسية بإحدى المغارات بجنوب المغرب، وكذا بعض الأضرحة المشهورة بالمغرب.

- هل تختارين الأشخاص الذين تمثلين رفقتهم مشاهد بورنو؟

- كما قلت سابقا، في البداية لم أكن أصور إلا مع صديقي، لكن بعد مدة قبلت التصوير مع ممثلين يختارهم المخرج أو المنتج، أغلبهم أوربيون وبعضهم أفارقة، لكن لم يسبق لي أن صورت مع عربي أو مسلم.

- كيف ترين البورنو الذي هو في نظر الكثيرين فعل مشين جدا؟

- أنا لست عاهرة وإنما ممثلة بورنو، والأعمال التي أقوم بها تُدخل الفرحة على الكثير من الرجال، كما أن البورنو يسهم بشكل كبير في تمكين الناس من التعاطي مع الجنس كفعل عاديٍّ جدا دون الخجل منه.

- هل تستمتعين بالجنس خلال التصوير؟

في البداية لم أُولِ أي اهتمام لهذا الأمر، إلا أنه بعد مراكمة بعض التجارب لاحظت أن المشاهد التي أقوم بتصويرها تركز على الشخص الذي يرافقني أي الذكر، وكل الأوامر والتنبيهات، سواء الصادرة عن المخرج أو المصور تسير دائما في هذا الاتجاه. فأنا دائما تلك التي تُقبل عليه وتداعبه بشتى المداعبات لسد جوعه الجنسي، وتظل مصلحة الأنثى مغيَّبة في كل المشاهد التي تصور، حتى القوية منها والأكثر جرأة.

- ألا تشعرين بالخجل وأنت تمارسين الجنس المحرم أمام الكاميرا؟

- في البداية صادفت بعض الصعوبات، وكان المخرج أو المصور يلاحظان أنني أتصنع بعض الحركات والتصرفات، لذلك تم رفض الكثير من المشاهد بعد تصويرها، لا سيما عندما كنت أمثل مع شخص لا أعرفه ولم يسبق أن عاشرته عن قرب.

لتجاوز هذا الأمر أصبحت أرافق الشخص الذي سأصور معه قبل إنجاز العمل، وبعد فترة التعرف والاستئناس نستعد معا للتصوير ونخطط

له معا، وعندما يستعصي الأمر علينا نلجأ لمخدر أو منشط.

- ما إحساسك وأنت تعيدين مشاهدة اللقطات التي قمت بإنجازها؟

- لا يمكنني وصف هذا الشعور، لأنني قررت منذ البداية عدم مشاهدة ما أقوم بتصويره، مهما كان الأمر. لكن عندما أكون في طور تصوير مشهد بورنو مباشر شديد الوقع على نفسي، أنظر دائما إلى الأعلى ولا أنظر إلى الأسفل، ولك أن تفسر هذا التصرف كما يحلو لك شريطة إعفائي من المزيد من التدقيق.

- نسمع الكثير عن فتيات خدعن من طرف شركات أو مخرجين أو وسائط، ما صحة مثل هذه الأقوال؟

- لم يسبق لي أن سمعت مثل هذا الكلام على لسان غربيات، علما بأنني على اتصال بالكثيرات ممن يمتهن البورنو، لكني سمعت بعض الأحداث المماثلة على لسان بعض المغربيات والجزائريات، صادفتهن في سهرات خاصة، وفي حصص "البارتوز" (أي الجنس الجماعي). وتكاد خلاصاتهن تتشابه ومفادها: "لم يكن في نيتي ولوج مجال البورنو، لكن فلانة صديقتي هي التي ورَّطتني ولم أعد قادرة على التراجع، أو أن بعض صوري أدرجت في بعض المواقع الإباحية دون علمي، وكلام آخر من هذا القبيل، الشيء الذي أحرجني مع عائلتي فاضطررت لمغادرة البيت والبلاد".

لا علم لي بأية حالة خداع بفرنسا، إذ إن ممثلات "البورنو"

يلجن المجال من بابه الواسع، سواء كن عربيات أم أوربيات، فغالبا ما تكون البداية بالنسبة للمغربيات عن طريق ممارسة "استربتيز" أو الدعارة بمواعيد بشقق الزبائن.

- ما مساوئ امتهان البورنو في نظرك؟

حسب اللواتي سبقنني في هذا الميدان فإن من أكبر مساوئ امتهان البورنو فقدان الاستمتاع بنعمة الجنس في الحياة الطبيعية، إذ إن ممثلة البورنو تصير كالآلة، تفقد الإحساس، حتى ولو مارست الجنس مع من تعتقد أنها تحبه فعلا وتريد أن يشاركها حياتها.

- ألم تفكري بعد في التخلي عن هذه المهنة؟

- أفكر في الاعتزال طبعا، لكن بعد بضع سنوات، الوقت ما زال مبكرا، لا سيما وأن بعض الشركات ومواقع الإنترنت المشهورة بدأت تهتم بـزيتونة أكثر من السابق.

كانت الأجنبية البلوند الشقراء تتابع حوار زيتونة أو Olive وقد امتلأت عيناها بالدموع، ألم أقل لكم إنها فتاة طيبة.

(16)

حارس الحديقة III

"يتميز الفيل بالذاكرة القوية التي تعي الأشياء والأماكن لسنوات عديدة تصل للعشرين عاما، ويستفيد بذاكرته تلك في الوصول إلى موارد المياه في فترات الجفاف، التي قد تمتد لسنوات في أفريقيا، وجدير بالذكر أيضا أن الناس الذين يقولون مازحين إن ذاكرتهم الضعيفة مثل ذاكرة السمك لابد أن يعيدوا التفكير، حيث وجد العلماء أن السمك يمكنه تذكر أحداث تعود لأسبوعين"

أنيمال بلانت

كشفت عالمة الأحياء الأسترالية شيري ماريس عن جوانب مسلية وغير معروفة عن الحياة الجنسية للأحياء البحرية، حيث كشفت عن تنوع شديد في أسلوب ممارسة الجنس بين الحيوانات في أعماق البحار.

وأوضحت الباحثة في كتابها "كاما سيترا" أو أسرار الجنس في البحر أن دراستها تهدف إلى تجديد الاهتمام من جانب العلماء بهذا الجانب المهجور من الدراسات.

وقالت ماريس، مديرة مركز الاستشارات التربوية: "لو فكرت في أغرب الممارسات الجنسية لوجدتها في قاع البحر، بل إننا أقل تنوعا ونبعث على الملل في هذا المجال مقارنة بما تفعله الحيوانات البحرية".

وأضافت أن هذا مجال بعيد عن ملاحظة الناس، ولكي نساعد الناس على الانخراط والاهتمام بالبيئة البحرية، فإننا نكشف لهم عن هذا الجانب الشيق من الحياة البحرية.

وضربت مثلا ببعض الممارسات الجنسية الغريبة بسمك الشص، وهو نوع ضخم الرأس من الأسماك التي تعيش في أعماق البحار، وقالت إن الأنثى تطلق رائحة لاجتذاب الذكور وعندما يأتي الذكر يلتصق بها بقية حياته، كما أنها وجدت في بعض الأحوال سمكة أنثى من هذا النوع وقد التصق بها 11 ذكرا.

وفي بحث مماثل، أفاد علماء بجامعة كارديف البريطانية بأن بعض ذكور سمكة أبو شوكة تنتج موادا كيماوية تجعل الذكور تجذب الإناث، وهي عبارة عن بروتينات يطلق عليها اسم "بيبتايدات" وتستخدمها في إطلاق رائحة تجذب بشدة إناث سمكة أبو شوكة.

وأوضح الباحثون أن ذكور الأسماك تنتج روائح عطرية مماثلة لذكور البشر، مؤكدين أنه من خلال هذه الرائحة التي يطلقها ذكر سمكة أبو شوكة تعرف الأنثى أن له مناعة من الأمراض، ومن ثم فإن سلالتها لها فرصة أفضل في البقاء.

وقد اكتشف العلماء أن هناك نوعا من الأسماك وجميعها من الإناث نجحت في الحياة منذ 70 ألف سنة دون ذكور.

ويرى علماء في جامعة أدنبرة أن سمكة أمازون موللي تلجأ إلى بعض "الحيل" الجينية كي تعيش وتتجنب الفناء، وتتفاعل هذه الأسماك الإناث والتي تعيش في تكساس والمكسيك مع ذكور من فصائل أخرى من أجل استمرارها، ويأتي الإنتاج الجديد استنساخا

للأم ولا يرث أي شيء من المواصفات الجينية للأب.

ويعتقد العلماء أن الكائنات التي لا تنتج عن الاتصال الجنسي تتعرض لتغييرات مضرة في جيناتها عبر الأجيال، وقد تصبح عرضة للفناء، وبعملية حسابية وجد العلماء أن أسماك أمازون موللي كان يجب أن تفنى منذ 70 ألف سنة، حيث وجد العلماء أن هذه الأسماك تلجأ إلى "حيل" جينية للبقاء واستمرار النوع.

ومن جانبه، أوضح البروفيسور لورنس لو، من مدرسة الأحياء الطبيعية بجامعة أدنبرة، أن هذه السمكة مذهلة وفريدة من نوعها فهي ربما تلجأ لبعض الحيل الجينية من أجل البقاء.

واكتشف الباحثون أيضا أن إناث سمك القرش يمكنها تلقيح نفسها تلقائيا، وإنتاج صغار القرش من دون الحاجة إلى ذكر.

وأوضحت الدراسة أن التناسل التزاوجي بين الثدييات قد اعتمد على تحليل الحمض النووي لقرش ولد في 2001 في حديقة للحيوانات في نبراسكا، حيث ولد هذا القرش في خزان ضخم يحتوي على ثلاث من إناث القرش، التي لم تقترب أو تلامس أيا من ذكور سمك القرش لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات، وبعد تحليل الحمض النووي للقرش أظهرت التقارير عدم وجود أي أثر للطرف الذكوري في خلايا القرش.

كنت أجلس في غرفتي أشاهد فيلما عن الحياة الجنسية عند

الأسماك وأتمنى لو كنت سمكة قرش أستطيع أن أنجب دون أن أتزاوج، في نفس الوقت كنت أعد قناني الخمر التي تحصَّلت عليها من الشاعر نتيجة حفظي لقصائده، وحين كنت أعدها أعرف بالضبط عدد القصائد التي أحفظها، فهو كان يمنحني بعد كل قصيدة أحفظها جيدا زجاجة واحدة، ورغم أن القصائد غير متساوية في القيمة، فإنه كان لا يعمل لذلك اعتبارا، فالقصائد عنده متساوية القصيرة منها والطويلة، ويقول إن القصيدة عبارة عن دفعة ولا بد أن تعامل كوحدة واحدة، ولذلك لم أعتبره غشاشا حين كان يمنحني قنينة خمر واحدة مقابل قصيدة طويلة جدا.

كان الشاعر يتفاخر بتقديمي إلى مجتمع وسط البلد على أني مغرم بشعره، لدرجة أني أحفظ قصائده التي لا يحفظها هو نفسه، وكان إذا قرأها في ندوات قرأها من الديوان، وبذلك ظلت مسألة مقايضة الشعر بقناني الخمر مسألة سرية بيني وبين الشاعر، مثل سر الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي أبقاه بينه وبين غلامه وجاريته، وأخبرني به شاعر قصيدة النثر، وهو أن أبا جعفر المنصور كان يعطي الذهب للشاعر على قصيدة من شعره لم ينقلها من غيره وكان يحفظ ما يسمع من أول مرة، وله غلام يحفظ القصيدة من مرتين، وجارية تحفظ القصيدة من ثلاث، فكان الشاعر يكتب قصيدة طويلة، يدبِّجها طوال ليلة وليلتين وثلاث فيقول له الخليفة: إن كانت من قولك أعطيناك وزن الذي كتبته عليها ذهبا،

وإن كانت من منقولك لم نعطك عليها شيئا فيوافق الشاعر، ويلقيها على مسامع الخليفة فيحفظها الخليفة من أول مرة، فيقول له إنني أحفظها منذ زمن بعيد فيقولها له، ثم يؤكد ذلك بالغلام الذي حفظها أيضا فيذكرها كاملة، ثم ينادي على الجارية التي قد سمعتها فتقولها كاملة، فيشك الشاعر في نفسه، وهكذا مع كل الشعراء، فبينما هم كذلك إذا بالأصمعي يقدم عليهم فيشكون إليه حالهم. فيقول الأصمعي للشعراء: دعوا الأمر لي، فكتب قصيدة ملونة الأبيات والموضوعات. وتنكر بزي أعرابي وأتى الأمير ليسمعه شعره.

فقال الخليفة: أتعرف الشروط.. قال: نعم.. قال: هات القصيدة.. فقال:

صَوْتُ صَفِيْرِ البُلْبُلِ ... هَيَّجَ قَلْبِيَ الثَمِلِ
المَاءُ وَالزَّهْرُ مَعَاً ... مَعَ زَهرِ لَحْظِ المُقَلِ
وَأَنْتَ يَاسَيِّدَ لِي ... وَسَيِّدِي وَمَوْلَى لِي
فَكَمْ فَكَمْ تَيَّمَنِي ... غُزَيِّلٌ عَقَيْقَلِي
قَطَّفْتُ مِنْ وَجْنَتِهِ ... مِنْ لَثْمِ وَرْدِ الخَجَلِ
فَقَالَ بَسْ بَسْبَسْتَنِي ... فَلَمْ يَجُدْ بالقُبَلِ
فَقَالَ لاَ لاَ لاَ لاَ لاَ ... وَقَدْ غَدَا مُهَرْوِلِ
وَالخُودُ مَالَتْ طَرَبَاً ... مِنْ فِعْلِ هَذَا الرَّجُلِ
فَوَلْوَلَتْ وَوَلْوَلَتْ ... وَلي وَلي يَاوَيْلَ لِي
فَقُلْتُ لا تُوَلْوِلِي ... وَبَيِّنِي اللُؤْلُؤَلِي
لَمَّا رَأَتْهُ أَشْمَطَا ... يُرِيدُ غَيْرَ القُبَلِ

وَبَعْــــدَهُ لاَ يَكْتَفِــي إلاَّ بِطِيْــبِ الوَصْــلَ لِــي
قَالَــتْ لَــهُ حِيْــنَ كَــذَا انْهَــضْ وَجِــدْ بِالتَّنَقُّلِ
وَفِتْيَـــةٍ سَــقَوْنَنِي قَهْــوَةً كَالعَسَــلَ لِــي
شَــمَمْتُهَا بِأنْفِــي أزْكَــى مِــنَ القَرَنْفُــلِ
فِي وَسْــطِ بُسْتَانِ حُلِـي بِالزَّهْــرِ وَالسُــرُورُ لِــي
وَالعُــودُ دَنْ دَنْــدَنَّ لِــي وَالطَّبْــلَ طَــبْ طَبَّلَ لِـي
وَالسَّقْفُ قَدْ سَقْسَـقَ لِـي وَالرَّقْــصُ قَدْ طَبْطَبَ لِـي
شَــوَى شَوَى وَشَــاهِــشْ عَــلَــى وَرَقْ سِــفَرجَـلِ
وَغَــرَّدَ القِمْـرِ يَصِيـحُ مِــنْ مَلَــلٍ فِــي مَلَــلِ
فَلَــوْ تَرَانِــي رَاكِبــاً عَلَــى حِمَّــارٍ أهْــزَلِ
يَمْشِــي عَلَــى ثَلاثَــةٍ كَمَشْــيَةِ العَرَنْجَــلِ
وَالنَّــاسُ تَرْجِــمْ جَمَلِـي فِي السُــوقِ بِالقُلْقُلَـلِ
وَالكُــلُّ كَعْكَــعْ كَعِكَـعْ خَلْفِــي وَمِــنْ حُوَيْلَلِــي
لكِــنْ مَشَــيتُ هَارِبــا مِــنْ خَشْــيَةِ العَقَنْقِلِي
إلَــى لِقَــاءِ مَلِــكٍ مُعَظَّـــم مُبَجَّــلِ
يَأْمُرلِـــي بِخِلْعَــةٍ حَمْــرَاءْ كَالــدَّمْ دَمَلِــي
أجُــرُّ فِيهَــا مَاشِــياً مُبَغْــدِداً لِلذَّيَّــلِ
أنَــا الأدِيْــبُ الألْمَعِــي مِــنْ حَــيِّ أرْضِ المُوصِلِ
نَظِمْـتُ قِطَعــاً زُخْرِفَـتْ يَعْجِــزُ عَنْهَــا الأدبُ لِي
أقُــوْلُ فِــي مَطْلَعِهَـا صَــوْتُ صَفِيــرِ البُلْبُـلِ

فلم يستطع الخليفة أن يحفظها لصعوبة كلماتها وتداخل حروفها، فنادى الغلام فلم يستطع شيئا غير أبيات متقطعة، فنادى الجارية فعجزت. عندئذ قال الخليفة أحضر ما كتبته عليها لنعطيك وزنه ذهبا، قال الأصمعي: ورثت عمود رخام من أبي نقشت عليه القصيدة وهو على ظهر الناقة لا يحمله إلا أربعة من الجنود، فانهار الخليفة وجيء بالعمود فوزن كل ما في الخزنة، وعندما أراد الخروج، عرف الخليفة أنه الأصمعي، وعرف منه سبب حيلته، فاتفق معه أن يعطي الشعراء ما تيسر من أجل تشجيعهم.

بعد أن يفرغ شاعر قصيدة النثر من قصته المسلية تلك يقول: أحكي لك لكي تعرف أني أعطيك الخمر من أجل التشجيع، كما طلب الأصمعي من أبي جعفر المنصور، لكن نسي الشاعر أن يقول إنه لم يخبر الناس بالحقيقة مثل الأصمعي، وظل يقدمني على أني مجنون شعره، الذي أحفظ قصائده عن ظهر قلب، ويسهب في تلك المسألة، وكان ذلك لا يزعجني، يمدحني قائلا: اللي زيك لازم يعيش في عصور ما قبل الكتابة. ويؤكد لي أن دوري في تلك العصور كان سيكون أعظم لأني من الحفّاظ، لكنه يعود ويمتدح عملي بالحديقة، ويقول: أنت شاهد على الحب.

ألتفت وأدور بعينيّ في أرجاء غرفتي ناظرا إلى شهادات الحب المتمثلة في خطابات العشاق الممزقة التي جمعتها بالسيلوتيب الشفاف، وأكياس المني الحالم التي تنشع بلحظات الحب الفارقة،

ساعتها أدرك أهمية دوري في التوثيق، توثيق تلك اللحظات النادرة، كالمصور الذي يلتقط لك صورة أثناء طفولتك بينما لا يتجاوز طولك سنتيمترات معدودة، وتعرف أنه لا يمكن أن تأخذ صورة أخرى مشابهة بعد سنوات طويلة، وتظل صور الطفولة من اللحظات التي لا يمكن استعادتها، ولا بد من تخزينها في "فايل" يحمل اسمك، حتى لا تنسى أنك كنت هذا الشخص منذ سنوات بعيدة. مثل الكاميرا التي يضعها فريق عمل في قلب الغابات لمراقبة سلوك الحيوانات الوحشية لعقد من الزمن، فحيثما تلتفت هناك عيون تراقبها، عيون ليست آدمية، عيون بلورية تتحول إلى برج مراقبة.

صدقت يا شاعر، فأنا شاهد على الحب مثل النيل والقمر وأشجار الحدائق وأسرَّة العشاق، وأتخيل ماذا لو نطق أحدهم. أنام على حالتي تلك، فيأتيني النيل في المنام في صورة شيخ كبير مهيب الطلعة يحمل من ذكريات العشاق الكثير مما جعل رأسه ضخمة جدا بالمقارنة بجسده. يجيئني النيل ويقول:

سأحكي لك لأني أخشى أن أموت، وأنا أعرف أنك لا تزال شابا وتملك ذاكرة قوية وحادة، ولا بد أن أودع عندك أسرار قصص العشاق.

يتشاجر معه سرير العشاق وهو قادم يسير على أربع:

كيف تجرؤ على وصف ما يحدث على ضفافك من قبلات مسروقة

بأنها قصص عشاق، هي تفاهات بالنسبة لي. أنا سرير العشاق، مرتع الأحبة، المكان الوحيد الذي يأخذ فيه العشاق راحتهم، إن أكثر من نصف البشرية ولد على مرتبتي، مرتبة الرغبة.

يتدخل القمر في الحوار بوجهه المدوّر وابتسامته التي تشبه smile فيس بوك قائلا:

أنا كنت أنظر من فوق للعشاق وأحنو عليهم وأسجل وقائع حبهم على أرضي، وحين تفلحون في الوصول إلى أرضي واستصلاح القمر، ستجدون قصص العشاق مخزّنة في معامل تحميض، حيث كنت أحمض صور العشاق على ضوئي.

هنا تهتز أشجار الحدائق بطولها الخلاب متمايلة وتقول:

أنا من لجأ إليَّ المحبون، لتسجيل قصصهم باليوم والساعة.. هم لجأوا إليَّ دون أن أطلب. أما أنتم فقد تلصَّصتم عليهم دون أن يدروا، ويشرفني أن أقدم لكم ممثلي الوحيد حارس حديقة المحبين ليتحمل نقل كل قصص العشاق من لحاء أشجار الحدائق إلى ذاكرته. ساعتها أرى النهر والقمر والسرير والشجر تصفق لي بتقدير كبير وأنا أتقدم ناحية منصة التتويج بينما عيناي مليئتان بدموع الفرح والانتصار وأنا أتسلم جائزتي من يد سلطان العاشقين الذي صافحني بحرارة جعلت عمامة السلاطين فوق رأسه تهتز وتكاد تسقط.

(17)

سلطان العاشقين III

"ولو عَلمْتُ بأنّ الحُبّ آخِرُهُ هذا الحِمامُ،
لَما خَالفْتُ لُوّامي/ أوْدَعْتُ قلبي إلى
مَن ليسِ يحَفَظُهُ أبْصرْتُ خلفي، وما
طالَعتُ قُدّامي"

عمر بن الفارض

لا أصدق عيني، أدعكهما مرة أخرى حتى أتأكد مما أراه، سلطان العاشقين يجلس وحيدا في الحديقة، ليس وحيدا فقط لكنه وحيد وحزين أيضا، يا ربي كيف حدث هذا، هل أصبح سلطانا سابقا فقد كل شيء، وجاء ليجلس وحيدا على دكة خشبية في حديقة عامة، هل ينتظر أحدا، لكن سلوكه لا يشي بأفعال المنتظر، من تقلْقُل فيَ الجلسة ونظر في ساعة اليد، والتطلع إلى مدخل الحديقة، بل يجلس ثابتا لا يهتز وعينه سارحة وعلى وجهه سمات حزن وندم. هل فاتته حبيبته حتى حطت رحالها في محطة عاشق آخر؟

يا ربي إني أحسب أشجار الحديقة حزينة على حزنك يا سلطان العاشقين.. ها قد تهدلت أوراقها وجف عودها ولمَ لا، وللمؤمنين بالعلم أقول: إن نظرية "إدراك النبات" تؤكد أن إدراك النبات أو بمعنى آخر اتصالاته البيولوجية لا تدل فحسب على حساسيته بل إنه يمكنه التواصل عبر الإشارات الكيماوية ليبعث باستجابات معقدة ردا على التفاعل مع البشر على نحو يكافئ القدرات الحسية، كما تتألم أشجار الحديقة على سلطان العاشقين الآن.

سجلت دراسة "المجتمع والمؤمنون في فرضية غايا" عام 1848 فكرة أن النباتات قادرة على الشعور والعواطف، وقد اقترح الدكتور الألماني (جوستاف فيشنر تيودور) الأخصائي في علم النفس التجريبي في كتابه "نانا" فكرة أن النبات قادر على الشعور، وأعرب عن اعتقاده أن النباتات قادرة على الشعور تماما مثل البشر والحيوانات، وأنه يمكن تعزيز النمو الصحي لنباتات من خلال الحديث معها والاهتمام بها، أما الذين امتلأت قلوبهم بالايمان وحب رسول الله فهؤلاء أقول لهم وأنا منهم كما في الحديث: إِنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالتْ امرأةٌ مِنَ الأنصار أو رجل: يا رسولَ اللهِ ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إنْ شِئْتُمْ، فجعلوا له منبرا، فلمَّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلةُ صياح الصبيِّ، ثم نزل النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فضمَّها إليه تئن أنين الصبيِّ الذي يسكن، قال: كانت تبْكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها، قال فلما صُنِعَ له المنبر وكان عليه فسمعنا من ذلك الجذع صوتا كصوت العشار، حتى جاء النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت.

فيا حامدا معنى بصورة عاقلٍ   أَما لك من قلب شهيدٍ ولا سمْع
يحنُّ إليه الجذعُ شوقا وما لنا   أَلسنا بذاك الشَّوْقِ أولى مِنَ الجذعِ

عن جابر قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح واسعا، فذهب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

يقضي حاجته، فلم ير شيئا يستَتِرُ به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلمَ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن اللـه فانقادت معه كالبعير المخشوش، الذي يصانع قائدَه، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن اللـه فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف (الوسط) مما بينهما قال: التئما عليَّ بإذن اللـه فالتأمتا، فجلست أحدثٌ نفسي فحانت مني لفتةٌ، فإذا برسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم مقبل، وإذا بالشجرتين قد افترقتا فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ.

وذكر أحد الصحابة: سِرنا مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم حتى نزلنا منزلا، فنام النبي صلى اللـه عليه وسلم فجاءت شجرةٌ تشقُّ الأرض حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ذكرتُ له فقال: هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلِّم على رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فأُذن لها.

وعن أنس قال: جاء جبريل إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم وهو جالس حزينٌ، قد تخضب بالدم من فعل أهل مكة، فقال: يا رسول اللـه، هل تحبُّ أن نريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرةٍ من ورائه فقال: ادعُ بها. فدعا بها فجاءت فقامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع فأمرها فرجعت. فقال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم: حسبي حسبي.

وعن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فقال: بمَ أعرفُ أنك نبيٌّ؟ قال: إن دعوت هذا العذقَ من هذه النخلة يشهدُ أني رسول اللـه، فدعاه رسولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلم فجعل ينزلُ من النخلة حتى سقط إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم ثم قال: ارجع فعاد، فأسلم الأعرابي.

وحين سئل النبي: من آذن النبي صلى اللـه عليه وسلم بالجنِّ ليلة استمعوا القرآن قال: حدثني أبوك - يعني عبد اللـه بن مسعود - أنه قال: آذنت بهم شجرةٌ.

وعن ابن عمر قال: كنا مع النبي صلى اللـه عليه وسلم في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا قال له رسولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلم: تشهدُ أن لا إله إلا اللـه وحدهُ لا شريك له وأنَّ محمدا عبدهُ ورسوله؟ قال: ومَن يشهدُ على ما تقولُ؟ قال: هذه السَّلَمة، فدعاها رسولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلم وهو بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا فشهدت ثلاثا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها.

أكثر ما يزعجني في حياتي هو تحطم الأساطير، أن تظل عمرا كاملا تحسب شيئا ثم في النهاية تجده شيئا آخر، أو إذا ذهبت عنده لم تجده شيئا كالسراب يحسبه الظمآن ماء؛ مثل فكرة أن سلطان

العاشقين لم يعد سلطانا ولا عاشقا، أو كل تلك الأفكار التي تظل مؤمنا بها ردحا من الزمن كأساطير ثم تفاجأ أنها ليست كذلك؛ مثل فكرة أن اللحية تدل على التدين لتفاجأ أثناء مشاهدتك لفيلم بورنو أن البطل ملتحٍ، وتعرف فيما بعد أن كارل ماركس كان ملتحيا، فتهيل التراب على شعر لحيتك التي أطلقتها أثناء مراهقتك كمظهر من مظاهر التدين.

أو أنه من المفروض في مرحلة الطفولة أن تمشِّط شعرك وتسرِّحه على جنب، ولا يجوز أبدا أن تعيده للخلف وترجعه للوراء، حتى لا يخف شعرك ويتساقط، لكن تكتشف أن كل أهلك ورفاقك خانوك وضحكوا عليك، وأنها مجرد أسطورة فارغة بدليل انتشار الصلع في جيلي الذي ظل يمشط شعره على جنب حتى خامسة ابتدائي.

أو أسطورة أن شعر الصدر رمز من رموز الرجولة، إلى أن تدخل عالم الرياضة قسرا كتخليص حق، فتفاجأ بصور كل نجوم تلك اللعبة الرجال عارين تماما من الشعر وتقريبا من اللّبس، رغم قوتهم البدنية الهائلة التي تبدو في بوستراتهم المبدورة في رحاب صالة الألعاب الرياضية، فأعود إلى البيت وأهيل الموسي على شعر جسدي وساقي، ولا أستطيع أن أصل إلى شعر مؤخرتي، فأصبح كائنا غريبا مشوها أملس الجسد ذا مؤخرة كثيفة الشعر، حتى تتطوّع بذلك الأجنبية البلوند الشقراء بينما ينام ثلاثتنا أنا

وهي والشاعر في سرير واحد، ولاحظت الشعر الطويل الذي ينمو كأعشاب ويمد جذوره خارج حدود ملابسي الداخلية.

لعنة اللـه على الأساطير وعلى من صدَّرها لنا على أنها كذلك، لتشغلني في تلك اللحظة الفارقة عن سلطان العاشقين. أجمع شتات أفكاري، وأحاول أن أتعامل مع الموقف بحكمة أكثر، فأتقدم نحوه، بينما هو لا يشعر بوجودي تماما أباغته بالسؤال: أنت قاعد هنا ليه؟

يفيق سلطان العاشقين مصدوما بالسؤال، وقبل أن ينطق أمنحه تفسيرا مصحوبا بابتسامة عذبة: أنت مش عارف إن دي حديقة المحبين والعشاق وماينفعش تقعد هنا لوحدك.

يبتسم حين أباغته بهذا التصور، ولا يصدق مضمون كلامي الذي لا ينطبق على كوني أحد العاملين بالحديقة، كما تشي ملابسي الرسمية.

الحديث القصير الذي أجريته فيما بعد مع سلطان العاشقين كان كفيلا بهدم أسطورة سلطان العاشقين القوي، قاسي القلب الذي يركل حبيباته في مؤخراتهن، ويبصق على أجسادهن العارية، ويسحبهن من طوق يضعه في أعناقهن، أو يجرجرهن من شعورهن، أو يسحب حزام بنطاله الجينز من خصره ويلهب به ظهورهن، فقد وجدته رجلا رقيقا، وذهبت الأسطورة السابقة التي كنت رسمتها له

أدراج الرياح، لكن ما إن اختفت هذه الأسطورة القديمة حتى حلت محلها أسطورة جديدة، وهي أن سلطان العاشقين رجل غامض.

فعلى الرغم من الحوار اللطيف الذي تبادلته معه، لم أعرف عنه أي شيء بل إنه كان حريصا على أن يزيد غموضه وكأنه يريد أن يزيد شغفي، وهذا ما زاد قناعتي بأن أعود أراقبه من بعيد حتى أعرف عنه أكثر، لأنه أصبح من الواضح لي أن هناك أناسا كلما اقتربت منهم أكثر كلما كانت رؤيتهم أصعب.

كان السؤال الملح على لساني، ولكنه ظل داخلي مخافة أن أخسر سلطان العاشقين، هل اعتزلت النساء؟ أعرف أن عمر الذكورة قصير مثل عمر لاعب كرة القدم، لكن ليس إلى هذا الحد. ربما تكون إصابة ملاعب الحب - السرير - ربما تكون إحداهن علمت بخيانته لها فقضمت ذكره وهما على سرير الرغبة، النساء مجانين فيما يتعلق بالغيرة، ولا يمكن توقع أي شيء منهن في هذا المضمار، يمكن أن تفاجئك إحداهن بركلك بكل قوة في خصيتيك فتنتهي حياتك الجنسية بكل بساطة، في حركة واحدة، من ساعتها ستعيش عمرا بأكمله طال أو قصر عاجزا عن ركوب إحداهن، ولا تصبح هناك وظيفة لذكرك سوى التخلص من محصول اليوريا المحصور به، حتى الوصول إلى أقرب حمام أو مبولة أو شارع جانبي.

أعرف هذا الشعور المؤلم عندما لا تكون هناك وظيفة لذكرك سوى ذلك، حين يصبح عاطلا أو معطلا لا يعمل، يشبه تماما شابا عاطلا بلا عمل، حيث ينظر له كل الناس بشفقة لأنه لا يستطيع أن يفتح بيتا ويتزوج، هو هو ذلك الشعور المؤلم حين تكون عنِّينا عاطلا، لا تستطيع أن تفتح امرأة.

أنا أشعر بالنار التي بداخلك يا سلطان العاشقين، فالنار لا يحسها إلا من انكوى بها، وأنا انكويت بنار تلك المسألة، ولكني أخاف أن أفصح حتى لا تظن بي الظنون، كل ما سأحاول أن أفعله هو أن أملِّي عيني منك، لأني أعرف أنك لن تأتي هنا مرة أخرى إذا صحَّت توقعاتي، فهذه الحديقة لا يرتادها سوى العشاق أصحاب المناطيد المنتفخة، غير ذلك عليهم السلام، أو دعهم يرقدوا في سلام!

خذ بنصيحتي يا أخي، الأفضل لك من الآن أن تصرف بقية عمرك في عمل ما تحب حتى لو كان غريبا أو غيز مألوف، حاول أن تتعامل مع الحياة مثل جنرال متقاعد، يملك حديقة صغيرة أو مشتلا يعتني فيه بالزهور ويقلم الأشجار، وهو يضع فوق رأسه برنيطة بيضاء تشبه برنيطة سليمان نجيب في فيلم غزل البنات.

كل ذلك كان يدور بخلدي وأنا أقترب منه أكثر، الشيء الذي رأيته أفضل حين اقتربت منه جدا هو سقوط قلنسوة سلطان العاشقين

من فوق رأسه، حتى إن ذلك سمح لي أن أشوف شعره المفزلن لأول مرة، الذي كان على الرغم من حزنه البادي مصفوفا بعناية فائقة، بالإضافة إلى بنيانه العضلي الرائع، ليس ضخما لكنه منسق ومصفوف بعناية فائقة أيضا، أعرف أنه صرف وقتا طويلا وجهدا كبيرا في إعداد هذه العضلات وتجهيزها من أجل الفتيات والنساء، لذلك قررت أن أعود إلى الجيم مرة أخرى، للحصول على تنسيق عضلي، لكن هذه المرة ستكون عودتي بلا مقايضة وبكامل قواي العضلية.

(18)

مدرِّب الجيم

"إذا استطعت السيطرة على جسدك،
وأن تعيد تشكيله بالكيفية التي تريدها،
فأنت تستطيع السيطرة على أي شيء
آخر بحياتك"

أرنولد شوارزينجر

كان يمكن أن تمضي الحياة بالشحات مبروك كصانع أحذية كآلاف مثله من الشباب غير المتعلم، (بحسب الأربع صفحات المصحوبة بالصور التي أفردتها مجلة الشباب لحوار مع الشحات مبروك، بطل العالم في كمال الأجسام، والمعلقة كبوستر، أفرد له على أحد حوائط الجيم، والذي أفردت له شاشة السينما أيضا ذراعيها على آخرهما، محاولة أن تبلغ حجم ضخامة ذراعيه) لولا طموحه وحلمه وإصراره على أن يحقق ذاته، وأن يتفوق على ظروف الفقر التي عاشها.. وهكذا واصل التدريب على سطح بيته بواسطة ثقلين من صفائح الإسمنت على طرفي ماسورة حديدية.

وروى أحد أصدقائه لمجلة الشباب بعض ملامح رحلة الشحات مبروك، بقوله: إن الشحات هو رمز للإصرار والتحدي والإرادة الحديدية. فقد فاز ببطولة العالم سبع مرات، واشتغل لفترة بالتمثيل، وعندما أحس أن انشغاله بالتمثيل، قد يفقده مكانته في ساحة كمال الأجسام، قرر العودة مرة أخرى إلى أمجاده الرياضية والفوز ببطولة العالم مجددا، رغم حملات التشكيك في قدرته على العودة

إلى ما كان عليه، لكنه عاد أقوى وبعضلات جديدة، مما أذهل النقاد والعاملين في مجال كمال الأجسام.

ولد الشحات مبروك في مدينة دسوق التابعة لمحافظة كفر الشيخ إحدى محافظات الوجه البحري، في أسرة فقيرة، ولم تكن أحوال سكان تلك المدينة أفضل كثيرا من حالته، وعندما شب في شوارع المدينة، بدأ يتردد على دار السينما في كفر الشيخ والمدن القريبة. وكان معجبا على وجه الخصوص بالأفلام التي تمجد البطولة والتضحية، وبخاصة أفلام ملك الشاشة فريد شوقي ورشدي أباظة، إلى جانب نجوم كمال الأجسام الأجانب الذين عملوا في السينما مثل جوني ويسمولر وستيف ريفز وغيرهما من نجوم تلك الفترة.

وقد دفعه هذا العالم الجميل من البطولة والتحدي إلى أن يحلم بالثراء والنجومية والشهرة، ويمني نفسه بالعالمية، ومع أن أهله دفعوه للعمل في ورشة لصناعة الأحذية منذ طفولته، إلا أن أحلامه لم تفارقه، ورغم صغر سنه فإن قوة تحمله وصبره. جعلته ينتظر ويكابد حتى يصل إلى ما يريد. وبعد سنوات وجد أن القروش القليلة التي يكسبها أسبوعيا من عمله في ورشة الأحذية لا تكفي لسد احتياجاته، لذا لجأ إلى استخدام ذكائه الفطري في تصميم موديلات للأحذية مقابل مبالغ زهيدة، إلا أنها جعلته يشعر بتميزه في عالم صناعة الأحذية.

ورغم ظروف الفقر والجهل المحيطة به فإنه لم يثر أو يتمرد أو يتبرأ من نشأته، وإنما قرر بهدوء أن يجعل من نفسه إنسانا متميزا فاختار وأحب رياضة كمال الأجسام، وبدأ في التدرب بواسطة عصا بصفيحتين من الإسمنت، ليقوم بتنمية عضلات جسمه. ومع أنه كان يعود من عمله منهكا إلا أنه كان يتجه إلى سطح منزله ليتدرب ساعات طويلة على تقوية العضلات وبروزها.

واكتشف الشحات أن كمال الأجسام وبروز العضلات يحتاج إلى تغذية من نوع خاص، وبكميات كبيرة تكلف أموالا تفوق إمكاناته، فكان يلجأ إلى الجبنة القديمة (المش) كغذاء وبروتين، بدلا من تناول اللحوم والأمينو أسيد (الفيتامين الذي يساعد على بروز العضلات) الذي لا قبل له بثمنه، وظل يتناول المش حتى وصل إلى بطولة العالم.

حين رآني مدرب الجيم أقرأ موضوع مجلة الشباب المكتوب عن الشحات مبروك والملصق على حائط الجيم استغرب، وقال ما معناه: إن الصفقة بيننا التي تقتضي التدريب لمدة 6 أشهر مجانا، مقابل ألا أطالبه بنقودي التي أقرضته إياها قد انقضت، فابتسمت وأخبرته: هدفع اشتراك.

قهقه بصوت عالٍ كأنه يتكرع، وسألني إن كنت أريد private، وحين لم أفهم ما يقوله، شرح لي أن نظام البرايفيت له حساب خاص

غير اشتراك الجيم، وهو يعني أن أختاره ليكون مدربا شخصيا لي، مقابل مبلغ مالي آخر-خارج إطار الاشتراك الشهري، فوافقت.

بعد أن سددت الاشتراك والبرايفيت طلب مني أن أغير ملابسي في حسم: غيّر وتعال.

ذهبت إلى منطقة تغيير الملابس وأنزلت الشنطة التي بها الملابس الرياضية: هي في الحقيقة لم تكن ملابس رياضية بل ملابس تدَّعِي الرياضية، حيث إنها تقليد لماركات معروفة مثل adidas حيث يتم نقش اللوجو أو إضافة حرف (D) فتصبح addidas حتى تنطلي على المشتري الساذج مثلي، كما أخبرني صديقي الشاعر فيما بعد، ولم يكتف بذلك بل أحرجني قائلا: هوَّ فيه أديداس بالسعر اللي بتقول عليه ده يا عبيط.

في غرفة تغيير الملابس، في الحقيقة هي لم تكن غرفة، هي عبارة عن مساحة مربعة ينتشر فيها اللاعبون المنتفخون يغيرون ملابسهم أمام بعضهم بعضًا، شعرت بالخجل حين قارنت حجم أعضائي بحجم أعضائهم، حتى إني شعرت أن بعضهم يدرب كل عضلة في جسده، حتى عضوه الذكري الذي يطل بارزا من "الكيلوت" الضيق الذي يرتديه، فآثرت السلامة بين نظرات العطف، ودخلت لتغيير ملابسي في الحمام، في الحمام وجدت فوارغ أمبولات ملقاة في الباسكت

بالإضافة إلى عبوات وأكياس فارغة من الباودر، سأعرف فيما بعد أن هذه الأشياء تسهم بشكل كبير في منح عضلات مفتخرة وأيضا أمراض مفتخرة.

جريج فالنتينو، هو واحد من الرموز الأكثر إثارة للجدل حتى الآن في رياضة كمال الأجسام، صاحب أضخم عضلة ذراع في العالم، أو صاحب أكبر "باسيبس" أو عضلة ذات رأسين، يعتبره البعض من أعظم من لعب هذه الرياضة منذ أي وقت مضى في تاريخ لعبة كمال الأجسام. بدأ كمال الأجسام في سن 13 عاما. بعد أكثر من 23 سنة من التدريب بشكل طبيعي قرر جريج تجربة المنشطات، وخلال هذا الوقت نمت ذراعاه مكونا أكبر عضلة ذراع في العالم، لكن بعد سنوات من حقن المنشطات انفجر ذراعه. ملصق آخر على حوائط الحمام الذي تضرب فيه أمبولات الهرمون التي تضخِّم العضلة والكبد أيضا!

ارتديت ملابس التمرين، واتجهت إلى المدرب وأنا في غاية القلق من جسدي البائس، لكن المدرب كان لطيفا معي. لا أعرف سبب لطفه، هل المبلغ الذي دفعته له مقابل التدريب الشخصي أم أنه تخلص أخيرا من ديونه فتحول إلى إنسان أقل شراسة.

أخبرني المدرب في البداية أن هذه الرياضة 70 % منها يعتمد على الأكل، و30 % على اللعب، وكرر أن الطعام وقائمته هي الأهم

في مسألة تكوين العضلة، وأخبرني أنه يتوجب عليَّ لعب أسبوع general لأني مبطل منذ فترة ليست بالقصيرة، وثانيا أن أقسِّم أيام التدريب كالتالي: يوم بنش، ويختص ذلك اليوم بكل عضلات الصدر وينقسم إلى: بنش عالٍ وبنش فلات باستخدام البار والدمبلز، ثم تفتيح على جهاز الفراشة.

اليوم الثاني: يوم تمارين الظهر ويتكون من: سحب خلفي وسحب أمامي ثم السحب الأرضي، ثم لعب ترومبة واسع، وترومبة ضيق، وأختتم الظهر بتمرينة لتقوية العضلة القطنية، وفيما بعد ألعب مجنص مع الظهر لإبراز تلك العضلة التي تجعلك ترى من تظهر لديهم عضلة المجنص يسيرون في الشوارع وهم يرفعون أيديهم بعيدا عن جنوبهم، وكأنهم في وضع استعداد للإقلاع والطيران.

في اليوم الثالث أخبرني المدرب أنه يوم الكتف، وقال عليَّ أن ألعب تمرين بار أمامي، ثم one hand ثم رفرفة جانبي ورفرفة أمامي، وقبل أن أنهي تمرين الكتف سألحق به تمرينة الترابيس، وهي تلك العضلة التي تجعل أحدهم وكأنه يضع كتافات أو بوف فوق كتفه.

أما اليوم الرابع فهو يوم الذراع الذي يشمل عضلتي الباي والتراي؛ وهما العضلتان اللتان يهتم بهما معظم لاعبي رياضة كمال الأجسام غير المحترفين، حيث تصبح مقياسا مهمًا لمدى

نجاحك في هذه اللعبة وهو إظهار عضلات الباي والتراي بارزة.

ويعوِّل عليها معظم من يمارس هذه الرياضة، حتى إنك تلاحظ أن بوسترات نجوم الغناء تظهر وأحدهم يرتكز ويضغط على ذراعه ليظهر عضلتي الباي والتراي بشكل واضح، وسيصبح قطر ذراعي أحد هواجسي فيما بعد، خاصة حين تعرفون أن قطر الذراع أثناء طفولتي كان مثارا للسخرية مني أثناء طفولتي، لدرجة أني كنت أخشى أن أرفع ذراعي، وأمسك بالماسورة العليا للأتوبيس أو المترو، حتى لا ينزلق قميص المدرسة عن ذراعي، فيكشف كم هو نحيف، وكنت أكتفي بالماسورة العمودية التي لا تكشف بشكل فاضح قطر الذراع.

وتنقسم تمارين الذراع إلى قسمين قسم الباي ويشمل العضلة الأمامية من الذراع، وتمارينها عبارة عن تبادل بالدمبلز وتمارين على جهاز الهورس وتمارين هامر وارتكاز وتكوير، والمقصود بها تكوير عضلة الباي.

أما تمارين عضلة التراي، فتنقسم إلى فرنساوي، وهو تمرين يؤرجح فيه اللاعب يده التي تقبض على الدمبلز للخلف. خلف عنقه حتى لا يأتي في بالكم أنه الوضع الفرنساوي. غريبون هؤلاء الفرنسيون فكل ما هو جميل ينسب إليهم، "بوسة" فرنساوي أو كما يسميها الشاعر فرنشاية، الوضع الفرنساوي وهو أن تعتلي ظهر

من تحب. الفينو أو العيش الفرنساوي، وهو الفينو الطويل، وحين نريد أن نصف ذات قوام جميل نقول: حتة فرنساوي. تبا لكم أيها الفرنسيون أنتم تملكون كل ما هو جميل، وربما لذلك تمت تسمية تمرين التراي فرنساوي لأنه تمرين خلفي حيث تتأرجح اليدان خلف العنق، وخلفية على الجهاز ودمبلز على العنق وبار زجزاج.

أما اليوم الخامس والأخير فهو يوم تمارين الرِّجل، ويخبرني المدرب أن كل اللاعبين يهملون تمارين الرجل، ويقول إن هذا غير صحيح، لأن عضلة الرجل عضلة كبيرة وتمثل نصف الجسد وهي التي يحمل عليها الجسم كله، ولذلك تجد في الشوارع رجالا منتفخين من أعلى وسيقانهم من أسفل مثل أرجل الماعز، فأضحك. ويمر بجوارنا متدرب يسمع الحوار فيشير إلى ساقيه الرفيعتين فيقول زي دي، فينفجر المدرب في الضحك، حين يلاحظ أن المثال الذي ذكره ينطبق على هذا الشخص.

أتذكر أبي وهو يقص عليَّ حين كنت صغيرا حكايات تشبه أفلام الرعب، حين يحكي عن شخص كان يسير في الحقول وحيدا، فقابله شخص آخر وأخذ يحذره من ظهور العفاريت، فيخبره الرجل بقوله إنه يعرفهم من أول نظرة، فيسأله الآخر كيف تعرفهم فيقول رجلهم زي رجل المعيز، فيكشف الأول عن ساقيه، اللتين تبدوان مثل أرجل الماعز تماما، وفي تلك اللحظة يكشف

أبي عن ساقيه النحيلتين الممتلئتين بالشعر، ويقول في نبرة صوت مغلظة: يعني زي دي؟

فأصرخ من الخوف بينما يغرق أبي في الضحك وهو يقول: ماتخافش يا ابن الكلب.

ويأخذني في حضنه إلى أن يحس أن نبض قلبي بدأ يهدأ داخل صدري وداخل حضنه، وهو يملّس على شعري ويبتسم مطمئنا: يا خوَّاف.

في الحقيقة أبي هو من كان خوافا، كان يخاف أن يضحك كثيرا لأن ضحكته تكلفه الكثير، حيث إنه كان يعمل موظفا بشركة إسمنت طرة، وكانت علاوة العمل بتلك الشركة صدرا متحشرجا بالإضافة إلى سيجارة لم تكن تفارق فمه، لذلك كنا نخاف أن يضحك أبي فتنتابه نوبة من السعال المميت لا تتوقف، حتى يُخرِج من فمه دما ونظن أنه سيموت من الضحك، فيما بعد سأكبر وأعرف أن تعبير يموت من الضحك تعبير استعاري يدل على قمة الانبساط، لكن مع أبي كان تعبيرا حقيقيا عن الموت.

(19)

موظف طرة الإسمنت I

"وهذا شجر الإسمنت يلتف علينا
والمواليد الذين اعتاد آباؤهمو الصمت
يجيئون قصارا
ناقصي الخلقة
لا يخرج من أفواههم صوت
ولا تنمو خصاهم"

أشجار الإسمنت ـ أحمد عبد المعطي حجازي

أبى كان يعمل موظفا بشركة طرة الإسمنت حيث يقف يعد ويسجل عدد شكائر الإسمنت الخارجة من المصنع إلى منافذ التوزيع. فكان طوال وردية عمله يسجل في الدفاتر بخط جميل كل شيكارة، بينما لا تبخل كل شيكارة بعفرة على صدر أبي قبل أن تغادر المصنع نهائيا، حيث تستقر كجزء أصيل في حائط أساس منزل أو مستشفى أو مدرسة أو مؤسسة.

إن صناعة الإسمنت في مصر قديمة نسبيا، كما يخبرنا أبي متفاخرا بمعلوماته، إذ تعود إلى عام 1927 عندما تم إنشاء أول شركة للإنتاج وهي شركة إسمنت بورتلاند طرة.

بدأ أبي بكلمات المعماري بييرلوجي نيرفي، الذي يعد رائد فن العمارة في القرن العشرين، حيث يقول نيرفي: إننا نرغب في أن نبدأ رحلتنا سعيا لاكتشاف الإسمنت.

في لحظات الصفاء يحكي لنا أبي عن رحلة الإسمنت من الألف إلى الياء قائلا: يخرج الإسمنت من الأحجار والنار، ومن

ثم فهو منتج طبيعي يتكيَّف مع العبقرية البشرية في جهد يهدف إلى تحسين مستوياتنا المعيشية؛ فنجد البيوت والطرق والكباري والسدود والمستشفيات ودور العبادة جميعها نتاج الابتكار المعماري ومهارات الإنسان في البناء، لكن الإسمنت هو ما يجعل كل هذه الأعمال تتحول إلى واقع وأيضا يعود الفضل للإسمنت في ثبات أكثر البنايات ذات التصميم المعقد وصعب التنفيذ عبر العصور.

معلومات أبي عن تاريخ ونشأة شركات الإسمنت في مصر لم تكن هي مجال تميزه في الشركة.. خط أبي الجميل، كان مجال تميزه، لدرجة أنه اختير لوظيفة التدوين في شركة طرة الإسمنت لهذا السبب، وظل أبي حريصا على أن يورِّثني الخط الجميل، وبالفعل أفلح، حتى إن خطي الجميل في المدرسة كان مثار إعجاب المدرسين وخاصة مدرس اللغة العربية، الذي كان يصر على أن يكتب لي في كراسة الواجب مع كل درس يصححه: خط جميل.

ولهذا اختارني هذا المدرس في جماعة الصحافة المدرسية، لإعداد مجلات للحائط تشارك بها مدرستي في مسابقات بين الإدارات التعليمية المختلفة، وظل خطي الجميل يميزني في المدرسة ويحمِّلني أيضا أعباءً إضافية، وكان أبي حين يريد أن يمتدح خطي يقول: خطك سلاسل دهب. ويسعل بشدة، ويبصق دما، ويقول في وهن: الحمد لله ورثت مني الخط الحلو، وما ورثتش الصدر الخربان.

صدر أبي الخربان رسم إستراتيجية للتعامل الجاد في بيتنا، فظلت النكات محرمة وممنوعة في البيت، بأوامر من أمي، في ظل وجود أبي الذي كان يحب النكات، لكن النكتة الحلوة قد تكلفه رقدة في السرير مدة ثلاثة أيام، فآثرت أمي السلامة، وأصدرت فرمانا بمنع الفكاهة في بيتنا، لكن حين يكون أبي في العمل نطلق النكات، وتشاركنا أمي الضحك، ويقع أخي الأصغر على قفاه من كثرة الضحك، إلى أن جاء يوم عاد فيه أخي الأصغر من المدرسة، وقال عندي نكتة جديدة، على إثرها ذهبت أمي باتجاه الغرفة التي ينام فيها أبي، وردت الباب وقالت لأخي الأصغر: قول.

بدأ أخي - الذي لم يكن يبلغ من العمر وقتها أكثر من سبع سنوات - النكتة قائلا: مرة واحد كان نايم مع مراته، وهنا صرخت أمي في وجهه وطلبت منه أن يتوقف، وسألته مين قالك النكتة دي، ليخبرها أنه صاحبه في الفصل، فتطلب أمي في هستيريا وقد تبدل لونها أنه مايصاحبش الولد ده تاني، ولا يقول النكتة دي لحد أبدا.

يرضخ أخي الأصغر، حتى إنه يرفض أن يخبرني بالنكتة حين طلبت منه ذلك رغم عدم وجود أمنا التي رحلت قبل أبي. ظللت أعتقد لسنوات أن أمي مدت سنوات في عمر أبي ليرحل بعدها بسبب حرصها على رد الباب، ونحن نتبادل النكات، بينما أبي العائد من الوردية نائم في سريره، وبذلك حمته من أن يموت من الضحك فماتت هي قبله من الغم، حين مات أخوها المجند في حرب

تحرير الكويت أو عاصفة الصحراء طبقا للاسم الهوليوودي الذي منحته قيادة الأركان الأمريكية لحربها المقدسة ضد العراق.

عملية عاصفة الصحراء أو حرب تحرير الكويت كانت في إجازة نصف العام، لذلك أذكر التاريخ جيدا، وأذكر أيضا لهفة قلب أمي على أخيها الذي سيق إلى الحرب، هو وآلاف الشباب المصري ليلاقوا حتفهم من 17 يناير إلى 28 فبراير 1991، هي زمن الحرب التي شنتها قوات التحالف المكونة من أربع وثلاثين دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق - من ضمنهم مصر بعد أن قبض مبارك الثمن وأودعه في خزائنه - بعد أخذ الإذن من الأمم المتحدة لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي. تطور النزاع في سياق حرب الخليج الأولى، ففي عام 1990 اتهم العراق الكويت بسرقة النفط عبر الحفر بطريقة مائلة، وعندما اجتاحت العراق الكويت فُرضت عقوبات اقتصادية على العراق، وطالب مجلس الأمن القوات العراقية بالانسحاب من الأراضي الكويتية دون قيد أو شرط.

استعدت بعدها الولايات المتحدة وبريطانيا للحرب، وبدأت عملية تحرير الكويت من القوات العراقية في 17 يناير سنة 1991، حيث حققت العمليات نصرا مهمًا مهد لقوات التحالف الدخول داخل أجزاء من العراق، وتركز الهجوم البري والجوي على الكويت والعراق وأجزاء من المناطق الحدودية مع السعودية، وقامت

القوات العراقية بالرد عن طريق إطلاق عدد من صواريخ سكود على إسرائيل والعاصمة السعودية الرياض. في هذه الأثناء كنا نتابع نحن الأطفال البيانات النارية لمدرس اللغة الإنجليزية سعيد الصحاف، الذي أصبح وزيرا للإعلام العراقي وهو يهدد قوات التحالف، ويعلن عن تكبيدهم الخسائر الفادحة.. كنا نقلده وهو يصفهم بالعلوج، ورغم تحذير الأهل لنا من أن هذه الكلمة قليلة الأدب، فإننا كنا نطلقها على بعض في لعبة الحرب التي نلعبها في الشارع، وكنت أنال دون جهد شرف قيادة جيوش المنطقة والشارع، وذلك لأن خالي يشارك بالفعل في الحرب الحقيقية الدائرة رحاها.

أمي كانت تحب أخاها المجند حبا جما، وتقول عنه بعد أن مات: كان شاب زي الورد، وبالفعل كنت أرى خالي زي الورد، حيث كان يمتلك وجها محمَّرا وشفاها مورَّدة، جعلت كل البنات يتسابقن إلى شفاهه، وكانت أمي تدافع عنه وتقول: وهوَّ ذنبه إيه؟ هما اللي بيحبوه وهوَّ جدع مابيحبش يكسر بخاطر حد.

وكنت أصدق أمي في مسألة كونه جدعا، لأنه بالفعل جدع، حيث كان يصطحبني معه إلى السينما، بينما معه إحدى فتياته التي تنهال على شفايفه المورَّدة، ولأنه جدع كان لا يمنع أي فتاة من تقبيله، لكنه كان يطلب مني ألا أخبر الفتاة الحالية عن الفتاة السابقة، ويقول لي: خليك جدع.

وأتمنى في قرارة نفسي أن أكون جدعا مثل خالي حتى تقبّلني كل الفتيات في شفايفي، ويداعبنني ويلعبن في شعري مثلما كن يفعلن مع خالي، الذي كان يملك شعرا مثل الحرير كما تقول أمي لدرجة أنه حين ذهب للتجنيد، وكان لزاما أن يقص شعره الطويل الناعم، أخذت أمي مكنة الحلاقة التي كان يستخدمها أبي في قص شعره لنفسه، وحلفت على أخيها: واللـه ما حد هيقصلك شعرك غيري.

وبالفعل يرضخ خالي لكلام أخته الكبيرة، وتقص أمي له شعره بالمكنة على نمرة واحد، وتحتفظ أمي بمقصوص أخيها الناعم، وتخرجه بعد مقتله في الحرب، وتتشمَّمه قائلة: ريحة شعره لسه حلوة.. كان مواليه بالبلسم على طول.

وتنخرط في البكاء، وتتوقف النكات في بيتنا بعد رحيل خالي الجدع حتى حين يكون أبي غير موجود، أو باب غرفته مردودا.

(20)

جدع زي الورد

"يا لك من شنقيط"

عبد المنعم إبراهيم ـ فيلم إسماعيل يس في الأسطول

خالي الذي كان "يحب السينما زي عينيه" كما تقولِ أمي، لم يكن يشاهد فيلما واحدا على بعضه، لأنه كان مشغولا بقبول تقبيل الفتيات له في السينما، لأنه جدع ولا يكسر بخاطر واحدة، وكانت الواحدة منهن تستغل مشاهد التقبيل في السينما على الشاشة الكبيرة في أن تفعل مثلما يفعل أبطال الفيلم، وربما لو كان خالي يعيش إلى هذه اللحظة لهجر ارتياد السينما التي كفت عن مشاهد ممارسة الحب والقبلات في الأفلام فيما عرف بمرحلة السينما النظيفة، بالإضافة إلى سبب آخر وهو أنني أصبحت أكلف خالي ثمن تذكرة كاملة، بعد أن أصبح طولي حاجزا يمنعني من الدخول المجاني بصحبته.

خالي كان يكره أفلام الحرب وأفلام الأكشن، ويقول إنه لا يحبها، ولا أفهم ساعتها أيهما يعني الحرب أم الأكشن، لكن فيما بعد سأدرك أنه كان لا يحب الحرب لأنه سيموت فيها، هو فقط كان يحب الأفلام الرومانسية، وأتذكر حين دخلت فيلم تيتانيك بعد

سنوات من مصرع خالي في ساحة الحرب، أنني فكرت أنه لو كان موجودا على قيد الحياة فسوف يحب هذا الفيلم جدا، وسيدخله مرات عديدة بعدد رفيقاته، وستناله قبلات كالمطر من صاحبته في السينما، وأعرف أن عينيه ستلألآن بالدموع مع مشاهد غرق السفينة تيتانيك، وأن شعره الناعم سوف ينسدل على جبينه بينما يبكي فتلمُّه له رفيقته، وتعيده إلى الوراء وهي تطبع قبلة حنونة على شفاهه الموردة، ساعتها أتخيل نفسي صانع الفيلم وأقوم بكتابة إهداء يظهر على الشاشة يشاهده ملايين الناس في كل الدنيا، وسيكون الإهداء رقيقا ومكتوبا على الشاشة قبل تترات الفيلم: إلى خالي، كان جدع زي الورد. أو أكتب: إلى خالي.. يا لك من شنقيط. تلك الجملة التي كان يقولها عبد المنعم إبراهيم في فيلم إسماعيل يس، ويقولها لي خالي حين يلاحظ أني أراقب الفتيات وهن يقبلنه. لكن لأني لست من صناع الأفلام - فقط أنا من مشاهديها - لذلك سوف أكتفي بالبكاء حين أتذكره أثناء الفرجة على الفيلم، وذلك حين رأيت شابا يشبهه إلى حد بعيد، وكانت هناك فتاة تشبه فتيات خالي تقبله رغم أن شفاهه ليست وردية ولا أسنانه بيضاء مثل خالي.

ساعتها أعرف أن الجدعان كثر، لكن لا أحد جدع زي الورد مثل خالي، الذي كنت أراه أحلى من كل أبطال الأفلام التي شاهدتها برفقته، وأعرف أنه كان سيُختار بطلا لموجة أفلام الشباب التي ظهرت بعد رحيله، وأنه بالتأكيد كان سيصبح نجم الشباك الأول،

وأنني سوف أكتب قصة فيلم خصيصا له، حيث يكون بطل الفيلم جذابا وسيما يتهافت عليه النساء والرجال. النساء يشعرن تجاهه بالجاذبية، والرجال يشعرون نحوه بالغيرة، وربما الإعجاب الخفي أيضا، ذلك الإعجاب الذي تكنُّه به بعض صدور الرجال تجاه رجالٍ آخرين، لكنه يظل داخل الصدور فقط.

الجدع زي الورد الذي قادته بلاده إلى ساحة حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، قادته ويا للمفارقة إلى ساحة حرب حقيقية مع أنه كان لا يحب أفلام الحرب في السينما، وكان يغمض عينيه وأذنيه مع صوت كل طلقة فشنك تضرب في أي فيلم يشاهده.

خالي الذي كانت تمتلئ حجرته بأغلفة مجلات الكواكب، والموعد، والراديو المصري - مجلة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية - وأتذكر العدد الذي تحتل غلافه فقيدة الفن السينمائي "إسمهان" كما يقول الغلاف، الذي ينوّه إلى حضور حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحفلة الأولى لفيلم "غرام وانتقام" بطولة إسمهان، التي رحلت قبل أن يكتمل تصوير الفيلم، وتذكرني الدعاية للفيلم بهذه الطريقة بمقولة: كوهين ينعي ولده ويصلح ساعات. ومجلة الكواكب التي كانت دائما تحرص على أن تكون هناك هدية للقراء مع العدد مثل عدد فريد الأطرش على الغلاف، وكانت هدية العدد نتيجة سنة 1965، بينما غلاف المجلة الخلفي يؤكد بحسب

شركة النصر لتصنيع الأسماك، أن نجمة السينما ليلى طاهر تحتفظ دائما بمنتجات الشركة في ثلاجتها من الخضراوات الجمدة! أما العدد الممتاز الصادر بمناسبة بداية شهر رمضان الكريم، فتقف الفنانة مريم فخر الدين على غلافه ممسكة بفانوس صاج بديع الألوان، وفي هذا العدد تتابع الكواكب حفل يوسف وهبي الذي أقامه بمناسبة شم النسيم في فيلته. يا ترى من الذي حضر؟ وتنشر مذكرات محمد عبد الوهاب وهو يحكي عن أول لقاء له مع أحمد شوقي أمير الشعراء، وماذا دار باللقاء، وتكشف أسرار البلاتوه، ولماذا رفض كمال الشناوي تقبيل كاميليا. وتسرد المقلب الذي وقعت فيه كريمان في أول يوم رمضان، وأيضا تعرض صفحة كاريكاتور شيِّقة بريشة مهيب. ستجد بها كل الفنانين المحبوبين حسن فايق، القصري، إسماعيل يس، سامية جمال، شرفنطح، ماري منيب.. وغيرهم، وتابع إعلانات أفلام عفريتة إسماعيل يس، حسن ومرقص وكوهين، وشاهد واختر أفضل أجهزة الراديو الحديثة من الإعلانات.. يا ترى ما هو الأفضل لك، فليبس، سودفونك، مندي، ماريللي تسلا، شوب... ماركات متنوعة من الرداوي!

أما في مجلة الموعد اللبنانية فكنت أحب جدا العدد الذي يظهر الفنان خفيف الظل محمد فوزي على غلافه وهو يرتدي روب "دي شامبر" ويروي قصارى الزرع في بيته!

حجرة خالي حيطانها كانت جميلة وملونة، ومليئة بهدايا مجلة الكواكب، التي كان يحرص على شراء أعدادها القديمة من سور الأزبكية، لذلك ليس غريبا أن يرى خالي في منامه؛ مديحة كامل ونجلاء فتحي وميرفت أمين، وإن كان في بعض تلك المنامات يطارده رشدي أباظة لخطفه الجميلات منه، لكنها مطاردة لذيذة، كما يصفها خالي الذي كان يحكي لي أحلامه الفنية. ويسألني مداعبا: تعرف تفسير الحلم ده إيه؟

فأخبره على الفور وبتلقائية طفولية: هتتجوز رشدي أباظة!

فيغرق في الضحك ويسألني: ليه؟

فأقول له: عشان هوَّ بيجري وراك، زي البنات اللي بتجري وراك وعايزة تتجوزك.

ويسألني: وعرفت منين؟

فأخبره أن أمي قالت: البنات بتجري ورا خالك عشان عاوزه تتجوزه.

خالي الذي كان يلعن أباه، لأنه أنجب أخا له على كبر، أضحى سببا لالتحاقه بالجيش أو بالأحرى كان سببا في التحاقه بالسماء، هل قصد أبوه هذا؟ هل أراد جدِّى لابنه الوحيد أن يسترجل فأنجب له أخا وهو في أرذل العمر؟ أم أن هذا كان مجرد نشاط جنسي

متأخر يشبه مكافأة نهاية الخدمة أراد به جدي أن يثبت أن ذكره لا يزال في الخدمة، ويعمل رغم أن السكر هدَّه، وحتى يخرس الألسنة تزوج تلك السيدة التي تصغره بثلاثين عاما، وأنجب منها الولد المفعوص بعد أن وهن العظم واشتعل الرأس شيبا، الولد المفعوص الذي منح خالي بطاقة التأهل للتجنيد.

هل تحقق حلم جدي في أن يجعل خالي يسترجل؟ رغم رحيل جدي بعد أن التحق خالي بالتجنيد بأيام قلائل، فإنني رأيت ابتسامة الانتصار على وجه جدي الميت، وقد رأى ابنه الكبير حالقا شعره أخيرا على نمرة واحد.

صحبة خالي أيام السينما جعلتني أتعلم منه أشياء كثيرة، بالطبع غير تقبيل الفتيات جعلتني رقيقا مثله، أنهْنه بصوت خافت من المشاهد الرومانسية في الأفلام، وأبكي تأثرا حين أرى شجار النهايات في قصة حب في الحديقة.

كنت أرى الحديقة مثل شاشة السينما، أتابع عليها مشاهد الحب بشغف، لكن في الحديقة دوري أصبح أكبر من المشاهدة، كنت بشكل أو بآخر متداخلا في قصص العشاق داخل الحديقة، أسهم ولو بجزء ضئيل فيها، حتى لو كانت هذه المساهمة غير مباشرة، تأتي عن طريق التلصص.

القسم الثاني

وَحَدَائِقَ غُلْبًا

(21)

حارس الحديقة IV

"اختر وظيفة تحبها ولن تضطر للعمل
بعدها طيلة حياتك"

كونفوشيوس

الوظيفة أو العمل مثل الرب تصنع أقدار أصحابها، ولهذا ليس غريبا أن يقال رب العمل عن صاحب العمل أو عن مديرك في الشغل فقد تسير حياتك في اتجاه إلى أن تلتحق بوظيفة أو عمل ما، فتتغير حياتك وتذهب في اتجاه آخر، وربما تظل لصيقا بأشخاص في حياتك إلى أن يأتي قدر العمل ويفرقكم إلى أقدار وأصقاع شتى، مثل صديق طفولتي ومدرستي الذي التحق بالعمل في السياحة، مما جعله يتزوج روسية وينجب أطفالا مهجَّنين وينتقل للعيش في بلد زوجته، ويصبح النصف الآخر من حياته قدرًا جديدًا صنعته الوظيفة، لذلك نحن نولد مرتين، مرة حين نأتي إلى الدنيا، ومرة حين نذهب إلى العمل.

انظر مثلا إلى الأجنبية البلوند الشقراء، فقد ظلت تعيش في فرنسا إلى أن التحقت بالجامعة حيث عملت على دراسات عن الموسيقى الشرقية، فانتقلت من الغرب إلى الشرق، تعيش قدرا جديدا وتضاجع رجالا جددا، ربما لا يفهمون لغة لسانها، لكنهم بالتأكيد يفهمون لغة جسدها، ومن الجائز ذات يوم أن تتعلم العربية، وتلبس عباءة شرقية، وتفاصل البياعين أثناء الشراء.

أو انظر مثلا إلى مدرب الجيم الذي ربطته مهنته بهذا العالم، عالم كلما كبرت فيه عضلاتك، زاد احترام المتدربين لك، لدرجة أن مدرب الجيم ضحَّى بحياته من أجل عضلاته، التي ظل يحقنها بلا رحمة حقن هرمون في حمام الجيم، وبينما يضرب حقنة فقد السيطرة على جسمه، وبالتالي لم يستطع السيطرة على حياته بحسب مقولة أرنولد شوارزينجر التي كان يعلقها في الجيم، فرحل بعد أن فقد السيطرة على وظائف كبده.

الوظيفة مقصلة، تجبُّ ما قبلها، راقب كل الشخصيات في الحياة وكيف تغيرت حياتهم أو بالأحرى صنعت لهم أقدارًا أخرى مثل لاعبي الكرة والممثلين والسفراء وتجار المخدرات وبائعات الهوى وضباط الشرطة والأنبياء والمضيفات الجويات والقباطنة والناشطين السياسيين واللصوص والقتلة المأجورين ومناصري قضايا الأقليات ومصوري ناشونال جيوجرافيك والشعراء وحراس حدائق المحبِّين.

أنا واحد من هؤلاء الذين صنعت وظائفهم أقدارهم، عملي كحارس في حديقة عامة يلتقي فيها العشاق غيَّر حياتي للأبد، فأنا قبل أن ألتحق بالعمل كحارس للحديقة كانت حياتي نمطية تسير في اتجاه واحد ذي مسار إجباري، وهي الخطوة قبل الأخيرة في حياة الكثير من البشر، الحصول على وظيفة ثم الزواج والإنجاب، وبعدها تتوقف حياتك عن النمو أو الأحداث الكبرى، لكن حصولي

على وظيفة حارس في حديقة يلتقي فيها المحبُّون غيَّر حياتي، فهناك قابلت صديقي الشاعر الذي كان يجيء كل مرة إلى الحديقة، وينظر إلى الأشجار أو يتطلع إلى السماء ويكتب ثم يعود للتطلع إلى السماء ويكتب، راقبته باستغراب، في البداية ظننته مجنونا أو أحد مهابيل هذا الزمان لكن ملابسه ليست ملابس مهابيل، وحين رأى أني أراقبه باستغراب، أشار لي مبتسما ثم ناداني: تعالَ.

ذهبت إليه خجلا لأنه اكتشف مراقبتي له، وكأنه يقرأ أفكاري قال لي بنظرة هازئة: أنا مش مجنون، أنا شاعر. ولما أبديت اعتذاري، طلب مني ألا أعتذر كثيرا لأن الشعر ليس بعيدا عن الجنون، وإني لم أخطئ في تقديري بنسبة كبيرة، وألقى على مسامعي أول أشعاره:

قالها ومضى:

"ينبغي كي تمر على الشعر

أن تخرج الآن من معجم الشعراء

إلى معجم الفقراء"

هكذا قالها:

ينبغي

ومضى حيث لم أكترثْ

بعد حينٍ

وجدتُ القصيدة تفلت مني

ثم لم تأتِني

قلت أبحث عنها

في الخيال الذي

لم تكنْ

في البحور العريضة

لم ألقها

في اغترابي وفي داخلي

لم تكنْ

حينها

كنت أوشكتُ أن أعلن الصمت وحدي

ثم أقتل نفسي

والقصيدة تصبح مسئولةً عن دمي

فالقصيدة تعرف كيف يخُشُّ الطغاة إلى ساحتي

بعدها

قلت لا يحتويني السكوتُ

القصيدة بالشعر قد نبأتني

والشعر ليس يموتْ

هائما صرتُ في كل ركنٍ

أفتشُ عنها

قلت أبحث في قريتي

حين يخضرُّ فيها النباتُ الجميل
فيزرع في العين نوراً وفي القلب أفئدةً
من هوىً ومنىً واشتياقْ
حين أنظر للناس في أول الصبح
يجمعهم صوت إشراقهم
والشموس تباركهم وتحطُّ عليهم أهازيجها
حينها
قد رأيتُ القصيدة في أعين البسطاء تنادي
وتذكرتُ قول الذي قالها ومضى
ينبغي كي يواعدنا الشعر
أن نخرج الآن من معجم الشعراء
إلى معجم الفقراء.

ولما رآني لا أفهم ما يقول سألني: إيه اللي مش فاهمه؟

فأعدت كل ما تلاه عليَّ من شعر، فاتسعت حدقتا عينيه الجميلتين وقال منبهرا: يااااه أنت مصيبة في الحفظ. وأخبرني أنه كان على وشك أن ينعتني بالحمار، لكن بعد أن ظهرت موهبتي في الحفظ تراجع وقام وقبَّلني، فأخبرته أن أبي حين كان يذاكر معي دروسي، كان يخبئ الصفحة المقابلة حتى لا أحفظها فتبسَّم من قولي ضاحكا:

مش للدرجة دي، أنت هتعملي فيها الإمام الشافعي وأنشد:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

ثم أردف قائلا: من أبيات الشافعي.

وقال أنت مثله فقد كان يضع يده على الصفحة المقابلة حتى لا تقع عينه عليها فيحفظها بينما يحفظ الصفحة الأخرى، وإذ به يتعثر ذات يوم في الحفظ فيذهب إلى وكيع أستاذه ومعلمه فيشكو له سوء حفظه فيرشده وكيع إلى أن هناك معصية ارتكبها، ويتذكر الشافعي معصيته وهي أن عينه وقعت على كعب امرأة مليحة فراقت له، فضاع منه الحفظ لبعض الوقت.

ساعتها نظر الشاعر في عينيَّ بقوة وهو يضغط على ذراعي: ابتعد عن الحريم يا معلم لاحسن هيلحسوا دماغك.

وطفق ينشد منفعلا: إنما النساء حبال في حُبهنَّ يضيع الشرف التليد. ثم أردف قائلا: وأنت شرفك الحفظ.

من ساعتها وأنا أخاف على ضياع شرفي بين أيدي النساء، فابتعدت عن الوقوع في حبال غيِّهن قدر المستطاع حتى أهدتني الأجنبية البلوند الشقراء كاميرتها وأشياء أخرى.

استجبت لما أملاه شاعر قصيدة النثر عليَّ خوفا من ضياع شرفي - الحفظ - أو أن ينطفئ نور اللـه في قلبي إذا ما عصيت أمر اللـه، والشاعر خاصة أن صديقي الشاعر وعدني بالشهرة، وأن يحاول الوصول إلى ممثلين لموسوعة جينيس للأرقام القياسية بالشرق الأوسط لتسجيل اسمي ضمن هذه الموسوعة الشهيرة في قدرتي الفائقة على الحفظ، وبالفعل أبلغني أنه حاول محاولات كثيرة لكنه لم يفلح، اكتشفت فيما بعد أنها محاولات كاذبة لأنه خاف أن ينكشف أمر حفظي ويعرف الناس الذين قدمني لهم على أني مجنون شعره ذلك، فتضيع أسطورة غرامي بشعره وحفظي له، لكن كلام الشاعرعن جنيس جعلني أبحث عنها وعن شروطها على الإنترنت، فمنحني جوجول إله المعرفة بسخاء نتائج بحث كثيرة.

شهد العام 1951 بزوغ فكرة كتاب "جينيس" للأرقام القياسية ففي ذاك العام دخل السّيد "هيوج بيفر" الذي شغل آنذاك منصب مدير معمل "جينيس" لصناعة البيرة في جدال، أثناء مشاركته في رحلة صيد، ودار الجدال حول أسرع طير يُستخدم كطريدة في ألعاب الرّماية في أوربا "الزقزاق الذهبي" أم "الطيهوج"؟ في تلك اللحظة أدرك السّير "بيفر" مدى النجاح الذي قد يحقّقه كتاب يأتي بالأجوبة الشافية عن هذا النوع من الأسئلة، فكان على حق! بدأت فكرة السّير "هيوج" تتجسّد واقعًا ملموسًا عندما أوكلت إلى "نوريس" و"روس ماكويرتر" اللذين كانا يديران وكالة لتقصّي

الحقائق في لندن مهمّة جمع ما أصبح فيما بعد "كتاب جينيس للأرقام القياسيّة"، وصدرت النسخة الأولى منه في 27 آب/أغسطس 1955 ليتصدّر لائحة الكتب الأكثر مبيعًا بحلول عيد الميلاد في العام نفسه.

ومنذ ذلك الحين أصبحت العلامة التجارية "جينيس للأرقام القياسيّة" أو Guinness World Records TM اسمًا مألوفًا ورائدًا عالميا في مجال الأرقام القياسيّة العالميّة، فما من شركة تجمع أرقاما قياسيّة من العالم أجمع تتثبّت من صحّتها وتصادق عليها وتقدّمها بالشموليّة والصحة عينها، أضفْ أنّ "فريق إدارة الأرقام القياسيّة" يتابع بحياديّة والتزام راسخَين الأرقام كافة لضمان صحّتها، فلا تتمّ المصادقة على أية محاولة ولا تمنح شهادة "جينيس للأرقام القياسيّة" إلا بعد أن يتمّ التحقق منها فتنتفي عندئذٍ كلّ الشكوك حولها.

هذا وقد حقّق الكتاب رقمًا قياسيًا لبيعه يزيد على مائة مليون نسخة في 100 دولة و37 لغة مختلفة، والجدير ذكره أنّ كتاب "جينيس للأرقام القياسية" المسجّل تحت الاسم التجاري Guinness World Records TM هو الأكثر مبيعًا على الإطلاق بين الكتب التي تحفظها حقوق الطبع والنّشر.

بحسب موقع شركة جينيس للأرقام القياسية على شبكة الإنترنت، فإن الشركة تقول بأن في آخر طبعة عام 2006 هناك 64,000 رقم

قياسي عالمي في شتى المجالات والفاعليات الفردية منها والجماعية.

هل لديك فكرة عبقرية، أو تريد كسر رقم قياسي لكنك لا تعرف كيف تسجل في موسوعة جينيس العالمية؟ لا مانع من أن تحصل على شهادة بما لديك فهو لن يكلفك شيئا، فالجميع يمكنهم التقدم مقابل مبالغ مالية قليلة، لكن يحتاج من هم تحت سن الثامنة عشرة إلى موافقة الوالدين، وإليك بعض النصائح لتساعدك في التقدم للتسجيل على رقم قياسي في موسوعة جينيس:

1 - اختر الرقم القياسي الذي تريد كسره وأثناء تفكيرك في الاختيارات ضع في اعتبارك الآتي:

- تجنب اختيار الأشياء التي لن يتم قبولها فالأطول والأقصر والأثقل أو غيرها من الصفات يصعب التقدم لها، لأنك لن تُقبل إلا إذا كنت الأول بمعنى الأول، مثل أول إنسان على القمر أو أول فيلم يحصد أكثر من مليار دولار.

- لا تجعل حيواناتك تتناول طعاما أكثر من اللازم حتى تصبح الأثقل أو الأسرع، فالحيوانات ستعاني حتى تتمكن أنت من تسجيل رقم قياسي.

- لا تحاول خرق القوانين مثل قيادة السيارة بسرعات كبيرة في الطرقات العامة.

2 - اتصل بموسوعة جينيس العالمية قبل القيام بمحاولة تسجيل الرقم حتى تعرف منهم بالتحديد ما يجب أن تفعله من خلال موقعهم الرسمي على الإنترنت www.guinnessworldrecords.com قد تستغرق الموافقة على رقمك القياسي شهورا لأنهم يقومون بإجراء تحقيقات قبل الموافقة أو الرفض.

3 - اتبع التعليمات: إذا كنت تتقدم لكسر رقم موجود بالفعل، سترسل موسوعة جينيس إليك تعليمات بما اتبعه حامل اللقب الحالي، أما إذا كانت محاولتك عن شيء جديد فإنهم سيكتبون تعليمات خاصة لك، وبعدها تكون جاهزا لتنفيذ المهمة.

4 - دعوة محكّم ليحضر محاولة تسجيل الرقم يعود لاختيارك، ولا يجب أن يقوم به كل المتقدمين لموسوعة جينيس، لكن هناك مزايا من وجود محكّم، مثل الحصول على اللقب في نفس الوقت، وكتابة مقال عن رقمك القياسي في الموسوعة، وهو ما يعني تغطية إعلامية دولية.

5 - جمع أدلة: يتضمن ملخص التعليمات الأدلة المطلوبة مثل فيلم مصور أو صور فوتوغرافية وشهود.

6 - أرسل كل الأدلة التي لديك لموسوعة جينيس على العنوان المكتوب في التعليمات.

7 - ستحصل على النتيجة في نفس اليوم وإلا فعليك الانتظار حتى الانتهاء من البحث.

8 - إذا نجحت في الحصول على اللقب، ستتسلم الشهادة عن طريق البريد خلال 6 أسابيع، وسوف يطبع اسمك في الطبعة الجديدة لموسوعة جينيس.

شعرت بعد قراءة هذا السيل من المعلومات أن الإجراءات معقدة، وفكرة حفظي لا تخصني وحدي، وربما يوجد في هذا الزمان شافعي آخر، فصرفت النظر عن الأمر برمته.

(22)

الأجنبية البلوند الشقراء III

"العري يدل في المنام على سلامة الباطن، وعري الرجل حج إذا كان في الرؤيا شاهد خير، وعري المرأة فراق منزلها"

تفسير الأحلام - ابن سيرين

يكفيني أن الأجنبية البلوند الشقراء وحدها كانت تعرف موهبتي في الحفظ حين لاحظت قناني الخمر التي يهبها لي الشاعر مع حفظ كل قصيدة من قصائده، فحاولت أن تمنحني نبيذها هي الأخرى كي أتعلم لغتها، لكن نبيذ الأجنبية الشقراء كان غير نبيذ الشاعر، نبيذها كان القبلات وجسدها الذي حاولت أن تهبه إليَّ بسخاء، لكن العلاقة بين ثلاثتنا كانت مركبة وغير مفهومة، فأعرضت خوفا ورهبة وعجزا. واكتفيت بمشاهدة أفلام البورنو معها، لكن بعضًا هذه الأفلام كان يصيبني بالغثيان، كانت تمتلك مزاجا منحرفا فيما تراه، وكان الشاعر يبرر لي ذلك بأنهم - في الغرب - استنفدوا كل شيء، لذلك هم يفعلون الأشياء الغريبة لمحاولة التجديد، ويخبرني أن أباها ترك عائلته بينما كانت هي طفلة صغيرة، وذهب ليتسلق الجبال ولم يعد، وأن أمها هي من قامت بأمور عائلتها الصغيرة.

لا أفهم ما علاقة كل ذلك بكونها تشاهد أفلاما جنسية يبول فيها أبطال الفيلم بعضهم على بعض، أو أن تحشر الناي في مؤخرتها الناعمة، أو أن تطعمني بلا مقدمات حلمة صدرها بينما تعطي

الأخرى للشاعر، وحين أنظر له مندهشا، يبتسم ابتسامته المحايدة، ويشير لي بأن أفعل، ثم تربت رأسينا كأم حنون، ترضع صغارها.

كانت تجلس عارية تلهو بأعضائها، بينما هي تعد أطروحتها للدكتوراه عن الموسيقى الشرقية والشعر، وكانت تطلب منا أن نفعل ذلك، أن نعرِّض أعضاءنا الداخلية لضوء النهار وتقول: إن هذا صحي جدا أن ترى النور. ويمازحها الشاعر ويقول بالعربية: هوَّ عشان إنتي جاية من مدينة النور عايزانا نقعد "بلابيص". فلما أضحك معه، تحاول أن تفهم ما قاله لي فيترجم لها الشاعر، فتغرق هي الأخرى في الضحك، ساعتها أكون مشغولا بكيفية ترجمة كلمة "بلابيص" إلى الفرنسية.

كانت متحمسة لفكرة العري الدائم، وقالت إنها شاركت ناشطات نسويات في أنحاء العالم المختلفة في الاحتجاج العاري. في بعض الدول كانت النساء يحتججن بكشف صدورهن فقط، وفي دول أخرى كان الاحتجاج بالملابس الداخلية، وفي دول قليلة كان الاحتجاج بالجسد عاريا تماما.

عند هذه النقطة يصر الشاعر أن يقرأ لنا أو بالأحرى لي، فالأجنبية لن تفهم دراسة بالعربية، كان قد كتبها عن الاحتجاج العاري، ونشرها في إحدى الدوريات الثقافية العربية، وذلك بعد انتشار فكرة الاحتجاج بالعري حتى وصلت إلى بعض العربيات والمصريات.

إلى فترة نهاية ثلاثينيات القرن الماضي لم تكن ظاهرة الكشف عن النهود في الشواطئ وفي المناسبات الخاصة معروفة ومنتشرة. كانت المجتمعات الغربية تفرض عادات متوارثة عن القرون السابقة، تجبر المرأة على ستر العورة، خصوصا منطقتي الصدر وأعلى الساقين وتمنعها من التشبه بالبغيّ، لكن بداية من النصف الثاني من الأربعينيات (تحديدا سنة 1946) ومع ظهور المايوه البكيني في فرنسا، والذي انتظر نحو العشرين سنة قبل أن ينتشر في أمريكا وأرجاء أوربا، بدأت النسوة يخرجن شيئا فشيئا من دائرة "الممنوع" ويشرعن في هدم الآراء المسبقة والإكليشيهات وأحكام القيمة، والظهور علنا بأثداء نصف عارية، وانتقلت موضة تعرية الصدور بسرعة إلى السينما، وصارت مع نهاية الخمسينيات كثير من نجمات الفن السابع في أوربا وأمريكا لا يخجلن من الظهور بنهود مكشوفة؛ مثل بريجيت باردو في "وخلق الربّ المرأة" (1956) أو إيزابيل إدجاني في "الصّيف القاتل" (1983).

في السّينما العربية يبقى ظهور جسد المرأة إجمالا محتشما، مع ذلك نشير إلى بعض الحالات الجريئة والقليلة، فبالإضافة إلى محاولات الفنانات يسرا وسمية الخشاب وسارة بسام في كسر المحظور. نجد العينة الأهم في الاجتراء على كشف النهدين في الفيلم الجزائري "فيفا لالجيري" (2004) للمخرج نذير مخناش، حيث لا تجد الممثلة المغربية لبنى أزابال حرجا في الكشف عن صدرها.

الكشف عن النهد يظهر في أوساط الموسيقى أكثر مما هو عليه في السينما في كثِير من كليبات الفيديو الصادرة خلال السنوات القليلة الماضية، لا تجد مغنيات شابات مانعا من التعبير عن أنفسهن وكشف جزء من أعلى أثدائهن أمثال؛ هيفاء وهبي ومريام فارس وروبي وغيرهن.

جاء في القرآن: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمّ الرَّضَاعَةَ...﴾ (البقرة: 233) النهد هبة للرجل وللرضيع في آن معا، لكن غالبا ما تتفادى النساء الإرضاع خوفا من فقدان بعض رشاقة البدن ونضارة وامتلاء النهدين، ففي الولايات المتحدة الأمريكية ثلاثة أرباع النساء لا يرضعن مواليدهن أكثر من ستة أشهر. في فرنسا لا تمتد عملية الإرضاع عند 50 % من النساء أكثر من ثلاثة أشهر. هذه النسب المنخفضة في الإرضاع صارت خلال السنوات الماضية تجد طريقا لها عند المرأة العربية، مما يدفع بكثير من الجمعيات والهيئات الصحية إلى المضاعفة من جهودها في التوعية وحثّ النساء على الإرضاع واتباع السنة النبوية وإتمام السنتين كاملتين. تهرّب المرأة من الإرضاع رغبة منها في الحفاظ على جاذبية النهد ليست سوى محاولة ظرفية للحفاظ على شباب سيُهدر مع مرور الوقت، ومع تضاعف إمكانات الإصابة بسرطان الثّدي، حيث تقرّ دراسة بريطانية حديثة: أن امرأة من كل ثماني نساء مهدّدة اليوم بالإصابة بسرطان الثدي.

رجل الدين الذي يحتج عاريا

من كان يدري أن جماعة دينية هي التي ستدشن عصر الاحتجاج بالجسد العاري. دوخبور، الطائفة الدينية المسيحية الروسية، التي انتفضت بشكل سلمي ضد الكنسية الأرثوذكسية وضد طقوسها، كانت تعتقد أن العالم يجب أن لا يحكم فقط من طرف الرجال، وأن الله حاضر في كل واحد من البشر إضافة إلى نبذهم للعنف، لذلك كان القمع الذي تعرضوا له في روسيا ثم هِجرتهم إلى كندا بداية القرن الماضي، ومنعهم من التصويت في الانتخابات الكندية إلا إذا أسهموا في الحرب، وقائع جعلتهم يفكرون في طرق معينة للاحتجاج، ليقرروا تنظيم مظاهرة كبيرة سنة 1914، عُرفت بمسيرة أبناء الحرية، احتج فيها مئات الدوخبوريين بالمشي عراة تماما.

ومع الثورة الطلابية سنوات الستينيات في أوربا وما رافقها من تحرر جنسي، بلغ أوجه مع الصراع القطبي الرأسمالي - الشيوعي، صارت الملابس تتقلص شيئا فشيئا إلى أن وصل الأمر بالكثير من الشباب آنذاك إلى التعري الكامل، ومنهم جون لينون، وهو واحد من مؤسسي فرقة بيتلز الذي تعرَّى بالكامل رفقة زوجته في شهر عسلهما، وذلك احتجاجا منه على حرب فيتنام، ليتحول الجسد العاري إلى أيقونة احتجاجية، خاصة مع ظهور الشواطئ العارية أي تلك التي يجتاحها المصطافون دون ملابس والموجودة بدول

كثيرة كفرنسا وإسبانيا والمكسيك وويلز، وكذلك مع انتشار صناعة البورنو، واستغلال الجسد في العمل الإشهاري.

ويؤكد الباحث في قضايا الجسد هشام العلوي، أن الجسد يمثل حقلا تتفاعل فيه السلطة والسلطة المضادة، معطيا المثال بفرنسا التي حاربت "البرقع" واللباس الأفغاني في المكان العام، لأنه لا يقدم صورة عن الجسد الذي يترجم قيم الجمهورية، وبالحركات الاحتجاجية خلال الثورة الفرنسية في نهاية القرن 18 التي أطلق عليها اسم "من دون سراويل" المجسدة لروح الثورة الرافضة للتقليد والمحافظة ونمط العيش الأرستقراطي.

الجسد العاري سلاح المنظمات غير الحكومية

من المنظمات العالمية المعروفة بإظهار الأجزاء الحساسة من أجساد أعضائها كخطوة احتجاجية، توجد منظمة بيتا للرفق بالحيوان المعروفة بشعار: "أفضِّل أن أكون عاريا علىّ أن أرتدي فَرْوا"، وكما هو واضح من الشعار فهي تنادي بالتخلي عن أكل اللحوم والاعتماد فقط على الطعام النباتي، إضافة لنبذها كل أنواع الرياضات التي يُستغل فيها الحيوان ومن بينها رياضة مصارعي الثيران التي تحتج عليها المنظمة سنويا، بإقامة "سباق العرايا" الذي يركض فيه المتعاطفون مع الثيران كما ولدتهم أمهاتهم في محاولة للضغط على الحكومة الإسبانية من أجل إيقاف هذه الرياضة القاتلة للثيران.

وقد يستغرب قارئ عندما يعرف أن منظمة "السلام الأخضر" التي تعتبر من أقوى المنظمات غير الحكومية في العالم في مجال المحافظة على البيئة، استخدمت هي الأخرى أكثر من مرة أسلوب الاحتجاج العاري، كما فعلت سنة 2009 عندما احتجت على ما تتسبب به الحكومة الفرنسية من تغيرات مناخية تؤثر على زيارة الكروم، بتنظيم وقفة شارك فيها نحو 700 شخص دون أية ملابس.

الاحتجاج بالجسد دخل معترك العمل السياسي، عندما قرر الحزب الكندي "من أجل عمل أقل" وهو الذي يطالب بتخفيض عدد ساعات العمل اليومية المساهمة في تنظيم سباق عالمي للعراة على الدراجات، بشراكة مع منظمة "فنانون ضد الحرب"، وذلك من أجل إيصال مطالبه وإظهار أن الجسد البشري له كذلك الحق في أن يستمتع بالحياة دون أن يؤثر عليه العمل، حيث يحظى هذا السباق بمتابعة إعلامية منقطعة النظير، جعلته ينتقل إلى عدة مناطق من العالم ليصل حاليا إلى قرابة 72 مدينة من 17 دولة.

وإذا كانت هذه التنظيمات السياسية والمدنية استخدمت الجسد العاري وسيلة من أجل إيصال مطالبها، فهناك تنظيمات احتجت بالجسد ليكون وسيلة وغاية في آن واحد، أي أن الهدف هو حرية التعري في الأماكن العامة كالمنظمة البريطانية "حريتك أن تكون أنت" والتي أسسها فانسن بيثيل سنة 1998، فهذا الرجل الذي يعتبر أول شخص في العالم يَمْثل عاريا تماما في قاعة محكمة سنة 2001،

استطاع أن يخرج بريئا من تهمة الإخلال بالحياء العام بعدما قضى قرابة خمسة أشهر في الاعتقال الاحتياطي، أشهر جعلت السجن البريطاني آنذاك يستقبل العديد من "المجرمين" الجدد الذين يقترفون أي شيء من أجل تقاسم أسوار السجن مع المؤسس العاري.

وبشكل شبيه من منظمة فانسن توجد "توب فريدوم" الأمريكية التي تنادي بتمكين النساء من المشي دون حمَّالات صدر في الأماكن العامة، وبأن يُرضعن صغارهن بكل حرية في الشارع، إضافة إلى ضمان حق المرأة في الاستحمام عارية الصدر، حيث تبقى هذه الأهداف في نظر المنظمة الأمريكية تمظهرات من أجل الوصول إلى الهدف الأكبر: وهو المساواة التامة بين المرأة والرجل.

"فيمين" نساء غاضبات بأثداء عارية

لطالما عُرفت أوكرانيا ودول أوربا الشرقية عموما بكونها واحدة من قبلات السياحة الجنسية في العالم، بالنظر إلى أن الكثير من بائعات الهوى عبر العالم يحملن جنسيات هذه الدول، لذلك وعندما خرجت حركة نسائية أوكرانية بناشطات عاريات الصدر، يحتججن ضد السياحة الجنسية والديكتاتورية والزواج الأبيض - الذي يريد منه طرف ما الحصول على جنسية البلد فقط - والتشدد الديني والتدخل الروسي في الشئون الأوكرانية، فقد كان حدثا كبيرا خاصة وأنه لم يكن معزولا، لأن تلك الطالبات اللواتي خرجن من إحدى الجامعات

الأوكرانية ذات يوم من 2008 أردن من تجمّعهن أن يكون نسائيا يقلب الكثير من المعطيات في بلد خرج للتو من معسكر الاتحاد السوفيتي.

تقول مؤسستها آنا هوتسول: إن "فيمين" ابتدعت طريقة جديدة للاحتجاج؛ قائمة على الشجاعة والسخرية والنجاعة وصدم المتلقي الذي لن يهتم - حسب رأيها - باحتجاج الحركة إلا بالشكل الذي هي عليه حاليا، وهو الخروج بصدر عار تماما.

كلام هوتسول فيما يتعلق بصدم المتلقي، كان حقيقيا، فخلافا للتنظيمات الأخرى التي ذكرناها سابقا، استطاعت فيمين أن تصل لشهرة منقطعة النظير، وخلال أربع سنوات تمكنت من فتح فروع لها في كل من البرازيل وفرنسا وألمانيا وأمريكا وسويسرا وإسرائيل، بل وحتى تونس. وتتحدث هوتسول عن أن فيمين وصلت لأكثر من 150 ألف عضوة عبر العالم، وأن أعداد ناشطاتها في تزايد مستمر، من بينهن من قررت التعري بالكامل لإيصال المطالب ذاتها، وهي المطالب التي تحولت إلى نوع من التطرف، وتحوّل العديد من الناشطات من الاحتجاج على التشدد الديني إلى المطالبة بمحاربة الأديان، التي حسب رأيهن تمثل مصدرا رئيسيا للحط من قيمة المرأة.

هل استطاعت فيمين حشد الدعم؟

يبدو أن الحركة الفيمينية لم تصل حتى إلى شحذ همم الكثير من الكاتبات النسائيات اللواتي رأين في طريقة احتجاجها تجاوزا خطيرا لخصوصية المرأة، فالكاتبة اللبنانية المعروفة جمانة حداد، والتي تعتبر من رائدات الحركة الحقوقية النسائية في الوطن العربي، كتبت في جريدة النهار اللبنانية: "إن استخدام "فيمين" لعري المرأة بغية لفت الأنظار إلى قضاياها وحقوقها المنتهكة يربكني في أقل تقدير، أولا لأنه تطرُّف من شأنه أن يغذي التطرف المضاد ويقوّيه ويدعم أسباب وجوده، وثانيا لأن "الفاعلة" المرجوّة فيه ومنه أي المرأة ما هي إلا فاعلة موهومة تتحول رغما عنها إلى محض أداة لجذب الانتباه (هل الغاية حقا تبرر الوسيلة؟)؛ ما يعيدنا إلى نقطة الصفر.

الناشطة داخل حركة مالي ابتسام لشكر، أوضحت هي الأخرى لجريدة كود الإلكترونية، أنها ليست مع ولا ضد فيمين، لكنها تؤيد حق أي فتاة في الاحتجاج بتلك الطريقة، متحدثة عن أن هذه الحركة "تعزز من ثقة المرأة بنفسها وبكونها المالكة الوحيدة لجسدها، وبالتالي حقها في فعل ما تريد به بما في ذلك تعريته".

الناشطة الفيسبوكية حليمة الخذيم، التي طالما دافعت عن حقوق المرأة كتبت تقول: "مناضلاتنا بحاجة إلى فكر يستند على الواقع، لا بحاجة إلى فكر يقرأ الواقع من خلال فكر آخر أو واقع آخر، فكر

قطع أشواطا كثيرة من أجل الوصول إلى ما هو عليه الآن، لأن تعري الجسد لأي هدف حتى وإن كان بغية الاحتجاج والاعتراض، يظل بالنسبة للعقل العربي التقليدي دعوة للممارسة الجنسية".

هشام العلوي يعود ليؤكد أن عري الجسد سواء بالنسبة للمرأة أو الرجل لا يطرح في الغالب أية مشكلة، إلا حينما يغادر الفضاءات الحميمية والمغلقة، ويقتحم المجال العام الذي هو مجال حصري للدولة والقانون و"الحس السليم" وغيرها من المؤسسات التي تتقاسم تدبيره، مضيفا أن الجسد العاري عندما يخترق المكان العمومي لا يصبح موضوعا جماليا أو سندا للاستيهام الجنسي بقدر ما يغدو وسيلة لإحداث "الصدمة" وخلخلة البدهيات المزيفة، لذلك يبدو أن استخدام مناطق حساسة من الجسد من أجل الاحتجاج يثير فعلا الانتباه إلى مطالب الفئة التي تستخدمها، ويجعل النقاش حاميا حول حدود الجرأة داخل المجتمعات المنفتحة والمحافظة في نفس الوقت، إلا أن المشكل الذي يطفو على السطح هو؛ أن هذه الحركات لا تجذب الأنظار بشكل كبير إلى مطالبها، لكن إلى الوسيلة المُستخدمة أي إلى الجسد، وبالتالي فهذا الأخير يتحول هنا إلى بضاعة من أجل الوصول إلى غايات يبدو أن الوصول إليها لا يزال بعيدًا وبعيد جدًا، مما يجعل من حركة فيمين وباقي الحركات العارية، تسقط في فخ استغلال جسد المرأة، تماما كما هو الأمر

بالنسبة للصناعات الإشهارية التي ترى في الجسد الأنثوي العاري وسيلة جذب للزبائن.

وإضافة إلى هذا، كسر حميمية الجسد كان على الدوام يتم في فضاءات خاصة، تماما كما هو الأمر في الأفلام السينمائية أو اللوحات الفنية، وهو ما جعل الكثير من الناس يتسامحون مع العري الحاضر في الفن باعتباره مجالا خاصا جدا، إلا أن كسر هذه الحميمية في الفضاءات العامة، والتعري الفاضح أمام أنظار كاميرات العالم الإخبارية، وما يَتبع ذلك من تهجم على الأديان ومعتقدات الآخرين، قد يخلق نقاشا آخر متعلقا بأية حدود لحرية الأفراد في الفضاءات المشتركة، وهل من حق أي إنسان الاحتجاج والمطالبة بحقوق معينة، عن طريق انتهاك حقوق أخرى أقلها احترام الآخر وعدم إهانة ما تربى عليه من قيم؟

بينما كان الشاعر مشغولا بقراءة مقاله عن الاحتجاج العاري، كنت مشغولا بالتدقيق في وجه الأجنبية الشقراء، حين أنظر إليها وإلى رقة ملامحها وهي تقول وتفعل كل الأشياء الجريئة، أستغرب هذه القطة التي لو رأيتها دون سابق معرفة لتخيلت أنها ربما تحمرُّ خجلا، إذا سألها أحدهم: الساعة كام؟

لكنني استوعبت ما تفعله، حين تذكرت كل أفلام البورنو السوية التي كنت أراها في مراهقتي مع شلة أصدقاء المدرسة في بيت

أحدهم، بينما ننتظر المدرس الخصوصي الذي عادة ما يتأخر عن ميعاد حصته ساعة تقريبا، تسمح لنا بمشاهدة مقاطع لفتيات رقيقات، تشعر أنه إذا لمسها أحدهم فسوف تبكي وتنكسر من فرط رقتها. كان خيالنا يُداس بالحذاء حين نرى تلك القطط الشقراوات، وقد حملن حملا يفوق تصورنا من الرجال الأشداء، ويتحولن إلى كائنات خرافية في الفراش، تجعل الأكثر ذكورة في شلتنا يحاول أن يعتلي الأضعف في دورة هياج لا مثيل لها.

انفجار اللذة في مكامن عروقنا كان لا يجعل أحدنا يخجل، وهو يخرج عضوه على الملأ، وكانت المشكلة الوحيدة لزميلنا في الدرس صاحب البيت، أن تصيب طرطشة اللذة سجادة الغرفة، وبعد تدارك المشكلة اعتاد كلٌ مُخرجٍ لعضوه أن يحضر معه كيسا من البلاستيك يقضي فيه شهوته، فنكن له الإجلال والتقدير لاحترامه رغبة ابن صاحب البيت.

لذلك ليس غريبا على الأجنبية البلوند الشقراء أن تكون مثل بنات شقرتها، لا يشي مظهرها بمخبرها، ولمَ لا؟! وهل لك أن تتخيل أمك الست الفاضلة، التي تكن لها كامل الاحترام والتقدير، وهي تنفخ وتفح كأفعى تحت أبيك وفوقه أحيانا، رغبة في المزيد من اللذة والأطفال.

(23)

ربة المنزل المهذَّبة I

"هزِّيها يا صفيحة الجاز
هزِّيها يا طويلة من غير بزاز"

فولكلور شعبي

حين سألت أبي موظف شركة إسمنت طرة، وأنا أملأ إحدى استمارات الاستبيان لمدرستي الابتدائية المشتركة، ماذا أكتب في خانة وظيفة الأم؟ أجاب دون أن ينظر إليَّ: ربة منزل. بينما يبلل بطرف لسانه سيجارته اللف، وكان هذا أحد حلول الطبيب العبقرية! لمحاولة إثناء أبي عن التدخين، أو تعطيل العملية بعض الشيء حتى يهدِّئ صدره، الذي كان يشبه وابور الطحين، كما كان يصفه دائما.

كان الطبيب يرى أن مهمة إقلاع أبي عن التدخين تعتبر مهمة مستحيلة، لذلك اقترح فكرة تعطيل العملية قليلا، فبدلا من تدخين سجائر جاهزة، طلب منه أن يدخن سجائر "لف"، لأنها تستغرق وقتا في إعدادها، وربما تجعله يكسل عن التدخين.

لكن الحقيقة أن أبي أصبح يستمتع بلف السيجارة بشكل كبير، لدرجة أنها كانت أحلى لحظات لنا نحن الأبناء لنطلب منه شيئا، بينما هو يلف سيجارته. حتى ربة المنزل - أمي - أدركت ذلك، وكانت لا تحلو لها الطلبات إلا وهو يلف سيجارته، ويخرج طرف لسانه حتى يبلها.

حين أستعيد تلك المشاهد الآن، أرى كيف كان مغويا أثناء ممارسته لذلك الطقس لدرجة تجعلني أغفر لربة المنزل - أمي - غيابها داخل غرفة مغلقة مع هذا الرجل - أبي - الذي يذكرني بإعلانات السجائر القديمة. كنت أتخيل أبي في هذه اللحظة كاوبوي يعتمر قبعته، بينما يقود أمي مثل البقرة إلى غرفة نومه، مثل صور إعلانات السجائر التي كنت أراها على ظهر غلاف مجلات السينما والفن القديمة التي كان يقتنيها خالي، منها صورة عام 1952 للفنانة الراحلة هدى سلطان، وكانت للدعاية عن سجائر كوتاريللى، وموجودة على الإعلان في الأسفل صورة هدى سلطان كوكب فيلم الأسطى حسن، وتلك دلالة على أن الإعلان كان بعد نجاح فيلم الأسطى حسن، وتظهر في الصورة الفنانة هدى سلطان، تمسك بيدها سيجارة، وأسفل الصورة إلى اليمين يوجد شكل علبة السجائر الكوتاريللي.

أمي حين طلب أبي يدها للزواج، كانت تلعب شرق الجسر في بلدتها بالصعيد. خرجت أمها لتناديها، لكن أمي رفضت أن تغادر رفقاء اللعب، وحين ألحت جدَّتي في الطلب، رضخت أمي غاضبة، وحاولت جدَّتي ترضيتها فوعدتها بأنها ستشتري لها حلاوة شعر، التي كانت تعشقها أمي، إذا ما طست وجهها العرقان من أثر اللعب والجري وقابلت العريس الذي يجلس مع جدِّي في المندرة. لكن أمي التي كانت قد فاجأتها نقط الدم الصغيرة منذ أيام قلائل، وهي تلعب أيضا، ولما عادت لجدَّتي فزعة طمأنتها جدَّتي ضاحكة ومستبشرة:

ينيلك دي الإكس، وعرفت أن عليها أن تتوقف عن اللعب مع الصبيان من الآن فصاعدا، فضَّلت واختارت اللعب على العريس والحلاوة الشعر، لكن حين ذكرت جدتي اسم أبي العايق كزوج محتمل، يجلس في المندرة، يشرب دور الشاي الثاني الخفيف، وافقت أمي على طس وجهها بالماء، ومقابلة العريس العايق، الذي كان يفرق شعره المسبسب على جنب، ويرمي على كتفه شالا أبيض. ناصع البياض. دخلت أمي وسلمت، وحين ضحك لها العريس ضحكة سكر، أظهرت شاربه المحفوف بعناية فائقة، وافقت. ثم عادت للشارع لتكمل اللعب مع أقرانها من العيال. البنات الرفيقات حين عرفن بالخبر، انعزلن بأمي عن الصبية الذين كانوا يلعبون معهم، وغنين لأمي التي كانت طويلة ونحيفة آنذاك قبل أن تكبر وتخلف وترمي لحما: هزيها يا صفيحة الجاز.. هزيها يا طويلة من غير بزاز.

أعرف أن صدمتي في أمي - ربة المنزل المهذبة - التي لا تطلع منها العيبة، كما كان يمتدحها جدي - أبوها - كانت صدمة كبيرة، إذ كيف أجد هذه الأم الحنون الرؤوم ذات ليلة، حين استبد بي العطش، وأقض مضجعي، فقمت على الفور لأشرب، فإذا بي أجد أمي فوق حجر أبي، تفوح منها رائحة صابون عطرية وشعرها مفرود، وبينما هي تصعد وتهبط على حجر أبي في الصالة، يدور على شاشة التليفزيون حوارٌ رومانسي من فيلم "حبيبي دائما" حين كانت بوسي أو فريدة تلبس نور الشريف أو إبراهيم خاتم جدها، وتطلب منه

ألا يخلعه من إصبعه أبدا، بينما إبراهيم يتأمل الخاتم فرحا، ويؤكد أنه يشبه الدبلة تماما، فتعلن فريدة خطوبتها لإبراهيم، فيتعجب من فعلها فتخبره، وهي تنظر في عينيه: اللي يحب التاني أكتر يعمل الخطوة الأولى. وكأن أمي تقلد بوسي فبادرت بالخطوة الأولى، وقفزت على حجر أبي، فيرد أبي مقلدا نور الشريف وكأن اللعبة أعجبته: إنتي عارفة إني بحبك أكتر.

كانت عينا أبي وأمي تلمعان ببريق غريب متشابه، حتى خلت بسذاجتي الطفولية أنهما وضعا لبعضهما بعضًا نفس نوع القطرة في أعينهما، وقفت متسمرا مكاني لا أدري ماذا أفعل؟ وحين لاحظت أمي وجودي توقفت عن الصعود والهبوط على حجر أبي، الذي شخط فيَّ شخطة زلزلتني: اجرِ على أوضتك.

بالفعل جريت إلى غرفتي، ودخلت في فراشي مرتعبا، وأنا أزق أخي لكي يوسِّع لي مكانا، بعد أن استغل ذهابي للشرب، واحتل السرير كله بحاسته اللافتة للنظر أن مكاني في السرير أصبح فارغا، رغم أنه كان يغط في نوم عميق.

بعدها يغيب صوت فيلم "حبيبي دائما" الذي ظللت أكرهه لسنوات، حتى فهمت أن كل الأمهات الطيبات يفعلن مثل أمي ربة المنزل، فسامحتها، والله سامحتها، وأحببت الفيلم من جديد. أتقلب في فراشي والعطش والموقف الذي رأيته وشخطة أبي نشَّفت ريقي أكثر، بعدها

أشعر بخطوات أمي وهي تتسحَّب على طراطيف أصابعها، ثم تقترب مني وتمس بيدها شعري، وتفاجأ أمي بعيوني المفتوحة على آخرهما فأشعر بخضتها، وتسألني: إنت صاحي. فأهز رأسي وأقول: عطشان. فتذهب وتعود بالماء، وتسقيني، متجاهلة تماما الكلام عما رأيته بعيني منذ قليل.

بعدها تظل أمي تحرص على وضع زجاجة مياه في غرفتنا أنا وأخي، حتى ثقلت على أبي آلام الصدر، ساعتها توقفت أمي عن إرسال زجاجات المياه المثلجة لغرفتنا، وحدث ارتباط شرطي داخلي في طفولتي بين الوقت الذي تجيء فيه أمي، تضع زجاجة المياه، وتزم باب غرفتنا خلفها وبين المشهد الذي رأيته، أتقلقل وأقلق ساعتها، ومع ذلك أتظاهر بالنوم، وأقوم من سريري متسحِّبا بعد خروج أمي، ومن فرجة صغيرة بالباب أرى أبي وهو يجلس أمي على حجره، وعلى شاشة التليفزيون يدور فيلم ما. حتى أتى يوم وجدت فيه أمي ربة المنزل المهذبة، وهي تقوم من على حجر أبي لترقص وتنفعل مع رقصة لسامية جمال في فيلم (سكر هانم) وكنت أحب هذا الفيلم جدا، لأن عبد المنعم إبراهيم كان يُضحكني من قلبي، وهو يمثل دور امرأة، وهي فتافيت السكر، فوقفت لأتفرج بينما أمي تدور حول أبي مثل فراشة تطوف حول النور وهالة الضوء.

(24)

غريب الأطوار

"لستُ بولاّجٍ على جارتي
لكن على ابنِ الجار ولاّجُ
لستُ على غير غلام أرى
أيري إذا هيّجت يهتاجُ
لا يبعج الصدع ولكنه
لفقحة الأمرد يعتاج"

أبو نواس

كان التمثيل في عصر شكسبير مقصورا على الرجال، حيث لم يكن مسموحا للنساء باعتلاء المسارح، وبالتالي كان الغلمان يقومون بتمثيل الشخصيات النسائية وارتداء الأزياء النسائية، وتغيير الصوت حتى يكون مقنعا.

لم يكن التمثيل يحظى بكثير من التقدير في تلك الفترة، فلا يزال الممثلون وقتها يقارنون بالمهرجين وغيرهم من لاعبي السيرك.

في الحقيقة لم يكن الممثل الراحل عبد المنعم إبراهيم هو الرجل الوحيد الذي رأيته يرتدي ملابس نسائية في طفولتي. صاحب الفرن البلدي الذي كنا نشتري العيش منه، كان رجلا صعيديا يضع عمامة كبيرة فوق رأسه منحته هيبة في نظري، وكونه صاحب الفرن البلدي الذي نقف أمامه طابورا طويلا للحصول على عشرين رغيفا بعشرين قرشا أيضا منحه مكانة في قلوب الناس، ومحاولة للتزلف منه حتى يستثنيهم ويرحمهم من زحمة الطابور.

في هذه المرحلة حصل تقارب بيني وبين ابنه الذي يماثلني في

السن تقريبا، ودفعت أمي في اتجاه تلك الصداقة الوليدة الناشئة، بقلب أم رحيم بابنها، تريد أن تنقذه من وقفة الطابور الممتد، واستجبت أنا كابن بار بأمه، فوجدتني أذاكر في بيت ابن صاحب الفرن، ولحالة أبيه المالية المتيسرة كرأسمالي قح، يتاجر فيما هو أخطر من المخدرات وأهم من السلاح. يتاجر في قوت الناس الغلابة، الخبز. الخبز المدعم، وعملا بالحكمة القائلة: من لا يملك قوته لا يملك حريته. كنت حريصا على الحصول بشكل غير شرعي على العشرين رغيفا يوميا، وذلك عن طريق التقارب الهائل بيني وبين ابن صاحب المخبز البلدي، ولم يكن الخبز فقط هو ما أحصل عليه نتيجة هذا التقارب المتصاعد، لكن أيضا مراجعة دروسي بشكل أفضل من خلال الكتب الخارجية التي كان يجلبها صاحب الفرن لابنه من سلاح التلميذ طبعة 1988، والأضواء وخلافه، لم نكن تعرفنا بعد على كتب المعاصر وكراسة الأول، لأن هذه الكتب الخارجية ستظهر لاحقا في المرحلة الإعدادية.

كان سلاح التلميذ طبعة 88 مليئا بنماذج الامتحانات التي لم تكن موجودة في كتب الوزارة، وكان ذلك يوفر على أبي إعداد نماذج امتحانات من رأسه، يظل يدبّرها طوال الليل لي، بينما أسمع أزيز صدره وهو يخرفش، ثم لا يستطيع كتم كحة مفاجئة، فيحمرّ وجهه بها ثم لا يطيقها صدره، فتخرج في شكل بصقات من الدم، يصيب رذاذها إحدى كراساتي، فيعتذر بشدة ويقول إنه سيشتري لي واحدة

جديدة. هل كل تلك الأسباب جعلتني أستسيغ الذهاب إلى بيت ابن صاحب المخبز؟ وحتى لا أضطر لسرقة خبز أحدهم مجددا، إذ إنه ذات مرة سُرق العيش الذي اشتريته من الفرن أثناء تهويته، وتهوية العيش طقس معروف لكل من وقف في طابور الخبز، ولم يكن يملك قفصا، فيضطر إلى تهوية العيش الساخن المنتفخ على الأرض، أو على كبوت سيارة تصادف أن تكون راكنة بجوار الفرن، حتى لا يتعجن الخبز داخل الكيس البلاستيك.

استغل أحدهم انشغالي بمباراة كرة شراب بين مجموعة من الأولاد، ولمتابعة المباراة حامية الوطيس، كان لزاما عليَّ أن أولي ظهري للخبز المفرود على ورق جورنال الأهرام عدد الجمعة، ولما طاشت الكرة خارج حدود الملعب، الذي تم ترسيم حدوده بقالبيْ طوب أحمر لكل عارضة، صرخ أحد الأولاد حين كانت الكرة باتجاهي: شوط الكورة دي يا كابتن.

ولأن الكرة تجاوزتني التفت للخلف، وركضت محاولا اللحاق بها، وإذا بي أكتشف غياب العيش، وبقاء جورنال الأهرام على الأرض، والردة المتناثرة من خبزي الغائب تنتشر في أرجاء صفحة الإعلانات المبوبة، التي ظللنا نقرأها المبوبة لسنوات طويلة دون أن نفهم لماذا هي مبوبة؟ فأكتم الدموع التي كادت تنحدر من عيني وأقرر الانتقام على طريقتي: وهو أن أسرق خبز أحدهم، وأختار خبز أحد لاعبي

المباراة المنهمكين في الجري وراء الكرة، في لحظات كنت أجري بالخبز الذي سرقته خارج حدود الملعب خائفا أترقب.

ذات مرة ونحن نحل نموذج امتحان عربي تابعًا لإدارة قليوب التعليمية، كما ذكر ذلك كتاب سلاح التلميذ، يجيء صاحب المخبز ويسألنا بحنية: عاملين إيه يا ولاد. فنرد أنا وابنه: كويسين. فيقول مبتسما: شدوا حيلكو.

ثم يأمر ابنه أن يروح لبيت صاحب مطعم فول وطعمية: قل له أبويا بيقولك هات فلوس العيش بتاعة الأسبوع. وحين يحتج ابنه على بُعد المسافة، ينفحه الأب الحنون ربع جنيه، يتهلل وجه الابن، ويهم باصطحابي معه، لكن الوالد الحنون يزغر لابنه ويقول: مايصحش ده ضيفي، وبعدين خليه يذاكر.

يخرج الابن سعيدا بالربع جنيه، وأبقى أنا وحيدا مع صاحب المخبز، حيث كانت زوجته تسافر كثيرا إلى البلدة المنحدرة منها، سأفهم حين أكبر لماذا كانت الزوجة تسافر كثيرا، ولماذا يمتلئ البيت أحيانا بالمنحرفين وشمامي الكلة.

يبدأ صاحب المخبز البلدي في التقرب إليَّ، ويربت عليَّ ويقول وهو يبتسم ابتسامة مخيفة: ياه ده أنت سخن أوي زي العيش وهوَّ لسه طالع م الفرن. فأتعلل بأن الحرارة المرتفعة هي سبب سخونتي فيتلمس بقية جسدي على مهل قائلا: ده أنت كلك سخن. ويطلب مني

أن أقف لكي يقارن بين طولي وطول ابنه: عايز أعرف مين أطول. وحين أقف يهز رأسه: ممم أنت أطول فعلا.

ثم يدس يده عبر أستك بنطلون الترييننج الأصفر الذي ارتديه، ويمسك حمامتي، فأجفل وأكاد أهرب، لكنه يثنيني عن تلك الفكرة معللا ذلك بأنه يريد أن يعرف إن كانت حمامتي أطول أيضا أم حمامة ابنه، ويظل يداعب حمامتي، ويعلل ذلك قائلا: عشان تقف ونقيسها. وينتصب ذكري الصغير قليلا، فيقول بعين لامعة مخيفة: اللـه.. بتاعك حلو أووووي. وقبل أن يهم بخطوة أخرى يقتحم ابنه البيت فيترك الأب مسرعا حمامتي ويقول شاخطا في ابنه: إنت لحقت؟

فيخبره الابن أنه قابل صاحب المطعم في الطريق وأخبره قائلا: قول لأبوك الفلوس بكره. ثم يجري الولد مزنوقا على الحمام، فيستغل أبوه صاحب المخبز البلدي الفرصة ويطلب مني بحنو ألا أخبر ابنه بما حصل حتى لا يزعل، لأن حمامتي أكبر من حمامته، ولا أذكر أني خالفت هذا الاتفاق إلا حين كنا نلعب لعبة التشبير، وهي أن يستخدم أحدنا كفه مفرودة بما يعرف بمقدار الشبر من عند رأسه، ويبدأ يعد بها نزولا إلى باقي جسمه وهو يقول: الفنانة القديرة فاتن حمامة. فإذا توافق في الشبر الرابع ومست يد الولد منا حمامته مع كلمة حمامة في اسم فاتن حمامة، يعتبر فائزا، ساعتها دون أن أدري ورغما عني وجدتني أهمس في أذن ابن صاحب الفرن البلدي: إنت أصلا بتاعك صغير.

بعدها لا يستحي صاحب المخبز أن يلبس ملابسَ حريمي أمامي، ويلطخ وجهه بالمساحيق وهو يجالس شلة المنحرفين وشمامي الكلة، وحين أسأل ابنه عن ذلك، ونحن نذاكر في كتاب الدراسات الاجتماعية، يرد حزينا أصل أبويا بيحب التمثيل، فأتذكر عبد المنعم إبراهيم في فتافيت السكر وفي فيلم إشاعة حب وهو يقلد هند رستم ويقول يا سونة.. يا خاين.

بعدها يمنعني أبي من الذهاب إلى بيت الفران، ربما شعر أن صاحب المخبز شخص غريب الأطوار، كما كانت تؤكد على ذلك معامل ترجمة أنيس عبيد في أفلام القناة الثانية، وحين كنت أسأل أبي: يعني إيه رجل غريب الأطوار؟ يرد بإجابة مقتضبة، لا تمنحني الثقة في طرح مزيد من الاستفسارات: يعني راجل مش تمام. لم تشفع لي إجابة أبي ولا ترجمة معامل أنيس عبيد، التي كنت لا أفهم وجه الشبه بينها وبين المعامل التي عملت فيها أكثر من مرة تحاليل بول وبراز بسبب الديدان التي كانت تخرج من شرجي عند قضاء الحاجة، في فهم المعنى كما شرحه لي صاحب المخبز بتصرفاته، فأعود للوقوف في طابور العيش الطويل في عز الحر. أتذكر تلك الحكاية دائما حين يردد صديقي شاعر قصيدة النثر بيت شعر ويقول إنه لشاعر اسمه فؤاد قاعود:

فيه ناس بتعرق ع الرغيف   وناس بتعرق م التنس

(25)

شاعر قصيدة النثر III

"إذا أردت أن تكون تافها، فما عليك إلا أن تدير ظهرك لهموم الآخرين"

كارل ماركس

دائما ما كان صديقي الشاعر يردد أبياتا من شعره وشعر غيره، يؤكد فيها على إيمانه بالعدالة الاجتماعية. يلقيها على مسامعي متعمدا لأنه يعرف أني سأحفظها عن ظهر قلب، ويقول إن الشعراء لديهم رسالة مثل الأنبياء، رغم أنه يرى الأنبياء مصلحين اجتماعيين لا أكثر من ذلك، وفي لحظات الشطط والسكر، يقول: أنا النبيُّ لا كذب، أنا يا ولاد الوسخة. ثم ينظر إليَّ نظرة رصينة لا تليق مع سكره قائلا: وأنت صاحب النبي. ويقول إن الأنبياء كلهم كانوا اشتراكيين، ورغم أنه كان لا يحب شعر شوقي، لأنه يكره الشعر العمودي كان يردد على مسامعي بيت أحمد شوقي من قصيدة "ولد الهدى" التي يمدح فيها النبي محمدًا قائلا:

الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء

ويقول لي إنه لا يحب من شعر شوقي سوى نهج البردة التي عارض فيها شوقي قصيدة البوصيري. يردد الشاعر على مسامعي أبياتا من نهج البردة، لأنه يريدني أن أحفظها:

رِيـمٌ عَـلـى الـقـاعِ بَـيـنَ الـبـانِ وَالـعَـلَـمِ
أَحَـلَّ سَـفـكَ دَمـي فـي الأَشـهُـرِ الـحُـرُمِ

رَمـى الـقَـضـاءُ بِـعَـيـنَـي جُـؤذَرٍ أَسَـداً
يـا سـاكِـنَ الـقـاعِ أَدرِك سـاكِـنَ الأَجَـمِ

لَـمّـا رَنـا حَـدَّثَـتـنـي الـنَـفـسُ قـائِـلَـةً
يـا وَيـحَ جَـنـبِـكَ بِـالـسَـهـمِ الـمُـصـيـبِ رُمـي

جَـحَـدتُـهـا وَكَـتَـمـتُ الـسَـهـمَ فـي كَـبِـدي
جرحُ الأَحِـبَّـةِ عِـنـدي غَـيـرُ ذي أَلَـمِ

رُزِقـتَ أَسـمَـحَ مـا فـي الـنـاسِ مِـن خُـلُـقٍ
إِذا رُزِقـتَ اِلـتِـمـاسَ الـعُـذرِ فـي الـشِـيَـمِ

يـا لائِـمـي فـي هَـواهُ وَالـهَـوى قَـدَرٌ
لَـو شَـفَّـكَ الـوَجـدُ لَـم تَـعـذِل وَلَـم تَـلُـمِ

ثم يقول: غير ذلك لا تأخذ من أحمد شوقي شعرا، خد "تعريص" بس. لأنه كان شاعر السلطة، حيث غمر الخديو عباس حلمي بمدائحه والدفاع عنه، وهجاء أعدائه، ولم يترك مناسبة إلا قدَّم فيها مدحه وتهنئته له، منذ أن جلس على عرش مصر حتى خُلع من الحكم، ويمتلئ ديوان الشوقيات بقصائد كثيرة من هذا الغرض. ووقف شوقي مع الخديو عباس حلمي في صراعه مع الإنجليز ومع من يوالونهم، لا نقمة على المحتلين فحسب، بل رعاية ودفاعًا عن وليّ نعمته كذلك، فهاجم رياض باشا رئيس النُظّار حين ألقى خطابًا أثنى فيه على الإنجليز وأشاد

بفضلهم على مصر، وقد هجاه شوقي بقصيدة عنيفة جاء فيها:

غمـرت القـوم إطـراءً وحمـدًا ... وهـم غمـروك بالنعم الجسـام
خطبت فكنـت خطبًا لا خطيبًا ... أضيـف إلـى مصائبنـا العظام
لهجت بـالاحـتـلال ومـا أتـاه ... وجرحـك منه لو أحسسـت دام

وبلغ من تشيُّعه للقصر وارتباطه بالخديو أنه ذمَّ أحمد عرابي وهجاه بقصيدة موجعة، ولم يرثِ صديقه مصطفى كامل إلا بعد فترة، وكانت قد انقطعت علاقته بالخديو بعد أن رفع الأخير يده عن مساندة الحركة الوطنية بعد سياسة الوفاق بين الإنجليز والقصر الملكي؛ ولذلك تأخر رثاء شوقي بعد أن استوثق من عدم إغضاب الخديو.

وارتبط شوقي بدولة الخلافة العثمانية ارتباطًا وثيقًا، وكانت مصر تابعة لها، فأكثر من مدح سلطانها عبد الحميد الثاني؛ داعيًا المسلمين إلى الالتفات حولها؛ لأنها الرابطة التي تربطهم وتشد من أزرهم، فيقول:

أمـا الخلافة فهي حائـط بيتكم ... حتـى يبـين الحشـر عـن أهوالِهِ
لا تسـمعوا للمرجفين وجهلهم ... فمصيبـة الإسـلام مـن جُهالِهِ

وحين أرى أن كلامه عن شوقي يذكرني بالكتاب المدرسي، الذي

درسته في الثانوية عن أحمد شوقي، ينتقل بدفة الحديث الاشتراكي من الشعر للاستهلاك، حيث يرى أن الكولا والبيبسي وكنتاكي وماكدونالد من رموز الرأسمالية المتوحشة، التي طالت أظفارها رقاب العالم حتى نهشت كل ذي ثقافة محلية، وأفرزت مجتمعا باهتا يشبه بعضه بعضًا دون خصوصية.

كنت أرى رطانة شاعر قصيدة النثر، تشبه إلى حد كبير - يفقده الخصوصية - رطانة أصدقائه الذين يجالسهم على مقاهي وسط البلد، حتى ملابسهم متشابهة إلى حد بعيد، وكوفياتهم وحطتهم الفلسطينية المتطابقة، ومشروباتهم الروحية المغشوشة، والصور التي تعلق على جدران بيوتهم لجيفارا وكارل ماركس، وعلى جدران صفحاتهم على فيس بوك، والبريهات والكابات، ورائحة حلوقهم، كلها تبدو متشابهة إلى حد بعيد، كنت أشم رائحة آباطهم النتنة حين يستبد بهم السكر، ويرفعون أيديهم إلى السماء بينما يدعو صديقي الشاعر قائلا: اللهم اجعلنا من أهل اليسار. فيرددون خلفه: آمين. فأدرك رائحة حلوقهم المنفِّرة المتشابهة. وأتذكر رائحة فم أبي حين كان يداعبني ويقبِّلني في نهار رمضان، وحين أنفر من رائحة فمه يقول: والله لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، فلا أفهم ما يقول وحين يشرح لي معنى الكلام، أرد بجملة واحدة: بس أنا مش ربنا. فيضحك أبي ويخبطني على ظهري مداعبا: يااا ابن الكلب.

وأستغرب لماذا الناس في بلادي لا يستحمُّون، ودائما هناك روائح

عطنة تزكم أنفي في المواصلات العامة، وفي كل الأماكن الضيقة رغم أن بلادي بها نهر كبير، وتطل على بحرين ولا يعوز أهلها الماء لكي يستحموا، لكن الواضح أن مبدأ العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات الذي يطالب به صديقي الشاعر، لم يطل إلا توزيع الروائح الكريهة والنتنة على الناس والأماكن في وطني.

كان شاعر قصيدة النثر حريصا أن يصطحبني معه إلى الندوات، التي يكثر فيها الكلام عن الفن ودوره في إرساء العدالة الاجتماعية. كان يقول لي إنني يجب أن أستشهد بأبيات من شعره تؤكد على موضوع الندوة، وكنت أمتثل وأقوم وأقول كلاما مكرورا عن دور الفن، أحفظه عن ظهر قلب من الشاعر، ثم أستشهد بأبيات من شعره إلى أن جاء أحد الأيام، وفي إحدى الندوات سمعت أحدهم، يهمس لصاحبه عني وعن صديقي الشاعر بقوله: "طيزين في لباس".

هو كان يقصد متانة علاقتنا، أعرف. وأعرف أنه لم يكن يقصد غرضا سيئا ويريد أن يدلل على مدى التقارب بيني وبين الشاعر، مستخدما ذلك التعبير الشعبي الدقيق المفعم بالدلالة، كما حاول أن يشرح لي صديقي الشاعر حين قصصت له ما سمعته، كان صديقي الشاعر ساعتها يحاول أن يثنيني عن قراري بعدم ظهوري معه في الأماكن العامة، حين قلت ذلك ضحك الشاعر ضحكة ماجنة، واستلقى على قفاه وقال بأنوثة تراوده بين الحين والآخر في صورة

هزار: هوَّ الراجل إيه مننا غير سمعته. ثم يتخذ مظهر الجدية وتنتابه حالة من الديماجوجية، هكذا قال لي واصفا حالته من الإفراط في الجدل، بعدها يخرج ريحا نتنا ولا يعتذر فأشعر بالدوار، ويكاد يغمى عليَّ، ويقول إنه تعلم ذلك من صديقته الأمريكية السابقة حيث كانت لا تكف عن الضراط، خاصة إذا ما أفرطت في تناول علب الفول المدمس ماركة حدائق كاليفورنيا التي كان يحضرها لها، وأستغرب، كيف يكون شيوعيا ويأكل فولا معلبا يحمل اسم مدينة أمريكية؟ وكان يقول إن صديقته الأمريكية أدمنته لدرجة أنه لو كان الأمر بيده لمنحها الجنسية المصرية على الفور.

يقول ذلك بينما بطني يكاد ينقلب، ويبدو أنه شعر ببعض الخجل، فقام ذاهبا إلى الحمام كي يفرغ الهواء والخراء الذي يملأ أمعاءه، لأن تلك الريح التي أخرجها من المؤكد أنها ريح محملة بالخراء.

وبينما الشاعر يقضي حاجته من الفساء والخراء في الحمام، تذكرت حارسة حمام الحديقة التي كانت تقول: إنها تسمع ضراط الناس كلهم، وأن ذلك أصبح لا يزعجها، فأتعجب من قوتها وقدرتها على التحمل.

(26)

حارسة حمام الحديقة

"شد السيفون يا اللي جوه"

حارسة الحمام

تتذكر حارسة الحمام بكل فخر أقاربها الذين هاجروا إلى كندا منذ سنوات بعيدة، ويأتون في إجازات متقطعة، ويحكون عن معاناتهم من عدم وجود شطافة في الحمام. صحيح هي من الفرع الفقير في العائلة، لكن ذلك لم يمنع من أن تطأ قدماها بيت أقاربها كل فترة، قبل الزواج. وتذكر على وجه الخصوص تلك المرة التي استمعت فيها إلى تسجيل خفيف الدم "بيشوي" الذي أرسل لهم صوته على شريط كاسيت لم يجعلهم يتوقفون عن الضحك.

في طفولتها كانت تحب بيشوي، كان حبا من طرف واحد. لكن الأيام والفقر والتعليم وكندا فرقت بينهما، وظلت تكتم إعجابها الطفولي به، لذلك لا تنسى صوته على التسجيل خاصة وأنها سمعته مرات عديدة، بعد أن آل إليها شريط الكاسيت ذاك بعد سنوات، حين أرسلت لها عائلة ميمي بعض المساعدات التي تتمثل في؛ ملابس مستعملة، وبعض الستائر القديمة، والأحذية، ويا لحسن حظها الشريط الذي تمنته، الشريط المسجل لبيشوي الذي كانت قد

سمعته منذ سنوات وها هي تسمعه الآن، ورغم أنها لا تفهم الكثير مما يقوله لكنها تحسه بقلبها:

الإنسان فعلا مش بيقدّر النعمة غير لما تروح من إيده، الواحد كان بيخش الحمام كل يوم يقضي مصلحته في أي وقت هوَّ عايزه. عمرك وقفت تتأمل الشطافة أو تشكرها على خدماتها الجليلة في مكافحة التسلخات؟

الحياة في أوربا مع كل مميزاتها تخسر كثيرًا لعدم تيسر الحصول على الشطافة، مش قادر أتخيل إزاي الحضارة الأوربية بجلالة قدرها مرورا بكل عصور النهضة والصناعة ماقدرتش تتوصل للاختراع الغاية في البساطة ده، على أهميته الشديدة.

دخول الحمام خارج بر مصر والبلاد العربية واليابان بيمر بخمس مراحل:

الإنكار: أكيد التواليت ده بايظ.

الغضب: ده تهريج، يعني إيه مافيش شطافة؟ ها تولي حد كبير أكلمه.

المساومة: طب مافيش قزازة ميه طيب؟ طب عالأقل ممكن الحوض والتواليت يبقوا جنب بعض.

الاكتئاب: مش داخل الحمام تاني.

التقبل: وده بييجي بكذا طريقة.

الحلول المُثلى التي تم التوصل إليها حتى الآن هي:

لو كنت غني وعندك بيت كبير بحمام واسع، ركب "بيديه".

دوَّر على سباك شاطر، ممكن يقدر محنتك ويركِّبلك خرطوم، الحل ده مش دايما بينفع لأسباب فنية.

اظبط مواعيد اللامؤاخذة مع مواعيد الدش.

استعمل إزازة مية أو شطافة محمولة.

حقائق قبل الهجرة لكندا.

أوّل ما تفكر به وأنت بالطائرة في طريقك إلى كندا أنك مقبل على عالم جديد. النظام والجمال والمستقبل الباهر. لكن دعني أقول لك إننا كمصريين نقلل كثيرا مما نراه في بلادنا. قبل السفر كان صديقي يحيى الذي لم يغادر مدينة الإسكندرية قط (طبعا إنتو عارفين يحيى) يشرح لي تفصيلا جمال وعظمة كندا: وإيبيه يا معلم، الشغل في كل حتة، وفلوس بتترمى من البلكونات. يا عم ده الناس هناك بيستحموا بالكولونيا.

بالتأكيد كلنا لدينا يحيى في حياتنا؛ فهو موجود في كل مكان وكل زمان، والأغرب أنه على الرغم من إدراكنا لكمية الفانتازيا الفكرية المهولة لهذا الـ"يحيى" فإننا نجد أنفسنا نستمع بكل اهتمام لوصف

بلاد العجائب كأنما نبحث عن نافذة لعالم آخر؛ للهروب من عالمنا. لكن دعني - وأنا أعيش حاليا في مقاطعة ألبرتا، وهي من أقوى مقاطعات كندا اقتصاديا - أبدّل بعض الحقائق الافتراضية "اليحيوية" بوقائع ملموسة ومرئية ومشمومة أحيانا.

الحقيقة الأولى:

"المواصلات فاضية يا معلم، لأ وببلاش. والسواق بينزل يتحايل على الناس تركب. يتحايل يتحايل يعني، حقيقة أكثر ما صدمني هو ازدحام مواصلات النقل العام لدرجة لا تختلف كثيرا عن مصر، لكن مع الافتقاد لميزة مهمة وهي الشعبطة، تلك البروزات المحببة الموجودة في الأتوبيسات المصرية - والتي ليس لها أي مبرر اللهم إلا إيجاد متنفس لمحبي الشعبطة - للأسف ليست موجودة بالأتوبيسات الكندية. بكل بساطة عندما تكتمل حمولة الأتوبيس لا يقف في محطات بعد ذلك مهما كان العدد الذي ينتظره في المحطة. قد تعوّض ذلك كثرة الأتوبيسات وانتظام مواعيدها، لكن دعني أقول لك إن ثمن التذكرة تقريبا 12 جنيها ونصف الجنيه. بالتأكيد إن طُلب منك أن تدفع هذا المبلغ في مصر مقابل تذكرة الأتوبيس ستقوم - كأي مصري حار الدماء - بإطلاق كل أصوات الاعتراض التي تعرفها.

الحقيقة الثانية:

الوظايف يا معلم، شغل قليل فلوس بالهبولّي. لأ ومش بتدوّر، ده

أنا أعرف واحد خدوه من باب المطار مسّكوه رئيس شركة استثمار، لأ وإيه خريج علوم. قال لهم ما ليش فيها قالوا له بليز، بليز، وسكنك علينا وهنركّب لك سخان أوليمبيك، أولا: أنا لم أرَ سخانًا أوليمبيك بكندا، ولعلي أكون مخطئا. ثانيا: الوظائف الآن أصبحت ليست بالأمر السهل في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية، هناك حالة غير طبيعية من الركود، وبدأ الكثيرون يلجأون إلى العمل في الوظائف المنخفضة الدخل حتى لو لم تكن ذات علاقة بتخصصهم، فقد بدأ يصيبهم سرطان الحلول المؤقتة، وهو سرطان اختياري ومرض مزمن لا تفيق منه إلا مع نهاية حياتك لتكتشف أنك قد عشت تنتقل من حل مؤقت إلى آخر، ولم تصل إلى حلك الدائم خلال أي فترة من فترات حياتك. وصدّقني أنا لا أريدك أن تعيش إحساس من سُرِق عمره دون أن يشعر. ثالثا: العمل هنا هو دراكولا المعنوي غير المرئي، هو يمتصّ طاقتك ودماءك وأنت عبد له؛ لأنك لا تملك أي بديل آخر حتى تنجو في هذا العالم الذي لا يؤمن إلا بالعمل الشاق.

الحقيقة الثالثة:

الحريم، الحريم، الحريم، أوبّا يا كبير، التطور الطبيعي للحاجة الساقعة، الفاضية بترجع مليانة يا معلم، لأ وإيه بيموتوا في المصريين، الجزء الأخير من خرافات الأخ يحيى هو مفهوم شائع لم أجد له حقا مبررا أو دلالة حقيقية. أتذكّر حالة عدم الثقة التي انتابتني

عندما وطأت قدماي أرض المطار، ولم ترتمِ مسئولة الجوازات في أحضاني صارخة: أوه، إجيبشيان هيبوسني، لكني أدركت أن "عبد المعطي الدمرداش" القادم من قويسنا مثلا لا يتحول بقدرة قادر إلى "توم كروز" عندما يصل إلى كندا. هي قناعة غير حقيقية تنتمي إلى نظرية "سوبر مان"؛ فمصر هي كوكب كريبتون خاصتنا، وكل قاطني كوكب كريبتون يمتلكون قدرات خاصة، لذلك لا يشعرون بتميزهم. لكن عندما ترك "كلارك كنت" كريبتون، وانتقل إلى كوكب الأرض - كندا في هذه الحالة - أصبح مميزا بما يملكه من قدرات عن سكان الأرض. لذلك دعني أقول لك وبكل صراحة: أنت لست سوبرمان وهم ليسوا سكان الأرض. وباختصار الحريم مش بيموتوا في المصريين، كما هو شائع، وأنا أكبر دليل على ذلك؛ أنا مصري ومقيم بكندا وما حدش بيموت فيّ، إلى جانب شيء آخر مهم ومن دون مبالغة: بنات مصر كنز، فلتبحث لنفسك فيه عن نصيب. هنّ فقط يحتَجْن لعملية صنفرة دماغية؛ لتقوية الطموح، وتقليل التليفزيون شوية.

ختاما: أحب أن أنهي ذلك بحقيقتين مهمتين:

أولا: المجاري بتضرب في كندا، وهذا يحدث لكن الإصلاح يكون سريعا جدا.

ثانيا: من أكثر ما ستفتقدهَ من مصر "الشطافة". أتساءل لماذا لم

تفكر حكومتنا في تصدير شطّافات إلى الغرب كسلعة إستراتيجية قد تعيد التوازن إلى ميزان المدفوعات؟ خاصة أن لدينا فرصا كبيرة في احتكار هذه السلعة؟

كانت حارسة حمام الحديقة تحب مهنتها، لا لأن بيشوي حبيب القلب القديم تحدث عن أهمية الحمامات والشطافة التي يفتقدها في كندا، لكن لأن وظيفتها كحارسة حمام بحديقة عامة تجعلها ترى الضعف الإنساني في أجلى صورة، فهي ترى الواحدة منهن تدخل وكل ملامح الزهو بادية على وجهها ثم ما تلبث أن تسمع ضراطها قادما عبر باب الحمام، تفهم لماذا يفتعل البعض شد السيفون مرات عديدة ليغطى على الأصوات الصادرة منه، وكأنه الوحيد الذي يصدر أصواتا في الحمام، كانت تريد أن تربت عليهم وتقول لهم: على رسلكم كلنا بنعمل كده. وتستغل لحظات الإحراج تلك وتطلب فلوسًا، خاصة حين يخرج الواحد وهو يحاول أن يخبئ وجهه المتعرق حتى لا تتعرف إليه حارسة الحمام، ولسوف تشعر ساعتها بالانتصار حين تلمح الخجل والانكسار واللهفة على مغادرة المكان، كما يقع أحدنا ويحاول أن يختفي من على وجه الأرض التي وقع عليها. وخشية أن تعرف أنه صاحب السيمفونية التي كانت تصدر من قليل، نعم سيمفونية، هي لا تبالغ في مشاعرها تجاه الأصوات المتداخلة المتقاطعة في هارموني عجيب، وكأن هناك مايسترو ماهرا يضبط إيقاع الضراط، خاصة وقت الذروة بعد الغداء، هي تعرف أن

الأطعمة التي تباع في الحديقة مسئولة بشكل ما عن هذه السيمفونية، لأنها رأت بأم عينيها ذات مرة فأرا ينتقل بخفة ويسر داخل مطبخ المطعم الملحق بالحديقة.

ورأت الفأر وهو يقرقض الجبن بتؤدة وتلذذ وكأنه يدرك أن أحدا لن يمنعه، ومن ساعتها قررت أن تحضر معها من البيت سندوتشات المفتقة والبيض والحلاوة الطحينية، والتي تحرص على تغذية زوجها بها حتى يربرب ولا يعايرها بسمنتها المفرطة، خاصة حين تتعرى أمامه في لقائهما الحميمي، ساعتها تشعر أن فردة واحدة من مؤخرتها تشبه إطار مقطورة كبيرة، حيث ترى الخضة في عين زوجها وهو يغرق في شحمها ولحمها الذي يتحول بعد بذل قليل من المجهود أثناء الجماع إلى مرقها، من كثرة العرق الذي ينز من جوانبها ومخارجها.

تعرف حارسة الحمام أيضا أن سمنتها تكون مثار سخرية البعض وشفقة البعض الآخر، ترى ذلك في عيونهم، ولقد حاولت أكثر من مرة اتباع حمية، وكان آخرها ريجيم الموز.

حارسة الحمام لا تعرف أن فكرة الرجيم بدأت من اليابان وانتشرت في العالم نظرا لما تحتويه من فوائد صحية خصوصا أن أكثر من 77 % من النساء حول العالم يعانين من نقص في مادة الماغنسيوم،

مما يخلف وراءه اضطرابات في الجهاز الهضمي، نفخة في البطن وتشنجات في عضلات الجسم، لكنها تعرف أن إيفون التي أرشدتها إلى هذا الريجيم خسرت ثلاثة كيلو جرامات في ثلاثة أيام مع رجيم الموز. هو نظام يعتمد 3 أيام في الشهر لا غير ويعتمد على الموز كلاعب أساسي في خطة الرجيم، لكنها تعلمت من برامج التليفزيون أن تأكل 3 موزات يوميا، وتشرب 3 أكواب من الحليب الخالي من الدسم، ويمكنها وضع شرائح الموز في الحليب، ومسموح تناول كيلوجرام من الموز يوميا. الشاي الأخضر والماء لا بد منهما، وأن هذا النظام الغذائي يساعد على فقدان كيلو جرام في اليوم الواحد.

أكثر ما كان يوجعها نظرة الشفقة، تلك التي تراها في عيون البعض، لذلك كانت تحب لحظات الضعف الإنساني التي تحس فيها بالبشر "لايصين" داخل الحمام، لإزالة آثار قطعة من البراز علقت بالشطاف، أو فشل صاروخ الماء المنهمر من أثر شد السيفون في إزالة قطعة متماسكة رفضت أن تنزلق للأسفل، وظلت تقاوم السقوط إلى منحدر "الكابنيه". تخيلت لو أن الغرور خرج من شرج الإنسان لربما استراح كثير من المنتفخين بخراء الغرور الذي يملأهم، أو يتم التخلص منه عن طريق إعطاء حقنة شرجية لإخراج الغرور من كل واحد ظن نفسه قادرا عليها.

تريد أن تعطي حقنة شرجية لكل واحدة دخلت الحمام، ونظرت لها نظرات استعلاء، أو عاملتها كأنها غير موجودة، حتى لو أعطتها

نقودا وهي خارجة من باب الحمام، وكل خد عليه أطنان من البودرة. هي تريد أن تقول لهن إن مهنتها المتواضعة لا تعطيهن الحق في أن يعاملنها بغرور واستعلاء. تريد أن تصرخ وتقول: إنما أنا بشر مثلكم. قادتني ظروف حياتي إلى هذه المهنة التي تأنفن منها، لكن بالله عليكم تخيلوا لو هي غير موجودة، هي وزوجها، إن لم تكن هناك حارسة حمام تنظف فضلاتكن، وإن لم يكن هناك كناس يلم قمامتكم، كيف كانت تصير الحياة في هذه الحديقة، التي تتقابلون فيها، وتمارسون الحب، وربما تفرغ إحداكن شهوتها في ذلك الحمام إذا ما شعرت بالبلل، وهي تجلس مع حبيبها، أرأيتم، كلنا متشابهون. نذهب إلى الحمام لنقضي حاجتنا، وتذهب الأخريات ليفرعن شهوتهن. كلنا واحد. أنتن تصرخن تحت رجال يمارسن عليكن السيادة في الفراش، وكذلك هي، ليس لديكن شيء زائد عليها حتى تتم معاملتها هكذا، بالعكس هي عندها فائض وزن، ولم تجرِ الختان، رغم أن ذلك شاذ وغريب على أهل ديانتها، لكن هي كانت ترى أن المسيحيات أوْلى بعدم الختان من المسلمات، لأن الزوجة المسيحية تظل برفقة رجل طوال العمر، لا يفرقهما سوى الموت أو الزنا أو ترك الملة، لذلك من حق الواحدة أن تستمتع، وتمتع زوجها بأنوثة كاملة، أو فائضة غير مقطوعة ولا منقوصة.

لذلك ربما تكون زائدة عليكن، فأبوها لم يسمح أن يُقتطع جزء منها أما أنتن فأكثركن مختتنات ناقصات، أما هي: لسه بخيرها، كما

كانت تذكر أمها. وكونها تعقد صفقات معي فهذا لا يعني أنها امرأة سيئة، خاصة إذا عرفتم أني أضع الكاميرا في حمام الرجال، أما إذا طلبت منها أن أضع الكاميرا داخل حمام السيدات، فسترفض بشدة، وستكون لها معي وقفة، فرغم حاجتها الماسة للمال، لكن لا يزال بداخلها جزء من ضمير لا يمكن شراؤه.

(27)

حارس الحديقة V

"الكاميرا آلة تصوير، للصور ثابتة أو متحركة، وأصلها الكلمة العربية القُمْرَة والتي تعني الغرفة المظلمة أو الصغيرة أو المنعزلة"

برنامج How It's Made

صفقاتي مع حارسة الحمام لم تكن كبيرة كما يحلو للبعض أن يتخيل، أعرف أن المسكوت عنه يجعل الفرص سانحة لأصحاب الخيال الواسع، والذين في قلوبهم مرض كي ينسجوا أحداثا لا تمت للحقيقة بصلة، لذلك أجد لزاما عليَّ أن أوضح بشكل لا لبس فيه ولا غموض الصفقات التي عقدتها مع حارسة الحمام، فكما ذكرت من قبل، أعود وأؤكد أن صفقاتي مع حارسة الحمام لم تتضمن زرع كاميرا في حمام السيدات.

لذلك أنا غير مسئول عن الفصل التعسفي، من قبل إدارة الحديقة لحارسة الحمام وزوجها النحيف نتيجة إنهاء تعاقد الحديقة مع شركة النظافة الأوربية، التي كانت تدفع مرتباتهما واعتبارهما عمالة زائدة. طيب أفهم أن الحارسة البدينة عمالة زائدة، أما هذا النحيف المسكين كيف يكون زائدا؟ فيقال لي: لم نعد بحاجة إلى النظافة. هي في الحقيقة لم تُقل لي بهذه الرقة، إنما شخر موظف العموم بالحديقة حين سألته وهو يقول: نضافة إيه ياعم؟ جت ع الجونينة ما البلد كلها وسخة!

مراقبة أفعال البشر حين يكونون وحيدين ممتعة إلى حد كبير، ولا مكان يستطيع الرجل أن يأخذ فيه راحته أكثر من الحمام، حيث يغلق على نفسه الباب، فيبدأ في الشعور بالأمان ويتصرف بأريحية. فالأصل في الحمام ألا يشاركك فيه أحد، لذلك كانت معظم الحمامات ضيقة لأنها صممت لكي يكون المرء فيها وحده، فالشاب الذي كان يجلس مع الفتاة في الحديقة على غير راحته، حيث يشفط كرشه معظم الوقت، حين يدخل الحمام ويفرغ ما في مثانته يبدأ في ترك كرشه يتمدد، بل إنه ربما يبالغ وينفخه أكثر من حجمه الطبيعي، وما كان ليفعل فعلته تلك إلا لو كان متأكدا أنه وحيد، والذي يحشر يده في مناخيره، ويخرج منها الكنان، ويرميه على أرضية الحمام ما كان يفعل ما فعله لو عرف أن أحدا يراه أو يراقبه، لذلك فالإنسان يكون مرتاحا أكثر حين يكون وحيدا، لهذا أعتقد أني سأظل وحيدا بلا زوجة ولا ابن طوال عمري، فأنا أستطيع أن أدخل الحمام في بيتي دون أن أغلق بابه، وأستطيع أن أتجول عاريا في أركان الشقة، وأستطيع أن أطلق للريح داخل بطني العنان كي تخرج وقتما تريد وفي أي مكان في البيت، وأستطيع أن أجلس أشعث الرأس دون أن أمشط شعري، وأستطيع أن أتمخط وأتجشأ بصوت مرتفع، وأستطيع أن أحدث نفسي بصوت عالٍ دون أن أبدو مجنونا في عين أحدهم، وأستطيع أن أشفط الشاي بقوة وأنا أشربه، وأن ألحس بقايا التفل بإصبعي دون أن يستغرب أو يتأفف أحد من تصرفي.

إنها الحرية، الحرية التي تكفلها لك الوحدة، وفي نفس الوقت الذي لا يراك فيه أحد، ترى أنت الناس وتراقبهم، شيء شبيه بأن تكون إلها، لا أحد يعرف عنك شيئا، ولا يراقبك، وأنت تعرف عنهم وتراقبهم، لذلك تنجح برامج الكاميرا الخفية في العالم، ليس لطرافة المواقف فحسب، لكن لأن فكرة أنك تعرف بينما الآخر لا يعرف. أنت تدرك بينما الآخر لا يدرك، فكرة مغوية، فكرة تجعلك تشعر وكأنك إله، والبشر، جل البشر يسعون للكمال في صورة أن يصبحوا آلهة، حتى لو كانوا ملاحدة ينكرون وجود اللـه، فلا مانع عندهم أن يكونوا هم اللـه ذاته ليخلدوا أنفسهم، ولذلك اخترعت الكاميرا لتخليد الإنسان وتسجيل لحظاته الخاصة، لتظل تذكره أنه ذات يوم كان هذا الطفل أو هذا الرجل الذي كان.

وبحسب برنامج كيف تصنع الأشياء How It's Made فإن الكاميرا آلة تصوير، للصور ثابتة أو متحركة. وأصلها الكلمة العربية القُمْرَة والتي تعني الغرفة المظلمة أو الصغيرة أو المنعزلة، والتي دخلت اللاتينية بمعنى (غرفة) بالتحريف الآتي باللاتينية: Camera وظلت قيد الاستخدام بهذا المعنى على مدى قرون حتى اختراع قمرة التصوير فشاع استخدامها لوصف الآلة المعروفة اليوم. أول وصف لآلة التصويرعند الحسن بن الهيثم في سياق دراسته علم البصريات، وذلك في الجامع الأزهر بالقاهرة، حين تم سجنه في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر اللـه، إذ لم يثنه هذا السجن عن

مواصلة بحثه العلمي في الضوء والبصريات، والاستمرار في تسجيل ملاحظاته عن سلوك الضوء وانعكاساته، فما كان منه إلا أن سجل ملاحظته لدخول الضوء من خلال ثقب في جدار السجن وسقوطه على الجدار المقابل حاملا معه صورة غير حادة الملامح ومَقلوبة لشجرة موجودة في خارج الزنزانة. سجل ابن الهيثم ملاحظاته هذه حول انتقال صورة الشجرة مقلوبة مع الضوء من خلال الثقب، فوضع العديد من الملاحظات في هذا الموضوع، ووصف الأمر وصفا دقيقا، موضحا قوانين الضوء في هذه الحالة. كنت سعيدا وأنا أتابع برنامجا تليفزيونيا على قناة عالمية يؤكد أن الكاميرا اختراع بدايته كانت عربية.

وضع الكاميرا للتجسس ليس سيئا طوال الوقت، وإلا ما كانت اكتشفت السيدة التي كانت تزرع كاميرات كنوع من الحرص لمراقبة خادمتها الجديدة الكارثة، كان هدفها هو مراقبة تعامل الخادمة مع أطفالها، ولم يكن يدور في خلدها أنها ستكتشف مصيبة لا تخطر على بال أحد، عندما عادت في أحد الأيام وبدأت بمراجعة تسجيل كاميرات المراقبة على جهاز الكمبيوتر لتصدمها المفاجأة، إذ رأت خادمتها تقوم بإنزال قدر الطبخ على أرضية المنزل وتتبول فيه قبل أن تقوم بتقديم طعام الغداء لها ولعائلتها.

أما أنا حين زرعت الكاميرا التي أهدتها لي الأجنبية البلوند الشقراء في الحمام، لم يكن ذلك لسبب سوى أن أقوم بوظيفة إله يراقب البشر

وهم على سجيتهم. يبتسم من أفعالهم الصغيرة والتافهة، والأشياء البسيطة الساذجة التي يفعلونها وهم منفردون بأنفسهم، ومع تفاهتها وأحيانا حقارتها تمنحهم شعورا عظيما بالسعادة والحرية، لذلك كنت أفكر كثيرا في عقوبة السجن، كنت في بعض الأوقات أراها عقوبة هينة وغير رادعة، وأقول لنفسي يعني إيه الواحد يتسجن؟ وأفكر في أن السجن أحيانا يكون كما يقولون: "أكل ومرعى وقلة صنعة"، فأنت كل يوم تجد من يحضِّر لك طعامك وشرابك حتى ولو كان رديئا، اعتبر نفسك يا أخي في فندق نجمة واحدة يقدم خدمات سيئة أو في لوكاندة بشارع محمد علي.

أعرف أن بعض المسجونين السياسيين، ألف كتبا في السجن، وكيف أن وقت الفراغ يمنحهم فرصة للتأمل والقراءة وكتابة الكتب، حتى إن بعضهم حصل على شهادات جامعية وماجستير ودكتوراه داخل السجن، وشاهدت فيلما تسجيليا عن ويليام أديس أول من قام باختراع وإنتاج فرشٍ الأسنان بالجملة، لم يكن الرجل طبيبا أو صيدلانيا، بل كان بكلِّ بساطة دبّاغا يدبغ الجلود، يقضي فترة عقوبة في السجن بسبب أعمال شغب؛ استعمل قطعة من البساط مع الملح والفحم في تنظيف الأسنان أثناء سجنه، بعد ذلك حفر ثقوبا صغيرة في قطعة من عظام الحيوان، ومرر فيها عدة شعيرات حيوانات خشنة، فلاقت استحسانا من المساجين والضباط، وبعد خروجه من

السجن حصل على أول براءة اختراع لفرشاة أسنان في الولايات المتحدة.

في هذه اللحظة شعرت أنه من الحكمة أن تكون الحكمة: في السجن سبع فوائد، وليس في السفر كما يقال. كان إيماني بهذه الفكرة المبهجة عن السجن مترسخا بداخلي، لكن حدث حادث في حياتي جعلني أرى الفكرة سيئة، أن أكون مراقبا ومقيد الحركة، وهناك ترسيم حدود لحركتي حتى ولو كانت في فناء فسيح، لكنه في النهاية محدد، وأن هذه العقوبات، عقوبة السجن التي تسمى عقوبة سالبة للحرية، هي أقصى عقوبة يمكن أن توقع على إنسان خلق حرًّا، حتى في مسألة إيمانه أو كفره بالذي خلقه من الأساس، وما زاد من تأكدي من غلظة العقوبة، وما يتبعها من آثار سلبية على الإنسان، هو تلك الليلة المشئومة التي ترجلت فيها في شوارع المدينة بغية الحصول على شيء يجعل الدفء يسري في أوصالنا أنا وصديقي الشاعر والأجنبية.

وكانت كما يقولون ليلة ليلاء.

(28)

حارس الحديقة VI

"ما قاله مالك في الخمر"

مجهول

كنت عائدا بالشنطة السوداء التي تحمل علب البيرة "الهينكين" وزجاجة id edg وزجاجة كوبانا روم فاخر الشفافة، وزجاجة Beausoleil الخضراء، فإذا بشخص طويل عريض يستوقفني ويسألني: بطاقتك؟

في مثل هذه الحالات يتوجَّب على المرء أن يرد: حضرتك بوليس؟ لكني لم آخذ معه ولم أرد لأني شعرت أنه قبض عليَّ متلبسا. كان شاعر قصيدة النثر قد نفحني مبلغا من المال لأشتري خمرا، وقد أخذه بالتراتبية المنطقية من الأجنبية البلوند الشقراء، حيث كانت حركة الأموال بيننا تسير في اتجاه واحد، يبدأ من عند الشقراء مرورا بالشاعر حتى تصل إلى يدي ثم إلى يد البائع، كانت دورة حياة المال القصيرة تبدأ وتنتهي من يد الأجنبية البلوند إلى يد البائع الأسمر تذكرني بالحملات الإعلانية التي ترفع شعار: من المنتج إلى المستهلك وهي كثيرة لا ريب.

أخرجت البطاقة التي تحمل صورة بائسة لي التقطها مجند متعجل يريد أن يتخلص مني، ولم يدع لي الوقت الكاف حتى آخذ البوز

المناسب، كما أخبرتني الأجنبية حين اطلعت على صورة بطاقة الرقم القومي، فأتحسر على صورة البطاقة الشخصية القديمة ذات اللون الأصفر، كان الواحد منا يذهب إلى الاستديو، وقد تم استعداده الكامل وكأنه عريس ذاهب إلى الكوافير ليلة عرسه، تعرفون وخاصة الذكور منكم، أننا في سن استخراج البطاقة كنا نولي الشارب الأخضر عناية فائقة قبل الذهاب للمصوراتي، حتى إن بعضنا استخدم قلم الكحل الخاص بأمه أو أخته الكبرى ليجعل الشارب يبدو أكثر كثافة. كانت صورة البطاقة الشخصية القديمة أو إثبات الشخصية تمثل شيئا مهمًا، ونتعامل معها بوصفها صورة تمثل منعطفا تاريخيا أو رمزا، جسرا بين الطفولة والرجولة، ولأن هذه الصورة ستظل تلازمك سنوات عديدة، لذلك كانت عملية الإعداد للصورة عملية منظمة وقاسية أحيانا، حيث لا يمكن السماح فيها بالأخطاء، فالقميص يجب أن يكون مكويا من الليلة السابقة، وفازلين الشعر يجب أن يوضع بكثافة تجعل الشعر يلمع، والشارب تتم زيادة كثافته من خلال قلم الكحل الحريمي، والحذاء لا بد أن يكون قد أخذ وش ورنيشًا معتبرًا، وكنا نعرف أن الحذاء لن يظهر في الصورة لكنها الدقة والفذلكة يا عزيزي، وقبل كل هذا الابتسامة التي نظل نجربها طوال الليلة أمام المرآة، مرآة البيت حتى نصل إلى ابتسامة إعلانية مرضية تشبه ابتسامة صاحبة إعلان الكتويل I like it، ولا نهتم إن كانت الابتسامة حريمي أم رجالي، لأننا لم نكن قد انشغلنا بعد بقضايا الجندر وخلافه، حتى

نصل إلى الابتسامة المرضية، ونثبت الكادر عليها حتى يكاد وجهنا يتجبَّس، وننام على تلك الابتسامة مخافة أن تضيع، ولا نستطيع الحصول عليها ثانية.

داخل الاستديو تكون اللمسة الأخيرة والتسريحة الأخيرة بفرشاة ممتلئة بكل المتساقط من أنواع وألوان الشعر المختلفة، وربما القمل أيضا، يضعها أمام التسريحة الصغيرة المثبتة في ركن من أركان ستديو مروان صاحب السلوجان الشهير: ستديو مروان حيث الدقة والإتقان، الموجود على الأظرف والشنط الصغيرة التي نتسلم فيها الصور.

كنا بفارغ الصبر ننتظر اليومين حتى ميعاد تسلم الصور، والتي يتم تحميضها خلال تلك الفترة، ونجري بها على أقرب قسم شرطة تابع لنا لتكون صورة البطاقة الشخصية، التي لن ننسى كيف استحال لونها الأصلي إلى ألوان عديدة مشتقة منه، من كثرة كمرتها في الجيب الورَّاني للبنطلون الجينز التنس، الذي كانت علامته التجارية مضربي تنس متقاطعين، وكنت قد اشتريته من التوحيد والنور، هل يعلم سيد السويركي، التاجر الشاطر الملتحي الذي تزوج نساءً كثيرات بعدد أفرع توحيده ونوره، حيث كان يفتح امرأة جديدة بالزواج مع كل فرع لسلسلة محلاته يفتتحه، هل يعرف أن تاريخ ظهور الجينز الذي يتاجر فيه كان عام 1873، على يد

صانع الملابس اليهودي ليفي شتراوس، وهل ذلك سيجعل صاحب سلسلة محلات التوحيد والنور يتراجع، ويحرِّم لبس الجينز مثلا، ويصب جام غضبه على ليفي الذي ولد في ألمانيا، ثم حصل على الجنسية الأمريكية، وسافر إلى سان فرانسيسكو لكي يحصل على فرصة تجارية وسط حمى البحث عن الذهب.

ومع مرور السنوات انتعشت تجارة ليفي شتراوس، حيث عمل في تصميم سراويل من الخيش البني القاسي لعمال المناجم والباحثين عن الذهب، ثم انتقل إلى قماش الدنيم المصبوغ باللون الأزرق ليستخدمه في تصميم السراويل بدلا من الخيش الذي نفدت حصيلته.

وفي عام 1872 م تلقى ليفي رسالة من جاكوب دافيز، وهو خياط من نيفادا كان يتعامل معه بانتظام، يخبره فيها عن شرائه القماش لاستخدامه في الخياطة، وحكى له عن الطريقة الجديدة التي يستخدمها لتصميم البناطيل لزبائنه، حيث يضع مسامير معدنية صغيرة في أماكن محددة من البنطال كزوايا الجيوب.

المشكلة التي كانت تواجه دافيز هي كونه لا يمتلك المال الكافي ليستخرج براءة اختراع لهذا التصميم، ولهذا اقترح على ليفي أن يقوم بدفع المال اللازم لاستخراجها، مقابل إدراج اسمه أيضا في هذه الوثيقة، وفي العشرين من مايو لعام 1873، استخرجت براءة الاختراع، وولد رسميا قماش الجينز الأزرق.

بعدما ظل قماش الجينز حتى ستينيات القرن الماضي لباس العمال وأبناء الطبقة المتوسطة وما دون ذلك، راح يتفشّى في معظم الطبقات وصولا إلى المشاهير وبعض رؤساء الدول.

ورغم انتشار صناعته ووجود آلاف الماركات المنتجة له، فلا يزال اسم مبتكره Levi's طاغيا على كل الأسماء الأخرى حتى أصبح مرادفا للنوع، لدرجة أنه في مراهقتنا كان اسم Levi's على التيكت الوراني للبنطلون الجينز كفيلا بجعل صاحبه يعامل أصدقاءه معاملة مختلفة، وهم يعاملونه معاملة خاصة.

ظل البنطلون الجينز التنس يلازمني طوال مراهقتي المبكرة، حتى إن لونه طفح على لون البطاقة الأصلي فازرقّت، تلك البطاقة التي كانت تحمل فصيلة دمي o موجب، وسأعرف من أبي أن فصيلة دمي نادرة، وينفع أن أعطي دمي لأي أحد، لكني لا أستطيع أن آخذ إلا من فصيلة دم تماثلني، ومن ساعتها أخاف أن أنجرح لأن دمي عزيز وغير متوفر، فلا أخوض مشاجرة أبدا، وأبتعد دائما عن أماكن قذف الطوب والحلل والزجاجات الفارغة، أثناء اشتباكات الجارات والأولاد الأشقياء، لكن هذا لا يحول بيني وبين أن تشج رأسي في عركة، لا ناقة لي فيها ولا جمل، ويسيل الدم منها غزيرا، فتضطر أمي إلى أن تكتمه بالبن، الغالي عندها، والذي كانت تجلبه لنا جارتنا الغزاوية، حيث تذهب إلى فلسطين كلما غالبها الشوق لأرض الآباء

والأجداد، ساعتها كنت أشم رائحة القهوة التي تشربها أمي بحرص كل صباح، تخرج من رأسي بنكهة الدم الطازج.

كانت بطاقتي في تلك الأيام تحمل المهنة: طالب، أما الآن حين استوقفنى رجل البوليس معترضا طريقي فإن بطاقتي تحمل المهنة: موظف أمن، ابتسم رجل البوليس هازئا حين قرأ أني موظف أمن بحديقة وقال: "معرص يعني". ثم أردف قائلا: المهنة لمت، أيّ ناضورجي بيتقال عليه دلوقتي رجل أمن.

كانت الشنطة السوداء المليئة بالخمور لا تسمح لي بأن أرد عليه من منطق قوة، خاصة بعد أن أفرغ محتوياتها على الأرض قائلا: بسم اللـه ما شاء اللـه، وكمان سكري.

قبل أن أرد ظهر البوكس الأنيق الذي كان يقبع في الظلام في آخر الشارع. دفعني رجل البوليس، وهو يركل مؤخرتي ويصفع قفاي في حركة واحدة ماهرة ومدربة، لأقبع بجوار زميل بوكس يبدو أنه سيرافقني هذه الرحلة غير المقدسة.

(29)

زميل البوكس

"الشرطة في خدمة الشعب"

شعار وزارة الداخلية

كان زميل البوكس رجلا أشيب يرتدي بيجامة مقلمة ولايفتأ يردد: أنا بريء، فيخبطه العسكري الذي يحرسنا بكعب البندقية في كتفه وأحيانا في ذراعه فيتوقف للحظة، ثم يعاود قائلا: أنا ماعلمتش حاجة. لما رأيت تصرف العسكري ضيق الخلق مع زميل البوكس الأشيب قررت أن ألتزم الصمت، خاصة أن العسكري كان يدب كعب البندقية بكل غلٍ، وينغزه بها فآثرت السلامة، ولم أدِّع البراءة، ولما يئس زميل البوكس من أي استجابة من أي نوع من العسكري المتحفز، مال عليّ هامسا: أنا بريء. ثم ارتسمت على ملامحه ابتسامة وقور، وسألني: وأنت؟ لم أعرف ماذا أقول له، خاصة وأن أي رد ربما يجعلني أتلقى كعب البندقية في جنبي، وحين أعاد عليَّ السؤال بإلحاح أجبته: مش عارف. فأخبرني أنه موظف محترم في شركة إيديال. ولما بدا عليَّ عدم الفهم قال في لهجة تقريرية لا تليق بملابسه المنزلية: شركة إيديال دي اتأسست في سنة عشرين. يصمت لحظة ثم يوضح مردفا: بتاعة التلاجات.

ثم فجأة علا صوته دون أن يدري، وقال إن زوجته هي السبب، حيث طردته من البيت ليلا فنزل دون أن تكون معه محفظة أو بطاقة، فيضحك العسكري حين يسمع ذلك ويقول بلهجة صعيدية: طب لما المدام كرشتك زعلان ليه إنك هتلاقي مطرح تبات فيه عندينا. فيتحمس موظف شركة إيديال حين يجد استجابة من العسكري ويقول: أنا عندي شغل الصبح، فيواصل العسكري "المألسة" عليه: أما أنت راجل هزؤ صحيح، المدام كارشاك وكل همك تروح الشغل.

فيخبرنا الموظف الأشيب بنظرات طيبة، موزعة بيني وبين العسكري، أنه يعمل من أجل إطعام وتعليم بناته، لا من أجل زوجته. يحكي زميل البوكس عن بناته الثلاث، فتفيض عيناه بالدموع، ويقول إنهن: زي القمر.. اتنين منهن توأمان وفي ثانوية عامة، والتالتة دي حبيبة أبوها في أولى إعدادي.

ويكون فخورا جدا بحصولها على تسعة وتسعين بالمائة في الشهادة الابتدائية الأزهرية، وكونها الأولى على مديرية التعليم التابعة لها مدرستها، ولما سألها عن الهدية التي تريدها، أخبرته أنها تريد العروس فلة المحجبة بحجم كبير، ويمتدح اختيارها للعروس المحجبة بدلا من العروس باربي السافرة لأنها: متدينة من يومها. ويقول رغم أنها أصغر من إخوتها فإنها اختارت الحجاب، في حين

أن التوأمين غير محجبتين، لكنهما في قمة الأدب. وأنه اشترط عليهما لبس الحجاب قبل دخول الجامعة.

بعد قليل ستسري البرودة داخل أجسادنا من لفحة الهواء البارد، التي تأتينا من سرعة البوكس في الشوارع الخالية فنقترب أكثر من بعضنا بعضًا، كأننا لا نريد أن نسمح للهواء البارد أن يدخل بيننا. كانت رحلة البوكس تبدو طويلة جدا ولا نهائية، شعرت وأنا بداخله كأني أفقد ذاكرة الأماكن تدريجيا، وأصبحت كل الشوارع التي نمر عليها متشابهة، خاصة أن الشوارع حين تكون خالية تتشابه.

فكرت أن الشاعر ربما يستعوقني، وربما الآن يتصل بي على الهاتف المحمول، الذي سحبه مني رجل البوليس قبل أن يدفعني إلى العربة، وسحب معه جنيهات قليلة كانت في جيبي أخذها أيضا وهو يدب يده في جيبي الخلفي، وكأنه يدب يده في مؤخرتي.

كنت أحب شوارع المدينة ليلا، خاصة في الليل المتأخر، حين تكون المدينة غافية، نائمة، نائم كل ما فيها، كنت أشعر أن المدينة تتخفف من خبثها وعوادمها وهستيريتها.. شوارعها المجنونة وزحامها الخانق، وترابها الذي يغبِّر جوَّها، وروائح عرق آباط مواطنيها التي تقلب البطن، كنت أحسها جميلة وشابة بالليل، وليست عجوزا مرهقة ومقرفة كما بالنهار، كنت أرى شروقها بالليل وغروبها بالنهار.

بهت الموظف الأشيب الذي طردته زوجته حين عرف تهمتي من

العسكري، الذي أصر على فضيحتي وإيضاح أسباب القبض عليَّ، حيث قال العسكري في لهجة درامية تليفزيونية: أصله صاحب مزاج وكاس وسيجارة.

في الحقيقة لم أكن أدخن، كانت لديّ عقدة من التدخين بسبب أبي الذي مات مصدورا، صحيح أن الإسمنت أسهم بنصيب كبير في وفاة أبي، لكن هذا لا يمنع الدور العظيم الذي لعبته السيجارة في التعجيل بنهاية حياة أبي، ومع ذلك جربت أن أدخن أكثر من مرة، لكن مع كل مرة أضع السيجارة في فمي أشعر وكأني أملأ حلقي بالتراب، وظل صوت كحة أبي المليئة بالبلغم الممزوج بالدم يطاردني في مناماتي، لدرجة أني كنت أقوم من النوم مفزوعا على كابوس يهاجمني، وأنا أتخيل فيه أبي روحه تطلع وهو يكح كحة قوية جدا، وكانت روحه في الكابوس تخرج على شكل بومة سوداء عمياء، تخرج من فمه تظل تتخبط في صدره حتى يموت، وكنت حريصا أن أستيقظ قبل أن يموت، بعد أن اعتدت الكابوس، وأصبحت لديَّ مهارة كبيرة في التعامل معه، لدرجة أن آخر مرة استيقظت بمجرد خروج الروح في شكل البومة العمياء، أي في منتصف الكابوس، وزادت مهاراتي أكثر حتى كدت أن أصل إلى إلغاء الكابوس، لكن أبي في الحقيقة - وليس في الكابوس - رحل دون أن تخرج بومة سوداء من فمه.

حين عدت من رحلتي الكابوسية، كان العسكري الصعيدي وموظف شركة إيديال يتقاسمان سيجارتين، كانتا مع الموظف الأشيب الذي قال

إنه اعتاد الطرد وذلك جعله يعتاد على أن يضع علبة سجائر في جيبه تحسبا لأي طرد طارئ، وحين عزم عليّ بسيجارة هززت رأسي بالنفي فلما ألح أجبته: مابدخنش. فشخر العسكري ضاحكا، وهو يشد نفسا من السيجارة بتلذذ مستنكرا ردي وهو يقول: شوف شوف.

حين انتهيا من سيجارتهما، كنا قد وصلنا إلى القسم. ترجلنا من السيارة إلى باب القسم، وبمجرد أن دلفنا إلى الداخل إذا بالأمين الموجود يرحب بالموظف الأشيب، وهو يقول له: إنت تاني؟

ساعتها أشك أن الموظف قد خدعنا، وأنه مجرم معتاد الإجرام، لكن حين يستكمل الأمين قائلا: هي طردتك تاني؟ أعرف ساعتها أن موظف شركة إيديال صادق، وأنه ليس مجرما لكنه زوج طيب معتاد الطرد، فيصرفه الأمين على الفور حتى قبل أن يعزم عليه الموظف الأشيب بسيجارة.

سأعرف فيما بعد أن موظف شركة إيديال سيركب البوكس مجددا، السبب هذه المرة ليس طرد امرأته له إلى الشارع بالبيجامة، لكن لأن ملابسه التحتانية وبيجامته غارقة بدم زوجته، فقد اكتشف أنها تخونه مع مدرس ابنتيه الطالبتين بالثانوية العامة، كما يقول الخبر المرفق بصورته، والمنشور بصفحة "حوادث وقضايا" بجريدة الأخبار.

أما أنا فقد تأملني الأمين مليا، قبل أن يميل العسكري على أذنه هامسا. بعدها يأمر بإيداعي في الحجز حتى الصباح.

(30)

صاحبا السجن

"الشعب يريد إسقاط النظام"

جدار زنزانة

تاريخ التعذيب محفور على جدران المعابد المصرية القديمة، ليعبر عن الآلام والعزلة منذ كان الحاكم إلها أو شبه إله، يملك الأرض وما عليها، بل وبإمكانه - أو هكذا ادعى - أن يرسل رعاياه إلى النعيم المقيم في الحياة الآخرة، أو يحملهم بسخطه عليهم إلى النار وبئس المصير. وكانت الحكمة عند الفراعنة في حالات الحبس هي: "المتهم لن يتكلم حتى يتألم".

وقصة النبي يوسف هي إحدى قصص السجون فى مصر الفرعونية، واستأثرت سورة يوسف وحدها بتسعة مواضع تدل دلالة قاطعة على أن السجن من العقوبات التي عرفتها الحياة في مصر القديمة، فجاءت كلمة "السجن" ست مرات في حق يوسف وحده، ثم في حق يوسف مع بعض من كانوا معه، كما جاء في النص القرآني:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وأيضا: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ

مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجاءت كلمة سجن مرة واحدة في حق نبي الله موسى ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أيام كان يعيش في مصر قبل خروجه بأهله.

فقد عرف السجن في تاريخ مصر القديمة، إذ أخبر حردوف والده الملك خوفو، بأنه يوجد رجل يدعى دوي له في السحر باع طويل، ويستطيع أن يعيد الرأس المقطوع إلى مكانه مرة ثانية، وعندما حضر الساحر، طلب منه خوفو أن يفعل ذلك أمامه فقال: أحضروا لي سجينا من السجن. فمنذ عهد الفراعنة والمسجون يُصنف كأي شيء إلا أن يكون إنسانا، فتمارس عليه كل صنوف التعذيب التي لا يتحملها حتى الحيوان، فقد كان المسجونون يستخدمون في المناجم وهم مقيدون تحت إشراف أجانب يتحدثون لغة مختلفة عن لغة البلاد، حتى لا يستميلوهم أو تأخذهم رحمة بهم عند استخراج الصخر، الذي يتم تحطيمه باستخدام النار، ثم تستخدم الأيدي في استخراج المعدن الذي أصبح هشا، ويحدث هذا تحت مراقبة مشرف قاسٍ يوسعهم ضربا دون رحمة، حتى إن الأطفال كانوا ينزلون إلى الممرات السفلية من فتحات الصخور، ويجمعون قطع المعدن بمساعدة النساء والعجائز، فهؤلاء السجناء البؤساء يقومون بأعمال قاسية، وهم عراة لا يكاد يستر عوراتهم شيء، ولا رحمة لواهن أو عاجز ضعيف أو امرأة مريضة، فهم يموتون ألما وينتظرون الموت بلهفة، فقد كانت مصر القديمة تتبع العقوبات التبعية، وهي تطبيق العقوبة على أسرة

الشخص المحكوم عليه، وإذا ما مات، فهم ينوبون عنه.

كما حدث مع متوحتب، الذي ساعد على هروب أحد الأفراد وكانت عقوبته تجريده من وظيفته ومن اسمه ونفيه، كما حكم على أسرته بالأشغال الشاقة في معسكر عمل.

ولم يكن التعذيب ضمن القوانين الجنائية عند قدماء المصريين، بل كان مستمدا من قوانين البلاد الأجنبية التي تنتصر جيوشها عليهم، حيث كان اللجوء إلى التعذيب في جرائم نهب أو سلب المعابد.، وكان من أشكال التعذيب الموجودة في سجن "أنيتيفيل" أن يرقد الشخص على الأرض، ولم تكن مساحة الزنزانة تسمح له بأن يمد قدميه أثناء نومه، وكان المسجون يُقيد ليلا إلى فرع من الخشب، وفي الصباح يوضع في رأسه عُقد من الحديد، وتقيد يداه بالسلاسل لضمان عدم هروبه. وكان التعذيب العادي يتم بالضرب بالعصي، ويجوز تعذيب أسرة المتهم، إذا ما مات قبل بداية الجلسة، وقد حدد الضرب بالعصي أو الجلد مائة مرة أو بظهور خمسة جروح على الجسم. أو أن العقاب يكون بالجلد على الأقدام والأيدي وشد أطراف الإنسان بعد صلبه، وكانت تعد من وسائل التعذيب الشائعة. إلا أن اللجوء إلى التعذيب كوسيلة قانونية قد ألغي في عهد الملك بوكخوريس.

حين دفعني العسكري إلى التخشيبة، كان الظلام دامسا فلم أتبين في البداية صاحبي السجن، نعم كان هناك اثنان من المحتجزين داخل

تلك التخشيبة الملحقة بالقسم أطلقت عليهما "صاحبي السجن" تيمنا بقصة النبي يوسف في السجن، وخاصة حين رأيت أحدهما يحشو رغيف خبز بمحتويات علبة كشري، يفرغها داخل الخبز فتخيلته على الفور أحدهما الذي يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، كنت على وشك أن أخبره "ستموت يا حمار"، وستأكل الطير من رأسك، بينما أنت مشغول بعمل سندوتش كشري! ومما عزز خيالي القرآني أن الآخر كانت تفوح منه رائحة خمر ثقيلة، فقلت في سري: أما أنت فتسقي ربك خمرا. ونظرت له نظرة كلها غبطة وأنا أقول: هيَّص يا ابن المحظوظة.

لكن ابن المحظوظة الذي تفوح منه رائحة الخمر لم يسألني عن رؤيا أؤوِّلها له، لكنه أخرج ذكره فجأة، فاعتصمت بالحائط متراجعا خطوتين للخلف، وطارت من رأسي فكرة أني يوسف، وأن هذين الرجلين هما صاحبا في السجن، وراودتني كوابيس يقظة مرعبة من قصص ما يحدث داخل السجون، وتذكرت مصطلح ذكره أمامي أحدهم في جلسة مقهى عن الاستقبال لأي سجين جديد، والمعروف اصطلاحا بـ"الحفلة" وهي أن ينال من السجين أحد الذكور الأقوياء في أول ليلة له في السجن حتى يتم كسر عينه والتعليم عليه، لكن ما طمأنني أن ذكره كان مرخيًا ومنكمشا جدا لدرجة أنه يبدو كذكر طفل وليس لمتحرش ومغتصب، كما سأعرف فيما بعد تهمته.

إن درجة حرارة الخصيتين عند الإنسان دون السبع والثلاثين، أي دون حرارة جسم الإنسان، ولهذا قضى سبحانه بوضعهما خارج الجسم، إذ إن من شروط إنتاج المعمل الجنسي - الخصية - أن يعمل دون حرارة الجسم العادية، ولذلك فإن الذين لم تنزل خصيتهم من البطن بل ظلت معلقة فيه داخليا عقيمون، لا ينجبون الأطفال، لأن درجة حرارة الخصية العاملة حينئذ تكون أعلى من حدها المقرر. وهذه الحادثة الفيسيولوجية جذبت انتباه العلماء، ففكروا في تسخين الخصيتين ورفع حرارتهما قصد منع تكون الخلايا المنوية والحيلولة دون نضجها، وذلك لمن يريد منع الحمل، وقد أثبتت التجارب التي أجريت على الحيوانات أن رفع الحرارة الموضعي بضع درجات يوقف إنتاج النطف، أما كيس الصفن المعلق بين الفخذين من أسفل البطن، وهو ليس بكيس عادي، فنرى أن الكيس يرتخي عند التعرض للحرارة أو عندما يكون الجو حارا وينقبض عند تعرض منطقة ما بين الفخذين للبرودة، وهو بذلك يعمل كالأم الحنون على طفلها تضمه تارة وتبسطه تارة أخرى. كما يحدث الآن لخصيتي صاحب السجن العاري الذي يحدث ذكره حديث الأصدقاء، لم يكن يحدثه بل بالأحرى كان يعاتبه عتابا فيه حنو، ويقول له وهو يرفع رأسه المدلدل الذي لا يقوى على الانتصاب كما في ساعات الذروة: آه يا اللي هتوديِّني في داهية إنت. ساعتها شعرت بأزمة هذا الرجل، خاصة وأنه كان يقول ذلك، وأشعر بأن الدموع السخينة قد اغرورقت في عينيه، ومما زاد

من شعوري بالمأساة، أنني لم أشعر أنها مأساته وحده، إنها مأساة رجال كثيرين لا يستطيعون السيطرة على هذا الحيوان غير العاقل، الذي يرقد بين أفخاذهم ويوردهم موارد التهلكة. مساكين الرجال حين يقودهم حيوان أعور كثيف الشعر فيجعلهم يدخلون في حائط سد، وربما يكلفهم حياتهم، تقدم كقربان لذلك الحيوان الباحث عن اللذات، ولا يهمه أن يقتل إنسانية هذا الرجل أو ذاك. وجدتني على الفور أتذكر قصيدة ألقاها على مسامعي صديقي الشاعر.

وبين فخذيه شيء لست أوصفه ولا أخال له في الناس أشباهُ
منتفخ الأوداج والعرق بارزة وأصلعٌ وكثيف الشعر أدناه
لمسته بيدي فانهلّ مدمعه أواه مما سألقى منه أواه
ورحت من دون أن أدرى أمصمصه ما أمتع المص في قلبي وأشهاه

شعرت بالتعاطف نحو الرجل، وكدت أعود لقصة يوسف، وأعتبرهما صاحبي السجن، لولا أن رائحة الكشري مع رائحة الخمر التي تفوح من فم المخمور، بالإضافة إلى الرائحة الزنخة التي تهب من بين ملتقى فخذيه وخصيتيه، قلبت بطني كل تلك الروائح، ولم تسمح لي بأن أكون معبرا للرؤى، خاصة حين بدأ آكل الكشري يتجشأ من أعلى ومن أسفل، قاومت الإغماء بمحاولة الانشغال بقراءة المكتوب على جدران الحجز من عبارات مسيئة للنظام، لكن الذي

كان يأكل سندوتش الكشري اقترب مني، ورائحة التقلية تملأ محيط فمه، وسألني: تهمتك إيه؟

وحين قلت: أنا ماعملتش حاجة. تذكرت زميل البوكس فابتسمت بداخلي. ساعتها قدم لي نفسه عن طريق جريمته، كأنه يشجعني ويستحثني أن أخبره عن جريمتي فقال: أنا سرقة بالإكراه. كانت جريمته لا تتناسب مع الطريقة الوديعة التي يقدم بها نفسه، فاستغربت، وأسهم حجمه الضئيل في اندهاشي، حين تخيلته وهو يسرق أحدهم بالإكراه والآخر يستهتر به لضآلة حجمه، ساعتها سيخرج صاحب السجن مطواته، ويغزها في جنب الزبون الذي سيعرف لحظتها أن صاحب السجن يأخذ سرقته على محمل الجدية.

فيخرج الزبون كل ما في جيبه، ويتخلى عن ساعته وخاتمه، ويحسبها صح، ويدرك أن حياته أهم من النقود والدبلة والساعة والولاعة. كما أخبرني صاحب السجن عن إستراتيجيته في السرقة بالإكراه، وأفاض في شرح نفسية الزبون حتى خلت أن الرجل باحث سيكولوجي في علم الجريمة، وليس مجرد مجرم يقضي عقوبة السجن.

الألفة التي بيني وبينه بددت الوقت، ولم يتبقَّ لي سوى أن أفصح عن سبب احتجازي وسجني، وحين أخبرته لم يصدق، وهنا تدخل صاحب السجن الآخر قائلا: إيه "الخرا" ده. وتحدث عن أنه من

المفروض على الدولة أن تساعد مواطنيها على الشرب والمخدرات، حتى ينسوا همومهم اليومية، ويبيتوا راضين عن دولتهم، تحدث - الذي كان يعاقب ذكره منذ قليل - وكأنه مصلح اجتماعي يريد خير هذه البلاد والعباد، ولما انخرطنا في حديث جدي، لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من تخيل ذكره المدلدل، الذي جلب له السجن والاتهامات الباطلة، من نساء ظالمات لرجل مثله يريد أن يمتعهن. لكن فيما بعد توقف تعاطفي حين كنت أقلب في موقع يوتيوب عن فيلم تسجيلي عن مناجم الذهب، فأجد فيديو مرتبطا بنفس موضع البحث حاز نسبة مشاهدة عالية تحت عنوان مثير: سرقة ذهب من صدر الستات وتحرش. أفتح الرابط من باب الفضول فإذا بي أفاجأ بصاحبي السجن بعد أن خرجا قد كوَّنا تشكيلا عصابيا، بعد أن وجدت صورهما كمطلوبين في الفيديو على اليوتيوب كعصابة تسرق السلاسل من السيدات بالقوة وتتحرش بهن وتعلم عليهن بالمطواة في أماكن حساسة.

(31)

شاعر قصيدة النثر IV

"من فضلك احتفظ بالتذكرة لنهاية الرحلة"

العلاقات العامة لإدارة وتشغيل المترو

حين وصل إلى القسم كان ذلك أثناء التحقيق معي، تقدم الشاعر من الأمين الذي يقوم بالتحقيق وهو لا ينظر تجاهي، وجهه يحمل سمت الجدية، وكأنه رجل مخابرات عتيد، أخرج من جيبه "كارنيه" وأشهره في وجه الأمين: عضو نقابة صحفيين، كان الأمين خلوقا فلم يشخر للشاعر بل قال له: اتفضل. دهشتي من كوني مرافقا له منذ فترة ولأول مرة أعرف أنه صحفي كانت كبيرة، وبدأت أشعر بالضيق وأن عبارة: "طيزين في لباس". التي أطلقها أحد الخبثاء في الندوة لم تكن دقيقة، وأخذت أتأمله باستغراب، هو حاول أن يلهيني عن هذه المعلومة الكبيرة التي خبأها عني عن طريق شرح مزايا كارنيه نقابة الصحفيين، فبموجب هذا الكارنيه يصبح الصحفي صاحب سلطة رابعة، كما ترى الدول المتقدمة دور الصحافة في التغيير. وفي مصر، يخاف كثيرون من قلم الصحفي، والدليل القوانين المقيدة للصحافة التي لا تزال تمنع الصحفيين من نشر معلومات تمس قيادات عليا في البلاد، وأخذ يذكرني بمقالات "صحة الرئيس"، ويحصل الصحفي بموجب كارنيه النقابة على مكاسب

مادية عدة، إذ يحصل على بدل تدريب وتكنولوجيا يعرف ببدل النقابة قدره 530 جنيها شهريا من مخصصات نقابة الصحفيين لدى وزارة المالية. ليس هذا فحسب، لكن يحصل حامل الكارنيه على خصم 25 - 50 % في أسعار تذاكر المترو والقطارات ورحلات الطيران الداخلي والخارجي وأتوبيسات السفر العامة والسياحية، ويتم إعفاؤه من دفع تذاكر بعض أتوبيسات هيئة النقل العام ذات اللون الأحمر والأخضر غير المميز.

كما يحصل عضو نقابة الصحفيين على خصومات 20 % عند شراء منتجات من منافذ بيع وزارة الإنتاج الحربي ويستفيد بخصومات متفاوتة من 20 - 50 % على اشتراكات العضوية بالأندية الرياضية بنوعيها النقدي والتقسيط.

وقانونيا، في حالة تعرض الصحفي عضو النقابة للمساءلة القانونية في أقسام الشرطة والنيابة والمحاكم في قضايا تتعلق بحرية النشر، تقوم النقابة بالدفاع الجبري عن الصحفي بواسطة مستشارها القانوني. ومن بين المميزات العينية لكارنيه النقابة أيضا الاستفادة بمشاريع النقابة العقارية من شقق وفيلات أو أرضٍ إذا وجدت وبأسعار أقل أحيانا من أسعار السوق وبنظام التقسيط على عشرين سنة، ولا يحق لأحد المنتفعين أن يستفيد بأكثر من مشروع عقاري، ويحصل الصحفي على خصم 75 جنيهًا على كل فاتورة تليفون من الشركة المصرية للاتصالات بشرط أن يكون مسجلا في جداول قيد المشتغلين بالنقابة.

ويستفيد العضو أيضا بمزايا مادية فيما يتعلق بصناديق ادخار أبناء الصحفيين، وكذلك صندوق التكافل ومعاش النقابة عند الممات أو بلوغ سن المعاش، وكذلك مشروع العلاج الذي يجعله هو وأسرته من الدرجة الأولى (الوالدان والزوجة والأبناء) يحصلون على خصم 70 % لدى الأطباء ومراكز الأشعة والتحاليل والمستشفيات المتعاقدة معها النقابة، وبداخل نقابة الصحفيين يمكنك دفع فواتير التليفون وحجز القطارات وخدمات البريد وتسهيل قرارات العلاج على نفقة الدولة للعضو وأسرته وذويه بشكل عام.

بعد كل هذا اللت والعجن، ربت الشاعر على كتفي كنوع من الاعتذار، هو اعتبر نفسه مسئولا عما حدث لي، كنت قد أخبرته بما جرى معي ليلة الأمس، وذلك حين أعادوا لي هاتفي في الصباح، فأجريت منه مكالمة معه، فجاء على الفور بعد أن أخبرني أنه هو والأجنبية لم يستطيعا النوم طيلة الليل، وظل يطلبني على هاتفي المحمول الذي كان مغلقا طوال الوقت، لم أصدق قصة أنهما لم يناما ليلة الأمس. عينه كانت منتفخة من أثر النوم، ويلبس البيريه الذي يلبسه حين يكون متعجلا ولا يجد وقتا لتمشيط شعره، الذي يشبه شعر محمد منير رغم أنه لا يملك بشرة سمراء.

حضر الشاعر كضامن ووقع على استلامي، وكأني طرْد قادم عبر شركة شحن، وتعهد بألا أفعل ما فعلته، سأكتشف فيما بعد أن الأمين لم يعمل اعتبارا لكارنيه نقابة الصحفيين ذي المزايا الخرافية

كما كنت أظن، لكنه عمل اعتبارا للورقة ذات المائة جنيه التي كانت متكرمشة مع كارنيه النقابة ولم ألحظها، لكن الأمين بحركة خاطفة مثل كلب مدرب التقط رائحة الفلوس، ودسها في جيبه وأخفاها ولا أجدع دافيد كوبرفيلد.

في الطريق قرر أن نستقل المترو، وكنت لا أركبه إلا قليلا، فتحمست من باب التغيير، خاصة أنه أصر أن يعزمني على عصير قصب من محل عصائر وفواكه أمل حياتي أمام المترو، الموجود على ناصية القسم، كان بجوار محل عصير القصب نفق فتذكرت عادل إمام وهو يقول للقاضي الجليل نظيم شعراوي في مسرحية "شاهد مشفش حاجة": عارف بتاع القصب اللي بعد النفق. فيرد القاضي الجليل الذي يغطي البياض فوديه بحسن نية وصوت أجش: آه. فيرد عليه سرحان عبد البصير: وحش ماتشربش منه، فأبتسم رغما عني.

أتذكر أبي الذي كان يحب تلك المسرحية جدا لدرجة أن أول شريط فيديو اشتراه بعد أن جلب لنا فيديو كاريونس وارد ليبيا كان مسرحية "شاهد مشفش حاجة" وكان يقلد عادل إمام أحيانا حين يعطي أمي كوب الشاي الفارغ إلا قليلا: امسكي. فتمد أمي بحسن نية تشبه حُسن نية برعي صاحب السبعة عيال في الشهر يدها، لتلتقط كوب الشاي، فيرد أبي وهو يقلد وجه عادل إمام تماما: أعصابك.. طول ما أنتِ ماسكة أعصابك ولا حد يقدر يعمل معاكي حاجة.

فتنفجر أمي في كريزة ضحك، وتخبط أبي في مياصة: ينيِّلك، ده أنا صدقت، ثم تشير لي أنا وأخي وتقول: بصوا يا عيال أبوكو بقى شبه عادل إمام. أطالع وجه أبي الغارق في الكحة من كثرة الضحك حتى يحمرّ وجهه تماما فتربت أمي على ظهره قائلة: يعني لازم تهزر، فيستمر أبي في الضحك المصحوب بالكحة ويقول: أنا متأكد إني الراجل الوحيد اللي هيموت م الضحك. فتشير أمي إشارة نفهمها ونجري على المطبخ ونحضر منقوع القرنفل الذي يشربه أبي إذا أصابته النوبة. تحولت ضحكة أبي المميتة إلى نظرة حزن وكأني أراها حقيقة في عينيه، لأنه لو كان ما زال على قيد الحياة لن يروقه أبدا أن يصبح ابنه البكري "حبسجي"، أفقت على ضحكة الشاعر وهو يقول كنت هتلبس في عمود، أنا مشربك عصير قصب مش حاجة أصفرا.

بعد أن اجتزنا العمود، دخلنا نفق المترو، الذي كان يعج بالرواد، اتجه الشاعر إلى شباك التذاكر، بينما وقفت أنتظره، ولأني من ركاب الميكروباص المعتادين، هالني الكمّ الهائل من البشر الذين خرجوا من داخل أحشاء المترو الذي توقف في المحطة، مما جعلني أتخيله رجلا ذا معدة هائلة، كل دقيقة أو دقيقتين يقذف ما في جوفه في شكل "طراش" من البشر.

لاحظت أن الناس داخل عربة المترو التي التحقنا بها ينظرون إلى الشاعر نظرات غريبة، في البدء اعتقدت أنه واحد أو اثنان

فقط يراقبانه، لكن بعد فترة وجدت أعناق معظم من في العربة قد لويت باتجاه صديقي شاعر قصيدة النثر، وبدوري تطلعت إليه لعلي ألحظ الشيء الغريب الذي يجذب الناس إليه، ويجعلهم يتطلعون إلى منظره. ولأول مرة منذ أن جاء الشاعر ليصطحبني من القسم أدرك أنه يرتدي ما يشبه فردة الحلق في أذنه. صحيح هي كانت صغيرة، لكنها كانت كافية لتجعلني أتطلع إلى أذنه مثل بقية الركاب. ذكّرني بالحلق الذي كانت تضعه أمي في أذني وأنا صغير حتى لا أموت أو أتحسد مثل إخوتي الذكور الذين ماتوا قبلي.

(32)

ربة المنزل المهذبة II

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾

سورة آل عمران

عشت طفولة متأرجحة بين الذكورة والأنوثة، حتى جاء أخي الأصغر، فرحم حيرتي، وجعل أهلي وخاصة أمي ربة المنزل المهذبة، تتأكد أني لن أموت.

كانت أمي يموت لها من الذكور الكثير. مات قبلي ثلاثة، حكت لي أمي عنهم كثيرا، وكانت كلما تجيء سيرتهم تدمع عيناها، تقول عن الأول إن وجهه: زي القمر مدورً. وأنه ساعة ولد كان وزنه 5 كيلو جرامات، وقد شهقت الداية حين رأته فمات وعمره 3 شهور، فتشاءمت أمي من هذه الداية، وقررت أثناء حملها بطفلها الثاني، أن تذهب لتلد في مستشفى - وليس على يد الداية التي شهقت حسدا - أخي الفقيد الثاني، الذي كما كانت تقول أمي عيونه ملونة زرقاء، فشهقت الممرضة، التي حملته من جمال وزرقة عينيه، ولم تقل ما شاء الله، وبعد 5 شهور مات أخي الثاني، فقررت أمي دون أن تدري أن تلد في بيتها، وبالفعل ولدت ابنها الثالث دون داية ومستشفى، كل ما فعلته هو طلبها من أبي مية سخنة. ولما عرفت نساء الحي حين جئن للتهنئة الطريقة التي وضعت بها أمي شهقن، فمات أخي الثالث بعد 7 شهور.

أوعز الواعزون إلى أمي أن ذلك حسد، لذلك طلبوا من أمي إذا جاء المولود القادم ذكرا، وقد كنت، فعليها أن تلبسني حلقا، وتضع لي كحلا في عيني، وتناديني باسم فتاة. وعلى أمل ألا يفقدني، رضخ أبي لهذا الابتزاز العائلي من جانب أمي وأهلها، على أن تتم معاملتي داخل المنزل كذكر مكتمل الذكورة، بلا حلق ولا كحل.

ملابسي ظلت محايدة لفترة طويلة، وكان أكثرها عددا من "الترنجات" يصلح للجنسين، لكن ذلك أعطاني فرصة هائلة للتقرب من عالم البنات الصغيرات لم تمنح لأحد من أبناء جيلي من المنطقة، التي كنت أقطنها آنذاك مع عائلتي، أعطاني فرصة لممارسة ألعاب كانت ممنوعة عن الذكور، ممنوعة عليهم أن يلعبوها مع الطفلات الصغيرات، فاكتسبتُ عادات بناتي، ظلت تلازمني إلى الآن. فأنا أجلس مضموم الساقين طوال الوقت ولا أفرجهما إلا قليلا حين أتذكر أني رجل، وساعتها أفشخ رجليَّ، وحين أضحك لا أزال أضع يدي على فمي، كما اكتسبت تعاطفا واسعا مع النساء من باب الظلم الذي يقع عليهن منذ نعومة أظافرهن.

أن تعيش كبنت - حتى لو كانت طفلة جزءا من يومك، فهذا بالفعل ليس أمرا سهلا، بداية من اضطهاد ذكور الأطفال المماثلين لك في السن، مرورا بتعامل الأهل، والتفرقة بين الولد والبنت، بينما الأولاد يفعلون ما يفعلون بكل أريحية. بالإضافة إلى أنك تنشغل بإزالة كل

ما يثبت ذكورتك، ففي تلك الفترة اللعينة من حياتي، كنت أفكر كثيرا في إزالة قضيبي وخصيتيّ، حيث كنت أضع يدي عليهما وأنا وحدي، وأحاول تخبئتهما لأرى نفسي من غيرهما، وأنظر إلى جسدي دون أن يظهرا، فأراني أجمل، لكن حين أتخيل مدى الألم، الذي سيحدث لي عند إزالتهما من جسدي أتراجع.

كانت أمي حريصة قبل نزولي إلى الشارع أن تجعلني أكتحل، وتقول إن الكحل سنة، علمتني كيف أفعلها وحدي، وضعت كحلا في عينيها أمامي أكثر من مرة، وطلبت أن أقلدها، ولما دخل علينا أبي أصابته نرفزة شديدة، وطوَّح ببعض المساحيق، التي كانت على التسريحة، وقال لأمي: إنتي بكده هتضيَّعي الواد مني، فردت عليه أمي بحسم مهذب: مش أحسن ما عمره كله يضيع، قالتها دون انفعال أو تقطيبة جبين لما فعله أبي، فرضخ مثل طفل صغير، وخرج مهزوما من الغرفة، وعدنا أنا وربة المنزل المهذبة لنكتحل من جديد، كنت لا أعرف حينها ما القوة العظيمة التي تستمدها أمي في مواجهة أبي، في ذلك الموضوع الذي ظل يؤرقه، ولم أكن أعرف ساعتها، لماذا سأضيع إذا لم أضع الكحل في عيني؟ كل ما عرفته ساعتها أن الكحل والحلق للشارع فقط، أما بمجرد دخولي البيت، والتأكد من عدم نزولي مرة أخرى، فهذا يعني أنه محتم عليّ أن أغسل وجهي، وخاصة عيني المكحلة جيدا، وأن أخلع الحلق، وقد أفادني ذلك كثيرا في فكرة الهروب من النزول إلى الشارع أحيانا، لأشتري لأمي

بعض الأشياء البسيطة من البقال، وكانت الحجة الجاهزة: أنا غسلت وشي، وقلعت الحلق.

ساعتها تسحب أمي من سكات عباءتها السوداء، وتضعها على بدنها، وتنزل مرغمة إلى الشارع، فأقول لها متوسلا: خديني معاكي: فتنظر لي من فوق لتحت وتقول: لااااأ. تقولها طويلة ممطوطة منغمة، وكأنها تعاقبني بود.

مرات قليلة، نزلت إلى الشارع، وأنا لست مكتحلا، ولا أضع قرطي الصغير في أذني، ولا حتى أضع قدمي في حذائي الأبيض، الذي جلبه لي أبي من باتا، لأن أبي حملني، وجرى بي في الشارع، بحثا عن تاكسي، يقلنا لأقرب مستشفى أو عيادة، لما ألهبت الحمى جسدي الصغير. كان أبي يلفحني على كتفه، وهو يسند رأسي الصغير بيده، ويجري في الشارع، مترددا في هرولة بين الرصيفين، يحاول أن يجد أي سيارة، كنت أحس بخروشة صدره وأنفاسه المتقطعة والكحة، التي يحاول كتمها حتى لا تزعجني.

تركنا أمي في البيت تبكي، ورفض أبي نزولها معنا، كانت قد أوشكت على ولادة أخي، لذا خاف عليها أبي من الحركة والشحططة. لعابي كان يسيل على كتف أبي موظف إسمنت طرة، الذي كنت أشعر أن ملابسه كلها رائحتها إسمنت، رغم أن أمي كانت تغسلها بعناية خاصة، حيث تضيف الزهرة وتستخدم البوتاس، ومسحوق

سافو الذي كان يقود حملته الدعائية في إعلانات التليفزيون الفنان الشعبي حمدي بتشان ونسرينا، وهو صاحب الأغنية التي كسرت الدنيا في جيلي: إيه الآساتوك ده.. إيه اللي ماشي يتوك ده. لكن ذرات الإسمنت كانت قد تخللت داخل أنسجة ملابس أبي، بل وتسللت إلى داخل أنسجة جسده، حتى تيبَّست بعض أجزائه مثل الرئة، كما أخبرنا الطبيب الذي صرح له بالدفن، حين كنا نستخرج شهادة الوفاة.

لما رجعنا إلى البيت بعد أن علق لي الطبيب المحاليل، وأخذت أكثر من حقنة حتى هدأت الحرارة، فاللبوس أصبح غير مجدٍ في تلك المرحلة، وجدت أمي مفحوتة من العياط، فربت أبي كتفها قائلا: ماتخفيش ما هو زي الجن آهو، لحظتها انخرطت أمي في نوبة جديدة من البكاء، وقالت لأبي، وهي تقبّلني: كنت خايفة ليموت. ساعتها يخرج أبي سيجارة سوبر طويلة، ويقول مبتسما: أمّال لازمة الكحل والحلق إيه؟ ثم يفاجئه البول، فيجري مزنوقا إلى الحمام.

(33)

موظف طرة الإسمنت II

"مقطوع من شجرة"

مثل شعبي

تعتبر الصين التي تضم ثلث المدخنين في العالم أي أكثر من 350 مليون شخص مملكة التبغ، ومسقط رأس السيجارة الإلكترونية التي يقدمها مخترعها على أنها البديل الفاعل لوقف التدخين، رغم تشكيك الأخصائيين، ويقول هان لي، مخترع السيجارة الإلكترونية ورئيس مجموعة رويان "منتجنا يوفر حلا أو طريقا يساعد الأشخاص الراغبين في التوقف عن التدخين، الأمر يساعدهم على تخطي مرحلة صعبة في عملية الإقلاع عن التدخين".

وأطلقت رويان وتعني بالصينية "مثل الدخان" في العام ألفين المنتج الجديد، وهو على شكل أنبوب أبيض يحتوي على بطارية ويشبه السيجارة الأصلية، وتقترح الشركة المنتج بطعم النعناع وسيجارا وسيجارة كلها إلكترونية.

وعندما يستنشق المدخن تحرر شحنة موضوعة في الأنبوب النيكوتين الموجود فيه، دون أن يحترق، في حين تشتعل لمبة حمراء صغيرة عند طرف السيجارة مما يعطي الانطباع بأنها مشتعلة،

وتؤكد شركة رويان أنها باعت أكثر من مليون سيجارة إلكترونية في العالم بأسره ومنها في الولايات المتحدة وأوربا والشرق الأوسط.

وتقديم علب سجائر لا يزال أمرا رائجا في الأعراس أو علاقات العمل، لكن منظمة الصحة العالمية تعتبر أن السيجارة الإلكترونية التي تسوَّق بشكل كبير عبر الإنترنت والتليفزيونات ليست الحل المثالي للتوقف عن التدخين. أما طبيب أبي الأخير فقد رأى في السيجارة الإلكترونية الحل الأخير، كي يقلع أبي عن التدخين، لكن الفائدة الوحيدة لتلك السيجارة أنها لم تلسع جارتنا.

ذات مرة رأيت أبي يزنق جارتنا عاملة مشغل النسيج الذي يقع في أول الشارع، بينما تلك السيجارة الإلكترونية في فمه، كانت تسأل عن أمي، فقال لها أبي إن أمي تحضر الطلبات من السوق، بينما كنت أنا أذاكر درس اللغة العربية الذي يتحدث عن حمدان الصياد الماهر، نظرات أعينهما تقول إنه كان بينهما ود قديم، أو إعجاب متبادل. لاحت الفرحة في عيني الجارة عاملة المشغل، التي كانت تريد من أمي "رأسي ثوم"، أخبرها أبي أن الثوم موجود في البلكونة، يتحرك ناحية الشرفة، فتتبعه، بينما الدرس الذي أستظهره يؤكد على أن حمدان صياد ماهر. يغيبان بعيدا عن ناظري في رحلة البحث عن "رأسي الثوم"، وحين يستعصي عليَّ معرفة مرادف مفردة قنص التي جاءت في أسئلة نهاية الدرس، أقوم إلى الشرفة لأسال أبي عن

معنى القنص، فإذا به يزنق جارتنا أو بالأحرى تزنقه جارتنا في ركن الشرفة، في يدها "رأسي ثوم"، وفي فمه السيجارة الإلكترونية، وهي تحاول أن تتحاشاها قائلة في غنج: حاسب لتلسعني.

فيجيب أبي بصوت ذكر هائج في رخص وابتذال: ماتخفيش دي سيجارة مابتلسعش، إنما فيه حاجات تانية بتلسع.

هي رأتني قبل أبي الذي كان يوليني ظهره فسقط من أسنانها ذيل جلابيتها، الذي كانت تشمره عن ساقيها وبرقت عيناها، وغرقت في لجة من العرق، فتوقف أبي عن الطلوع والنزول عليها، والتفت فرآني متسمِّرا، وكتاب القراءة في يدي، التي تمسك بتلابيب صفحة درس حمدان صياد ماهر، آنذاك شخط فيَّ أبي: عايز إيه؟ فقلت وأنا خائف وأشير للكتاب: عايز أعرف معنى كلمة "قنص" فيبدو أبي مشوشا، ويأخذ مني الكتاب، وينظر في الدرس ويقول قنص يعني صيد.

وفي هذه الأثناء تتحرك الجارة عاملة المشغل في اتجاه الخروج، وقد تركت "رأسي الثوم" على كرسي البلكونة دون أن تنطق بكلمة واحدة ويعيد أبي "رأسي الثوم" إلى مكانهما في الخزين، فأجري مستغلا الفرصة هاربا إلى الداخل.

بعدها بشهور قليلة، يموت زوج جارتنا عاملة المشغل فتصعب على أمي تلك الجارة المسكنية التي تركها زوجها في عز شبابها،

ويترحم عليه أبى، ولا أستطيع أن أخبر أمي ربة المنزل المهذبة أن عاملة المصنع غير المهذبة لا يجب أن تصعب على أمي حالها، لأنها حاولت أن تأخذ أبي مع "رأسي الثوم"، بينما أمي غير موجودة، لأن أبي حذرني أن أخبر أمي عن مجيء جارتنا، لأن أمي لا تحب نظام الشحاتة، وأن ذلك سوف يضايقها، كان يقول ذلك وفي نظرة عينيه وعيد وتوسل، فخففت من الوعيد ورحمت توسله، بعدها ولفترة ليست بالقصيرة ظلت كل طلباتي مجابة، وعشت مرحلة من مُحن الأبناء إلى أن قرر أبي أن يوقف هذا المُحن حين عزَّلت جارتنا مع زوجها الجديد إلى بلده بني سويف.

وفي امتحان آخر السنة حين جاء سؤال في مادة اللغة العربية عن درس حمدان الصياد الماهر، لم أستطع أن أطرد مشهد أبي وجارتنا عاملة المشغل في البلكونة من رأسي، لدرجة أني هززت رأسي بقوة، كي أطرد تلك الصورة، وأركز في الامتحان، حتى إن مراقب اللجنة لاحظ ذلك، فربت كتفي في حنو بالغ قائلا: على مهلك يا بني وأنت هتفتكر. كدت أن أصرخ فيه قائلا: أنا عايز أنسى مش عايز أفتكر. وكدت أخطئ في الإجابة وبالفعل وكتبت: أبي صياد ماهر. بدلا من حمدان صياد ماهر، واستخدمت الأستيكة في مسح كلمة أبي، وكتابة حمدان بدلا منها، ورغم أني نجحت وكبرت وأخذت دروسا كثيرة أخرى، فإنني لم أنس درس حمدان صياد ماهر، ولم أنس أبدا أن القنص يعني اصطياد أبي للجارة في البلكونة.

موظف طرة الإسمنت الذي قنصه الموت بينما كان يضحك كما كان يتوقع دائما. كانت الذكرى السنوية الأولى لرحيل أمي ربة المنزل المهذبة، تذكر ساعتها أبي لها موقفا تبدو فيه طيبتها المفرطة، حين أخبرها أنه وجد بيضة ثعلب كبيرة بجوار خزان المياه، وهو عائد من الشركة، وحين استغربت أمي فكرة أن الثعلب يبيض غمز لي أبي دون أن تراني بما يعني أن أؤكد كلامه فتدخلت قائلا: طبعا التعلب بيبيض. والتفت إليَّ أبي مكملا اللعبة: وكان أنهي نوع من التعالب؟ فيرد أبي في جدية مصطنعة: اللي بيبيض بيضة بنِّي. فتتدخل أمي كي تداري جهلها وتقول: بس دي أكيد بيضة كبيرة أوي، فيرد أبي منتصرا: ما انتي عارفة آهو. ثم يلتفت إليَّ لأن وجهه كان يشي بالانفجار من الضحك قائلا: آه.. طبعا بيضة الثعلب كبيرة.

مر الموقف، وحين قامت أمي إلى المطبخ لتعد لأبي شاي ما بعد الغداء، انفجرنا أنا وأبي في الضحك المكتوم، ورحلت أمي وهي تظن أن الثعلب يبيض.

بالتأكيد، هي الآن تعرف أننا خدعناها، وأن الثعلب لا يبيض، وحين تذكرنا هذا الموقف أنا وأبي ظللنا نضحك حتى اشتعل صدر أبي، فتذكر أخي الأصغر المسافر وقال: ابن الكلب فراقه مخلي صدري عامل زي النار. ويدخل أبي وصدره يئز من الضحك ويئن من الحزن لغياب أخي، الذي لم يرسل خطابا، ولم يجرِ مكالمة بنا منذ ما يقرب من ستة أشهر، وكأنه يوقع عقوبة على أبي.

بعد أن ضحك أبي حين افتكر قصة أمي مع بيضة الثعلب في الذكرى السنوية لرحيلها، فاشتعل صدره، وبعد أن تذكر غياب أخي في الذكري نصف السنوية لسفره، ضاق صدره. فدخل حجرته ولم يخرج منها إلا محمولا على أعناق الرجال الذين كنت واحدا منهم. رحل أبي رحيلا مفاجئا مكارا بينما كان يضحك، مثل ثعلب تتوقع منه أي شيء لأنه مكار.

بعد رحيل أبي ومن قبله أمي ومن قبلهما خالي ومن قبلهم كلبي اكتمل مربع يُتمي.

(34)

كلبي الأكبر الحبيب

"وكلبي باسط ذراعيه بالوصيد"

حارس الحديقة

كلبي الأكبر رعد، هو أكبر كلب اقتنيته، مقارنة بكل الكلاب التي ربيتها في طفولتي ومراهقتي بدءا من جراوي كلاب السكك مرورا بالكلب اللولو والكلب الصيني الشينواه، حتى رعد الذي كان ثمرة تحويشة عمر الإجازة الصيفية بالصف الأول الثانوي، حيث عملت لمدة أربعة أشهر في شركة يابانية للمقاولات تعمل في مصر اسمها كاجيما، رأيته أول مرة عند صاحب ورشة نجارة في طريقى، ومن ساعتها أصبح هدفا لي، بعد أن عرفت أن صاحب الورشة يعرضه للبيع، كل يوم أمر عليه ألاعبه، وأمسح على رأسه بينما أطفال الشارع يرذلون عليه، لذلك قررت أن أنقذه من هذا المصير، خاصة أنه كلب بيتبول قوي يملك بنيانا جسديا رائعا، ولما عرف صاحب ورشة النجارة حماسي للكلب البيتبول أطلعني على قصته، وقال إن له أقارب في أمريكا فصدقته لأني أعرف أن جنسية هذا الكلب أمريكية، ودخل الورشة وأحضر لي حافظة أوراق بها كل أوراق رعد، الذي عرفت أن له اسما آخر مكسيكيا حيث تم نقله عبر مطار المكسيك وأن اسم رعد هو اسم عربي أطلقه عليه النجار.

أدهشتني الأوراق الثبوتية لرعد التي قد لا أمتلكها أنا في بلدي، فهو يحمل جواز سفر أمريكيا وشهادة ميلاد وشهادة تطعيمات وروشتة طبيب مكسيكي وروشتة طبيب مصري.

في نهاية الإجازة الصيفية استطعت شراءه. سرت به في الشارع مزهوا الكل ينظر إليه بحذر وإعجاب وخوف، بينما أجرُّه من سلسلة عنقه حتى إن بعض الأطفال قذفوا باتجاهه كرة جلد، فمزقها إربا، وسط تصفيق العيال الذين لم يحزنوا على الكرة، بقدر فرحتهم بمهارة رعد.

أبي حين رأى رعد جفل منه وقال: الكلب ده مش هيخش بيتي. عدت أدراجي أنا ورعد، لا أعرف ماذا نفعل؟ ثم هداني تفكيري إلى أحد الأصدقاء يسكن بالطابق الأخير، وعنده سطح كبير.

استقبلني الصديق بالترحاب، وحين عرضت عليه الأمر وافق شريطة أن يأخذ نصف ما نحصل عليه من فلوس أو جراءٍ مقابل تزويج الكلب، حيث إن القاعدة السائدة بين مربيي الكلاب هو إن كنت تملك كلبا ذكرا، و"نط" على أنثى فحبلت منه يأخذ صاحب الذكر نصف عدد الجراء المولودة أو ثمن "النطة". وافقت على أن نتقاسم الرزق، وطلبت من صديقي بما لديَّ من خبرة في الكلاب أن يخبر أي شخص يرغب في تزويج أنثاه من رعد، أن ميعاد "التنطيط" من اليوم السابع من بدء الحيض. وأفهمته كيف تتم عملية التزواج، حيث

يثب رعد على الأنثى بالطريقة التالية: نجمع بين رعد والأنثى في مكان واحد ويُتركان حتى إذا ما تمكن الذكر من الوثب على الأنثى يُفصلان بعد إتمام عملية الوثب بنحو 15 دقيقة على الأقل، وتكرر هذه العملية ثلاث مرات، يوما بعد يوم وتتم بعدها عملية اللقاح.. وشددت على صديقي عدم إجراء عملية الوثب بعد الأكل مباشرة، بل تكون بعد تناول الغذاء بساعة على الأقل.

وأخبرته عن الحالات الشاذة عند بعض الكلاب في الوثب: أحيانا قد يوجد عند عملية الوثب عدم تكافؤ بين الذكر والأنثى، مما ينجم عنه عدم إتمام عملية الوثب، وتعتبر هذه الحالة شاذة بين الكلاب، وترجع إلى أحد أمرين، إما أن يمتنع الذكر عن الوثب بطبيعته، وفي هذه الحالة يجب تغيير الذكر بآخر، وإما أن تمتنع الأنثى عن قبول الذكر رغم استعدادها للوثب نتيجة لخوفها، فإذا كانت بكرا ولم يسبق لها التزاوج، تعالج بوضع كمامة على فمها، حتى لا تتمكن من عقر الذكر، ويساعد رعد في تمكين الوثب عليها بمسكها بمقود. ثم قلت لصديقي: لا تفرق الأنثى في حالات الوثب عليها بين أنواع الكلاب، فهي تقبل أي ذكر يحاول الوثب عليها مهما كان نوعه، فيقول صديقي معلقا في ذكورية مفرطة: النتي كلهم شراميط يا معلم.. حتى في الكلاب!

تجاهلت تعليقه حتى لا أنكأ على جرحه القديم الذي أعرفه، من خيانة حبيبته له مع أقرب أصدقائه في الثانوية المعمارية.

أكملت، لذلك لا يشترط أن تكون الأنثى بيتبول حتى يتزوجها رعد، بل عليه أن يخبر من يريد أن يحسِّن نسل كلبته فليحضرها إلى رعد. هنا ضحك صديقي محاولا أن يدوس بضحكته على ألمه الشخصي وقال: أعتبر ده إعلان؟ فابتسمت وقلت: آه يا خفيف.

أكملت شرحي مواصلا متعتي في الحديث عن عالم الحيوان: تقوم عضلات مهبل الأنثى بالضغط على العضو الذكري، حتى يتم إنزال جميع الحيوانات المنوية، وتفريغ القضيب منها، حيث إن الكلاب تنتهي سريعا إلى النزول، وإخراج القضيب من الأنثى قبل عملية الإنزال بسبب عوامل الخوف، فتقوم الأنثى بالضغط على العضو الذكري بحيث لا تسمح له بالتنصل بعد انتهاء القذف، وذلك لتعطي الأنثى لمنويات الذكر الذي اختارته الفرصة للوصول إلى البويضة، هذا الأمر يمنع بقية الذكور من الدخول في الفترة الحرجة على الأقل، وذلك نظرا للتركيب التشريحي للأعضاء التناسلية للذكور والإناث في الكلاب، فإنه يحدث رباط بين الأعضاء التناسلية أثناء وبعد الجماع. فالذكر لديه جزء في القضيب ينتفخ أثناء الجماع فقط، ويشبه البرتقالة الصغيرة، فينحشر داخل العضو الأنثوي، أما الأنثى فتتميز بعضلات مهبل قوية جدا، مما يؤدي لانحشار هذا الجزء الكروي للقضيب داخل مهبل الأنثى، ولا يستطيع كلاهما الفكاك إلا بعد انتهاء انتصاب هذا الجزء الكروي من القضيب، وأيضا ارتخاء العضلات العاصرة لمهبل الأنثى.

مدة الحمل عند الكلاب تتراوح بين 58 و63 يوما، وعلامات الحمل يستدل عليها؛ بكبر البطن وانتفاخ الخصر، وتورم السفرتين باحتقانهما، ووجود اللبن في الثدي عند الضغط على إحدى حلماته.. وتتحاشى الكلبة من تلقاء نفسها الإتيان بأي مجهود أو حركات عنيفة، وفي الأيام الأخيرة يمكن الشعور بحركات الأجنة عند جس جدران البطن، وفي نهاية الحمل يلاحظ على الكلبة القلق والاضطراب ومحاولة الحفر في الأرض، حتى لو كانت غير ترابية.

وشرحت لصديقي طريقة العناية بالكلبة فترة الحمل، ليخبر أصحابها خاصة الذين سنتقاسم معهم الجراء، حيث في الأسبوع الأول من الحمل، تروَّض الأنثى ترويضا خفيفا لمدة 15 دقيقة يوميا في الصباح والمساء.

من الأسبوع الثاني إلى الأسبوع السادس، يجب الترويض الخفيف حتى لا ينتج عن ذلك إجهاض للكلبة. كما يجب إبعادها عن الكلاب الأخرى بوضعها في مكان خاص (حظيرة) لتكون طليقة بها، وتعدّ لها فرشة لينة لتنام عليها، ولإبعادها عن صلابة الأرض. بعد مُضي 55 يوما من تاريخ الحمل تجهز الحظيرة تجهيزا صحيا لاستقبال المواليد.

يجري تطهير الثدي للوقاية من بويضات الديدان وما شابه ذلك، من الأمراض المعدية والسريعة الانتقال إلى الجراوي عن طريق

الرضاعة. هناك حالات شاذة عند بعض إناث الكلاب أثناء الوضع منها؛ تأكل الكلبة أولادها أثناء الوضع. وتعليل ذلك أنها تصاب بحالة عصبية من آلام الولادة مما يجعلها تأكل أولادها بحركة لا شعورية تخلصا من هذه الآلام. الخوف المفاجئ عند دخول شخص غريب عليها فتخشى على أولادها وتأكلها. عدم استقرار الكلبة عند الوضع مما يجعلها تنام على بعض الجراء مما يسبب موتها.

تحتضن بعض إناث الكلاب عددا من جرائها، وتهتم برضاعتها وتمنع بعضها الآخر، فلا تمكنها من الرضاعة مما يسبب ضعفها وموتها، وللحيطة من نتيجة هذه الحالات الشاذة تجب مراقبة الكلبة في الأيام الأخيرة من الحمل، حتى إذا ما بدأت في الولادة يكون بالقرب منها شخص له دراية - وتكون الكلبة نفسها على علاقة طيبة بهذا الشخص - حتى يمكن ملاحظتها للمحافظة على أولادها. وتستمر المراقبة لمدة 3 أيام على الأقل بالنسبة للحالة الأولى والثانية والثالثة، أما بالنسبة للحالة الرابعة فتراقب لمدة أسبوعين حتى يتم تفتيح أعين الجراء بعد 12 يوما من تاريخ الولادة، وتعتبر هذه الحالات من أقبح العادات عند الأمهات، وفي هذه الحالة يمكن البحث عن أم أخرى حنون لتقوم مقام الأولى للرضاعة، أو يمكن إرضاع الجراء عن طريق الرضاعة الاصطناعية.

أما عن الخصال الطيبة عند الأم التي تكون بحالة طيبة عند الولادة، فهي تكون في حالة استقرار وتلحس جراءها برفع الغشاء

الذي يغطيها عند الولادة، وتدفئها بضمها إلى مكان الثدي وتمكِّنها من الرضاعة، وتحاول مداعبتها بحنان مما يجعلها في حالة نشاط مستمر.

نجحت التجربة في البدء.. كنت المسئول عن إطعام رعد وتمشيته يوميا، بينما صديقي يحضر الزبائن بإناثهم ليطأها رعد، لكن حين اقتربت مواعيد امتحانات الثانوية العامة، أجبرني أبي على التزام البيت خاصة أنه لم يعد هناك ذهاب للمدرسة في الأيام الأخيرة، تواصلت مع صديقي بالتليفون، وطلبت منه أن يعتني بالكلب وبتمشيته فوعدني. بعد أيام أخبرني صديقي بأن رعد لا يأكل، وتبدو عيناه دامعتين، ويرفض أن يثب على أي أنثى، ثم اختتم كلامه بعبارة أسالت دموعي: شاكله زعلان عليك.

أغلقت الخط وأنا مصمم على الذهاب من جديد كل يوم لإطعام رعد وتمشيته، حتى لو غضب أبي، لكن كيف أفعل ذلك وأبي منذ خرج معاشا مبكرا، وهو لا يغادر عتبة البيت. تحجَّجت بالحصول على ملازم إنجليزي من صديقي وأبي كان يعرف من خلال درجاتي أني ضعيف في الإنجليزي فوافق.

في الطريق إلى رعد كنت أفكر هل أستطيع كل يوم الخروج بنفس الطريقة. حين وصلت إلى بيت صديقي وجدت لمّة كبيرة أمام

العمارة. ألفيت صعوبة في الوصول إلى صديقي الذي كان يقف مذهولا، وبمجرد أن رآني أجهش في البكاء وارتمى في صدري، وأشار إلى اللمّة قائلا: رعد مات.. رعد انتحر عشانك.

أبعدت صديقي بسرعة عن صدري، واقتحمت تجمع الناس موسعا مكانا لي بيدي كمن يصارع الموج لحظة الغرق، لألقي نظرة أخيرة على رعد الذي كان يملأ الدم شدقيه والحزن وجهه والدموع عينيه، وهو باسط ذراعيه بالوصيد.

(35)

شقيقي الأصغر البرنس

"من لا يعمل لا يأكل"

مثل صيني

شقيقي الأصغر الذي كان سببا في أن أخلع القرط من أذني، وأرفع الكحل من عيني، هو أيضا الذي منع عيني أن تكتحل بالنوم أوقاتا طويلة في حياتي، في طفولته كان لا يتوقف عن البكاء طوال الليل، فكنت لا أعرف النوم الهنيء، وكانت كل محاولات أمي لإسكاته تفشل، وحين كبر سافر إلى بلاد بعيدة: الصين، وكانت تنقطع أخباره بالشهور لا حس ولا خبر فيطير كحل النوم من عيني وعين أبي، الذي مات ولم يحضر شقيقي جنازته.

شقيقي الأصغر تاجر شاطر، يذهب إلى الصين ليستورد بضائع صينية رخيصة الثمن، يعطيها لتجار هنا بثمن أغلى، لكنه رخيص أيضا.

كان أبي يقول عن أخي: الواد ده عامل زي الشوام، شاطر في التجارة، لكن أبي أيضا كان يتهمه أنه عملي أكثر من اللزوم، أبي عنده حق، فشقيقي لم يكن عاطفيا مثل بقية أفراد عائلتنا، وحين كنا نجلس ونتفرج على فيلم الخطايا لعبد الحليم حافظ، نبكي حين يضربه

أبوه على وجهه، فيضحك شقيقي الأصغر، بينما نكون أنا وأبي وأمي غارقين في البكاء، وتقول أمي: الواد ده برَّاوي، مش عارفة طالع لمين. لكن شقيقي البراوي الذي لا يشبهه أحد، كان يرد على أمي ويقول: شبه نفسي. فيرد أبي: طول عمرك من يومك "تنك". فأصدق أبي، لأن أخي في الصور العائلية التي جمعتنا، يقف معتزا بنفسه مع أنه كان صغيرا، ومش باين من الأرض، كما يقول أبي، شقيقي الأصغر يقف في كل الصور يضع يده في وسطه مزهوا بشعره الناعم وبنطلونه الجينز المموَّه، وصندله البني ذي السيور، بينما أبي يضع سيجارة في فمه، يمسكها بيد، واليد الأخرى يضعها على كتف أمي، أما أنا فجالس على طقطوقة صغيرة بينهما جلبها لي المصوراتي، وأخي يحتل صدارة البرواز، لأنه قرر أن يتقدم خطوة أو خطوتين عنا في الصورة على عكس رغبتنا ورغبة المصور الذي يصف أخي بالمشاغب الصغير.

ألقابا كثيرة حصدها شقيقي منذ طفولته، لكن اللقب الذي ظل يلازمه طوال حياته هو" البرنس " أطلقه عليه مصور ستديو مروان، وأعجب أمي اللقب فألصقته بابنها الصغير، ومن بعدها قلته له على سبيل السخرية، ومن الواضح أن اللقب أعجب أخي الصغير آنذاك، فـ"شبط" فيه، خاصة بعدما قال له أبي: أنت برنس. تعليقا على تصرفه جيدا في المدرسة مع الولد الذي "نتش" منه كراسة الحساب، وأخذ

أخي حقيبة ذلك الولد السوداء، ومسح بها سبورة الفصل فاستحالت إلى اللون الأبيض.

أخي رغم أنه أصغر مني، لم يمنعه ذلك من الاعتراض المعلن على الملأ على طريقة حياتي، هو يراني نموذجا للفشل، ويقول لي: إنت ضيعت عمرك في مهنة وضيعة لا قيمة لها. وفي الوقت الذي أقف فيه بالساعات كحارس للحديقة مقابل ملاليم يكون هو كسب في هذه الساعات آلاف الجنيهات.

عرض عليَّ أن أسافر معه إلى الصين، حتى نتاجر مع أصحاب العيون الضيقة والشعر الأسود الفاحم، لكني تحججت بأبي، كيف أتركه وحيدا، وبعد أن علم بوفاة أبي جدد عرضه في نفس اليوم الذي عرف فيه بوفاة والدنا، وحاول أن يحرجني أكثر: أظن ماعندكش حجَّة دلوقتِ، وبالفعل لم تكن عندي حجة سوى أني لا أستطيع أن أغادر البيت الذي تربيت فيه، فيشخر أخي في التليفون شخرة طويلة أظن أنها كلفته كثيرا، لأنه كان يتكلم مكالمة دولية، الشخرة الطويلة فيها بالشيء الفلاني، وقال بعد أن استرد أنفاسه التي سحبها في شخرته: هتفضل طول عمرك عِلق!

شقيقي الأصغر البرنس يراني دائما "عِلقا" لأسباب تخصه. وفي المرات القليلة التي تشاجرنا فيها في مراهقتنا أو مراهقته، إن شئت الدقة، لأني كنت أسبقه بسنوات كان يزيد على تلك الجملة كلمتين:

طول عمرك "عِلق" وبكحل وحلق. إشارة إلى طفولتي المبكرة المخنثة. وكان ما يؤكد تلك الفكرة هو زواجه مرتين رغم أنه أصغر مني في حين أني لم أشبك حتى على حد تعبيره. صحيح أن زواجه في المرتين لم يكن موفقا لأن الزواج الأولاني كان منفعة، وحصل من زوجته الأولى على جنسية أمريكية استطاعت أن تمنحه ظهرا قويا حتى لا ينضرب على بطنه، كما كان يقول، والزواج الثاني كان من صينية على دين بوذا، وحين سافر معها إلى الصين عرف أن زوجته تشبه مليار امرأة صينية أخرى، وكان يتلخبط بينهن فقرر أن يوفر على نفسه عناء هذه اللخبطة، ويتعامل مع الصينيات كلهن كأنهن زوجته، من باب جلب المنافع المقدم عنده دائما على باب درء المفاسد.

لكن أخي كان يحاول أن يبرر علاقاته المتعددة بالصينيات بأن ما يعجبه في الصينيات أن: المصلحة بتاعتهم ضيقة. ولم أفهم في البداية أنه يقصد بالمصلحة فرجهن، كنت أظنه يقصد البيزنس، فاستغربت أخي برنس البيزنس الصغير، الذي لم يعد صغيرا، والذي لم يجد بابا للرزق والفرج والمصلحة الحلال أو الحرام إلا وطرقه، وفتحه بالمرة، لكن أهم ما يميز أخي أن عنده المهارة في أن يقدم نفسه على أنه تاجر شاطر، وليس نصابا. الغريب أني أغلقت كل باب للفرجة على أفلام بورنو، تخص كل ما هو صيني أو كوري أو ياباني أو

شرق آسيوي، لأني حين أنظر إلى فروجهن أو مصلحتهن الضيقة، أشعر، وكأني أتفرج على زوجات أخي الصينيات.

تاجر أخي في كل السلع من أول سجادة الصلاة وفانوس رمضان والساعات والأقلام والولاعات ولعب الأطفال والموبايلات وساعات الحائط، حتى غشاء البكارة المطاطي، وعرائس المضاجعة واللبان الجنسي. وكان يقول لي دون خجل، إنه تعلم التجارة من زوجته الأجنبية الأولى التي علمته أن فتحة الرجل بفلوس، وأي شيء بثمن، وكل شيء يمكن تسليعه. حتى إنه شارك "الخول" صاحب المخبز البلدي في فرن فينو أفرنجي، وحين سافر إلى الصين، طلب مني أن أحصّل الإيراد الأسبوعي وأضعه في حسابه في البنك الأهلي المصري. أكثر ما كان يزعجني في مسألة تحصيل الإيراد هو أن أرى صاحب المخبز وأتذكر عينيه وهما تلمعان ببريق غريب وهو يقول: اللـه بتاعك حلو أوووى. لكن تحل محل تلك الصورة صورة جديدة، لما ذهبت لتحصيل الإيراد فلم أجد صاحب المخبز وحين ناديت عليه لم يرد، فأدخل إلى مكان داخل المخبز مكتوب عليه "غير مسموح الدخول لغير العاملين" فأرى صاحب المخبز مضرجا في دمائه وهو عارٍ تماما، وأرى ظل أحدهم وهو يقفز من الشباك.

أما صديقتي الأجنبية البلوند الشقراء، فكانت ترى الحياة من جانب آخر وهو اللذة، المهم أن تعيش لتستمتع، لا أن تعيش لتكسب.

(36)

الأجنبية البلوند الشقراء IV

"ممنوع قطف الزهور"

إدارة الحديقة

من الحِكم الراسخة في عالم الرجال، التي اكتسبت قوة الحقيقة المطلقة، التي لا يمكن زحزحتها، أو التشكيك في صحتها أن: الست لو عازت راجل هتجيبه هتجيبه.

هل معنى هذا أن الرجال ما هم إلا عرائس ماريونيت! تحركها النساء كما تشاء؟ وإلا ما معنى أن تمشي حياتك بوتيرة معينة، إلى أن تدخلها امرأة، فتقلبها رأسا على عقب.. هن قادرات على إحداث التغيير، وربما ما هو أكبر من التغيير، هن يحدثن ثورة في حياة أي رجل، قررن أن يدخلنها. الرجال مساكين، فحين تقرر امرأة ما في رأسها أو قلبها، وهي تجلس على سريرها، وتضع خطة للإيقاع برجل في حبائلها، يبدو وكأنه ذبابة، وقعت في خيوط شبكة عنكبوت تبدو واهية وضعيفة ورقيقة مثل المرأة، لكن بالنهاية تصطاده.

قالت لي الأجنبية الشقراء: هيْت لك،. نطقتها بعربية مكسرة، فلم أستوعب كلماتها، وحين قالت في عربية مكسرة أيضا: سورة يوسف، كوران. فهمت أنها تحاول أن تلعب معي دور امرأة العزيز،

فقلت لها بإنجليزية مرتبكة متعثرة، وأنا أحاول أن آوي إلى ركن شديد، أو جدار يعصمني: But I'm not Joe، وكنت أعرف أن جو هو اسم يوسف عند الأوربيين بسبب يوسف شاهين.

لأول مرة أراها كذلك مكتملة الزينة.. مهيأة تماما مثل تفاحة حمراء، مشدودة الجلد، ومستعدة للتقطيع بسكين حاد، لكني كنت لا أملك هذا السكين الحاد.

كل ترابيس الشقة مغلقة، والشقة شقتها، لذلك كانت تملك المفاتيح. الشاعر أخلف موعدنا، فلم يأت بعد. حين رأت قلقي من هجومها المباغت، توقفت عن مطاردتي إلى الجدران، توقفتْ للحظة، كأنها تتخذ قرارا داخل رأسها، ثم بدأت في خلع ملابسها ببطء، قطعة قطعة، وهي تحاول الرقص على كرسي فوتيه، تختفي خلف مسنده الضخم، ثم تعاود الظهور، لتطل بوجهها، وأحد نهديها يتدلى خارج مسند الفوتيه، مثل سبت البلكونة.

قوْلها كوران وجو ذكرني بصاحبي السجن، الذي يضع الكشري في الخبز، والآخر الذي تفوح منه رائحة الخمر. علاقتي بالقرآن وطيدة، والسبب أن أبي أرسلني لشيخ الجامع القريب من بيتنا ليحفظني كتاب الله، أبي لم يكن يحفظ من القرآن سوى المعوذتين، وقل هو الله أحد، وبعض قصار السور، وأول سورة البقرة وخواتيمها، وأول

سورة الكهف، وآية الكرسي. ولأني سريع الحفظ، حفظت كتاب الله كله في فترة قصيرة، وهذا منحني في مراهقتي المبكرة لقب الشيخ، وكان حلم أبي أن أسلم على الرئيس مبارك، وأنا أتسلم منه جائزة حفظ القرآن في ليلة القدر، وهو يقف إلى جواري بالبدلة، التي لم أره يرتديها في حياته إلا مرتين، مرة حين خرج معاشا مبكرا، وقرروا في شركة طرة الإسمنت منحه شهادة تقدير، كما منحوه من قبل شهادة رجل مصدور، والمرة الثانية حين توفيت أمي، وذهب لدفنها، وارتدى البدلة كاملة، كان يريد أن تراه أمي لآخر مرة، وهو في قمة شياكته.

لم يتحقق حلم أبي في أن نلبس البدل أمام الرئيس، لأنه لم يقدم لي في أي مسابقة من مسابقات حفظ القرآن الكريم، ولما كانت تسأله أمي عن سبب تكاسله عن ذلك يقول: هي لله. وأستغرب لماذا إذن كان يحلم بأن يرتدي البدلة، ويسلم على الرئيس.

الأجنبية التي تطل عليَّ بفردة من نهديها من خلف الفوتيه الضخم مجنونة، أكيد أنها مجنونة. تحاول أن تقلد امرأة العزيز، مع أني لم أكن جميلا مثل يوسف، الذي كان يقص أبي حكايته علينا، ويقول إن يوسف أوتي نصف الجمال كله، فأتخيله ذا شعر طويل، ولحية نابتة وأسنان بيضاء ولامعة، وعضلات مفتولة، لكنها ليست ضخمة، بالإضافة إلى كونه دارس اقتصاد أيضا كما يقول أبي، وإلا كيف أصبح وزيرا للمالية لعزيز مصر.

البلوند الشقراء لا تفهم، أو هي لا تحاول أن تفهم أني ليس لي فيها مآرب، وأن المسألة بالنسبة لي لا تتعدى أكثر من تقديس الجمال، لكنها مصممة على أن تفعل ذلك معي بأي طريقة، وكون أن بعض الأشياء غير المهذبة تحدث بيننا وأنا مخمور، فهذا لا يعني أن ذلك قاعدة، هي أيضا تقوم بأشياء مقرفة بالنسبة لي وفجة أحيانا، مثل ما تفعله الآن بمداعبة بظرها بموزة، التقطتها من طبق الفاكهة الموجود على الترابيزة، التي تتوسط الأنتريه الأمريكاني، من قال لها إن ذلك يهيِّجني، أنا رجل حالم رقيق، أعمل حارسا للمحبين، وليس بالضرورة أن أمارس الحب، تكفيني الفرجة عليه من بعيد لبعيد، ووظفيتي - والحمد لله - في الحديقة كفلت لي ذلك، أنا قلق أيضا أن يطب علينا الشاعر الآن، ويشعر بخيانتي له، ويكتمل الثالوث المقدس، الثالوث الدرامي، لكن صديقي الشاعر لم يبد حبا تجاه الأجنبية الشقراء، بل على العكس كان يشجعها على الفسق معي، هو مؤمن بأن كل النساء للرجال، وكل الرجال للنساء، وكل الرجال للرجال، وكل النساء للنساء. الشاعر لم يترك بابا للمتعة إلا وطرقه، وتلك الأجنبية مثله، وإلا فلمَ هي صديقته. الطيور على أشكالها تقع، أما أنا فرجل أحب الإعجاب الصامت، قد تعجبني امرأة أو رجل، لكني لا أبوح بذلك، فأنا مثلا وهذا في سركم، معجب بصاحبة الولد النزق، وسلطان العاشقين والأجنبية البلوند والشاعر، وأحيانا يعجبني عابرون، لكن هذا ليس معناه أن أجري وراءهم وأقول: أنا معجب.

الآن.. خبط متواصل على باب شقة الأجنبية، بعد أن فشل الطارق في الدخول بمفتاحه، فأعرف أنه الشاعر الذي يرزع الباب بكلوة يده، ثم يضرب الجرس في هيستيريا، والأجنبية تربست دماغها وبابها، ولا تحاول فتح أي منهما، وتشير لي بعلامة: هش.

فأمتثل. لا أدري لماذا، وألوذ بالصمت، ربما لأني في موقف لا أحسد عليه. تنكمش الأجنبية في الكرسي الفوتيه، وتنكمش حلمتها أيضا، تلك التي كانت صلبة منذ قليل، وألاحظ أن كرشي الصغير يعلو ويهبط من شدة أنفاسي المبهورة، في هذه اللحظة أفكر داخل قرارة نفسي، أني يجب أن أتخلص من كرشي الصغير، ومن صداقة الشاعر والأجنبية للأبد، وأعود لعملي أراقب المحبين وأحرسهم، وأحرس حيواناتهم المنوية، داخل بنك العشاق في بيتي.

(37)

حارس الحديقة VII

فاتت جنبنا أنا وهوا.. وضحكت لنا أنا وهوا
أعرف منين إنها قاصداني أنا مش هوا

فاتت جنبنا ـ عبد الحليم حافظ

"النساء مبعث الشرور في العالم ".. حقيقة لم أكن من ذلك النوع من الشبان المؤمنين بهذه المقولة، الذين يسبون المرأة بداع أو غيره، ولم أكن من الذين يبالغون في تقدير دورها الشرير في العالم، استنادا إلى أول واقعة قتل تاريخية على كوكب الأرض بسبب امرأة، لكن ذلك لا يمنعني من إنكار أن النفاق، بدأه رجل لعين على هذا الكوكب، أراد أن يغازل ويمتدح امرأة، فوصفها بما ليس فيها، كأن قال لها: أنتِ رائعة، وهي ليست كذلك، قال ذلك لشيء في نفسه. وبعدها افتتح البشر سلسلة كبيرة من سلاسل النفاق، بين مدير مغرور وموظف مهمل، بين مدرب كرة منتفخ ولاعب خامل، بين مدرس يعتبر نفسه كينج الرياضيات، وتلميذ بليد خائب، بين امرأة صاروخ ورجل منتصب. شبكة من العلاقات والمصالح. فهل حاولت الفرنسية بفعلتها أن تغير وجهة نظري، وأن أصدق مثَل بلادها الفرنسي الذي يقول: "فتش عن المرأة".

كان ما فعلته مع الأجنبية البلوند الشقراء كفيلا بأن يحطم أعصابي. لا لأنها امراة قبيحة تتحرش برجل مثلي، لكن لأني رجل

لا يحب النساء من منطلق ذكوري. أنا أحبهن وأتعاطف وأشفق عليهن كمخلوقات إنسانية رائعة، لكن مسألة أن يتعاملن معي كذكر، هذه مسألة مستفزة لأعصابي جدا، لقد صبرت بما فيه الكفاية من قبل على تحرشاتها، واعتبرتها من باب اللعب واللهو البريء، لكن أن تصل المسألة لدرجة أنها غلّقت الأبواب وقالت: هيْت لك.

فهذا ما لا أطيقه الصراحة، لماذا تتعامل معنا النساء، نحن معشر الرجال كأننا صنف واحد؟ "استامبا"، لماذا تظن كل النساء أن كل الرجال هائجون بالفطرة عليهن؟ لماذا ترى كل امرأة في فردتي الكاوتش الخلفيتين - مؤخراتهن - مصدر غواية، أو أن قطعتي المطاط - النهدين - مغويتان؟

أنا لا أرى المؤخرة التي تلهب خيال الرجال سوى كيان دهني، خلقه الله للمرأة من أجل التوازن، حتى لا تنكفئ على وجهها، من ثقل أثدائها، خاصة لو كانت أثداء مرضعة. كانت هذه النظرية الطفولية قد استقرت في وجداني منذ الصغر، حين كانت تجلس جارتنا المسيحية مع أمي أمام البيت، فمرت أمامهما، جارة تهتز أردافها بشدة، فناغشتها جارتنا المسيحية بقولها: مصر عالية أوي اليومين دول.

فضحكت الجارة مبسوطة، وضحكت أمي خجلى، وخاصة حين لاحظت وجودي، فغمزت لجارتنا المسيحية بمعنى أني موجود،

فادّعيت التركيز في حل واجب الحساب، فهمست الجارة المسيحية بصوت مسموع: يختي.. يعني هوَّ هيعرف إن مصر العالية هي طيزها؟!

تشغلني الأشياء وبدايتها والأهداف والمصالح التي جلبت لأجلها، وإلى أين انتهى المطاف بها؟ حين كنت أنظر إلى الكنبة في بيت الشاعر، التي أخبرني أنها جزء من مكتب، كان يريد تأسيسه لإصدار مجلة للشعر، فتحولت إلى كنبة للمضاجعة بحسب حكاياته، نامت عليها عارية أكثر من امرأة، ونضح عطرهن وعرقهن أيضا، واحتك جلدهن بجلد هذه الكنبة.

في الغالب نحن لا نستعمل الأشياء للغرض الذي أعدت وخلقت من أجله، فمثلا أول سكين صنعت من المؤكد لم تكن لتقطيع التفاح.. لماذا لا نحترم التخصص؟ لماذا دائما نخالف الكتالوج؟ لماذا ينظر الرجال إلى مؤخرات النساء بطريقة غير التي خلقت لأجلها؟

وإن كان كذلك كل الرجال، فأنا لست كذلك، أنا أقدِّر الإنسانية، وأحترم مشاعر الناس، فلماذا لا يحترم الناس مشاعري؟

كنت على وشك الإقدام على أصعب قرار في حياتي، وهو أن أهجر عالم الأجنبية والشاعر، بدأت أضيق بهما ذرعا، لا بد أن أستجمع قوتي، حتى لا "أهوِّب" ناحية بيت الأجنبية، ولا مقاهي الشاعر، لكني لا أزال متأرجحا، كان القرار يلقّ في رأسي، لم يحسم

بنسبة مائة بالمائة، ما فعلته الأجنبية البلوند الشقراء معي جعلني أخاف، جعلني أشعر أن هناك من يريد أن يقتحم عالمي، وهذا ما لن أسمح به مطلقا، لا أريد أن يقترب مني أحد أكثر من اللازم، لا أريد أن يزورني أحد في بيتي، أو ينام فوق سريري.

متعتي الوحيدة أن أعود إلى بيتي فلا أجد فيه أحدا ينتظرني، أو يستقبلني على الباب، أو يمطرني بقبلات، أريد أن أستلقي على سرير، لا يزاحمني فيه أحد، أنام بالعرض، أنام بالورب، لا أحد يحدد لي طريقة نومي ولا حياتي. أترك باب الحمام مفتوحا، وأنا أقضي حاجتي، أتبول وأنا واقف، وأطرطش على القاعدة فلا يلومني أحد، أسمح للضراط أن يخرج مني مستريحا لا متقطعا، ولا محتاجا لفتح صنبور المياه للغلوشة على صوت ما يخرج من بطني، أتكلم وأضحك، أقهقه لوحدي بلا سبب، فلا يتهمني أحد بقلة الأدب ولا بالجنون، لا أرتِّب فراشي بعد أن أقوم من النوم، دون تقريع أو لوم من أحد، لا أنظف حوض الحمام من بقايا شعري المتساقط، أعرف أنها أشياء بسيطة، وربما لا ترونْها أسبابا كافية لأن أمنع الآخرين من اقتحامي أو مشاركتي غرفة نومي أو حمامي، لكن لو تعملون مدى التوتر الذي بدأت أشعر به، حين وجدت الأجنبية تحاول التقرب مني، وكذلك الشاعر يقترح زيارة قريبة لمنزلي، وما زاد الطين بلة، أنه عرَّفني على رجل، مثل ضلفة الدولاب، قال إنه صديقه منذ أيام الدراسة، وبدأ صديق دراسته، يتقرب مني بطريقة غريبة، إذ يتلمسني

كثيرا في معرض الحديث، وينظر لي نظرات غريبة مريبة.

شعوري أن الشاعر بدأ يستغلني، أو هو بالفعل يستغل صداقتي منذ أن عرفني، جعلني أحاول أن أبتعد عن عالمه رويدا رويدا، هو لا يحسب صداقتنا كما أحسبها، هو يحسبها من باب جلب المنافع، وأنا أحسبها من باب الصداقة للصداقة. وعليه، أنا لن أنزل من بيتي هذه الليلة، لن أذهب لمقهى الشاعر. ولن أزور الأجنبية في بيتها، خاصة أن الشاعر بدأ يشك في أني كنت موجودا مع الأجنبية في ذلك اليوم، الذي طرق فيه الباب كثيرا، يشك أننا نخفي عنه أمرا ما، هو سألني في اليوم التالي بوضوح: إنت كنت عندها إمبارح؟

فأجبت على الفور: لأ. وأفضت في شرح أسباب كاذبة عن غيابي عن الميعاد، وتخلفي عن الحضور، فيخبرني أن شيئا ما قد تغير في الأجنبية الشقراء، هو يظن أنها وقعت في الحب، لكنه لا يعرف مع من؟ ويختم كلامه بأنه: مسيره هيعرف. إذن صديقي الشاعر يشك، وإذا دخل الشك من الباب فعليَّ أن أخرج من الشباك. سأعود إلى حديقتي، وقصص العشاق بها، وسأعتني بحيواناتي المنوية، وسأنام في سريري بالورب، وسأنسف كل قصائد الشعر، التي جعلني الشاعر أستظهرها، من داخل رأسي.

(38)

شاعر قصيدة النثر V

"الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان"

أوتوجراف مدرسي

مسألة إخراج شاعر من حياتك ليست بالمسألة السهلة، خاصة لو كنت مثلي تحفظ كل قصائده، فإذا هربت منه، أجد نفسي أردد قصائده، التي أحاول أصلا أن أنسفها من داخل رأسي الصغير، لكن من الواضح أن النسيان عندي ليس سهلا. فأنا كما يقول الشاعر عني صاحب ذاكرة حديدية، وهو يرى أن هذه ميزتي الكبرى، فكيف أتخلى عن ميزتي، وأفرِّط فيها بسهولة من أجل إسقاط شيء من ذاكرتي.

تمنيت لو أن رأسي به ثقب، أستطيع أن أرجّه، وأخرج قصائد الشاعر من رأسي، بحيث أراها تتساقط أمامي قصيدة قصيدة، بيتا بيتا.

صحيح لماذا لا توجد هذه الخدمة. خدمة ثقب الذاكرة، ليستطيع من خلالها الناس - كل الناس - إخراج كل ما يؤلمهم عبر رج الجمجمة جيدا، لتخرج الذكريات المؤلمة تباعا، وكلما زاد عدد الذكريات التي تؤذي أصحابها، كلما زاد اتساع الخُرم، فصاحب أكبر قدر

من الذكريات القاسية، يكون بالضرورة صاحب أكبر خُرم، وربما يسهم ذلك في أن يعامل الناس بعضهم بعضًا برقة أكثر، ومزيد من الإنسانية، مثلما تعامل كفيفا اصطدم بك في طريق، وأنت سرحان، وما إن تستعد لكيل اللكمات بتكوير قبضتك، حتى تكتشف أنه أعمى، فتتراجع وتفرد قبضتك، وتقول له بنبرة صوتية لم تسمعها من نفسك من قبل: ولا يهمك. أو حين ترى أبكم أصمّ في شارع جانبي، يجري مكالمة فيديو بالصوت والصورة عبر هاتفه المحمول، مستخدما يده ووجهه في لغة الإشارة، وتصيبك الشفقة، حين تراه "يِهاتي"، محاولا توصيل كلامه وصوته الضائع.

حين تظهر ثقوب الذاكرة في أدمغة الناس، ويُرى صاحب الخُرم في الشارع، ستتم معاملته معاملة خاصة، سنعرف أنهم أناس يعانون، ويحتاجون نظرة رحمة تشملهم، ويكون التقدير لصاحب الخُرم الكبير، وكأن المشاركة الاجتماعية تستوجب معاملة أصحاب العاهات بطريقة ألطف، وربما يروق للبعض أن يعرف ذكريات الآخرين، فيتتبع شريط الذكريات المتساقطة من أحدهم ويدخله عبر ثقبه إلى رأسه، ليدور ذلك الشريط الذي يشبه شريط السينما، فيشاهد بعضنا بعضًا ذكريات الآخرين، وربما تروج وتنشط تجارة الذكريات، أو تبادل الذكريات، ومن ثم يكون لها سوق أو شارع شهير، يقف فيه الناس لبيع ذكرياتهم، أو مبادلتها، وسيُعرف هذا الشارع فيما بعد باسم رومانسي جذاب، يدل على مضمون تلك التجارة الرائجة: شارع

الذكريات. وستنجح تلك التجارة لسببين أولهما: أن الناس ستتخلص مما يثقلها، وكلنا نذكر أغنية أصالة "نعمة النسيان" جميلة. فما بالك بالتخلص من الذكريات المؤلمة للأبد، والسبب الآخر أن تجارة تبادل الذكريات ترضي فضول الناس، لأنه - كما تعلمون - خلق الإنسان فَضُولا.

لكن من قال إن الشاعر سيتركني أسقطه هو وأشعاره من ذاكرتي؟ وخير دليل على ما أقول أنه ذات يوم، وأنا أراقب عاشقين عن كثب، ومن وراء شجرة ضخمة بالحديقة، حيث كان العاشق يشبك أصابعه، ويخللها بين أصابع صاحبته بطريقة مثيرة، إذ يدخل أحد أصابعه بين أصبعين لها، ثم يخرج إصبعه ثم يدخله، يفعل ذلك وهو يزيد من وتيرة سرعة الحركة، حتى تغمض العاشقة عينيها، وتضم فخذيها، وتفتحهما في اهتزازات رتيبة، وعينه لا تبغي عنها حِولا، وبينما كنت أنا أيضا أغمض عيني للحظة، إذا بخبط على كتفي من الخلف، فالتفتُّ، لأجد الشاعر وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شمعية قائلا: ما بتسألش قلت أسأل أنا!

ثم سكت. اعتاد أن تكون كلماته قليلة، وله في ذلك فلسفة، قائلا إنه شاعر لذلك من المفترض ألا يخرج من فيه إلا شعرا، وطبقا لنظريته تلك هو يستخدم كلامنا العادي قليلا، حتى يوفر طاقة الكلام للشعر، إلا إذا أصابته حالة رغي معلوماتي، أو كان محدثا عن نفسه.

حاولت أن أرحب به، وأن أصطنع السعادة لمجيئه إلى مقر عملي، لكن تعبيرات وجهي لم تسعفني، فبدا عليَّ الضيق واضحا، وقلت في لهجة تقريرية: اللـه يخليك، أنا كويس.

فيضحك ضحكة قصيرة، ويقول: أنت كذااب. ويمسكني من ذراعي مسكة أقرب إلى الشد، فلا أتلحلح من مكاني، وأرد قائلا: أنا كويس فعلا.

فيقترب من أذني، فأدرك رائحة فمه، وأنفاسه المعبقة بدخان السجائر، ويهمس قائلا: الأجنبية حاولت الانتحار. أرفع بصري إليه مندهشا، وقد بدأ قلبي يدق بعنف، وأكاد أصرخ، لكني أحاول أن أبدو متامسكا: بتقول إيه؟

يرد وهو يتكئ على الكلمة، وكأنه يخرجها من بين أسنانه: بسببك.

لا أعرف لماذا انتابني شعور بالخديعة، وكأنها محاولة لاستعادتي لعالمه، مثل زعيم عصابة يغري ويهدد أحد أفراد العصابة التائبين، يغريه للعودة، ويرهبه في نفس الوقت، ويهمس: مستنيك الساعة تسعة.

لكن يبقى السؤال: هل الشاعر جاء من تلقاء نفسه، أم هي التي أرسلت في طلبي؟ مثلها مثل امرأة العزيز، حين أرسلت في طلب يوسف، حتى تراه نسوة المدينة، التي أرسلت إليهن، وجمعتهن أيضا،

وأفكر أنه ربما يكون في النهاية مصيري السجن، لكن ما طمأن خيالي أن الشقراء لم يكن لها زوج ولا عزيز، بل كانت عزباء.

في هذه الأثناء كان الولد الذي يخلل أصابعه في أصابع حبيبته قد لاحظ وجودنا، ففرّت أصابعه على الفور من يد صاحبته كأنها فرّت من قسورة، وعدّل من وضع عضوه داخل بنطلونه.

وبينما أحاول التخلص من قصائد الشاعر داخل رأسي، إذ تأتيه قصيدة، فيطلب مني ورقة وقلما بسرعة، حتى يدوّن ما أوحي إليه، وحين أخبرته: معييش، قال: احفظ.

كان فضاءُ الله رحيبا في عينيكِ

وكنتُ..

أتيتكِ

خبّأتكِ في أوردتي. فاحترقي

ثم لأبعث فيكِ الرغبة

فلتتألقي

سيري في ردهات شراييني

وارتكبي فعل الحب

فما كان سواكِ ليفعله في ذاتي

ثم لتفضحنا الأوراق السرية

والأنظمة الحاكمة المحكومة

وأعدّي لي حين أجيء فرات شفاهك، ونبيذك

إني قد سرقتني منك أحاديث الشعراء التسعينيين

وما كنتُ احتجتُ لغيركِ

فلماذا.. حين يحين النزف أحسُّ بأنفاسكِ

تعبر كل تلالي، وتمهّد أرصفتي

وتجيء بزيتون الله تغطي ما بين الرجلين، وتملؤني بكِ

إني أسميتكِ بجريدتي اليومية

لا.. فجريدتي اليومية لا تخلص لي

إني أسميتكِ بالنهر، لكن النهر عبيطٌ

يسقي من لا يكرمه

لهذا سوف أسميك بـ.....

لكنك لا تحتاجين لتسميةٍ

ففضاء الله رحيب جدا في عينيكِ..

أتيتكِ..

فاحتفلي بي..

(39)

حارس الحديقة IIIV

"تكلم هامسا عندما نتكلم عن الحب"

وليام شكسبير

كنت قد قررت الذهاب إلى الأجنبية قبل الموعد الذي أخبرني به الشاعر، وكان غرضي من هذا التبكير هو أن أخبرها بما أشعر به تجاهها لكن بعيدا عن أعين وأذن الشاعر، الذي أصبح فجأة بقصائده عبئا عليَّ، حتى إني فكرت وأنا في البيت أن أدون له القصيدة الجديدة، وأقدمها له حتى يحل عن دماغي، وبالفعل أحضرت ورقة وقلما، وبدأت أكتب من ذاكرتي القصيدة التي ألقاها على مسامعي مرة واحدة.

في الطريق إلى بيت الأجنبية كان يشغلني شيء وحيد وهو، كيف أستطيع أن أتواصل معها وأنا لغتي الفرنسية لا تتعدى بضع كلمات قليلة تعد على صوابع اليد الواحدة، مثل je suis لكن ماذا بعد je suis سأقف عاجزا عن التعبير عما أقول وعما أريد. أي نعم أنا أعرف أن: أنا أريد بالفرنسية تعني je voudrias لكن ماذا أريد، أو أن ما أريده هو المشكلة، إن كنت لا أعرف ما أريده بالعربية، هل سأعرف ما أريده بالفرنسية؟ أما بالنسبة للإنجليزية، فأنا إنجليزتي ضعيفة جدا، وهي أيضا، ولسوف يصبح غريبا أن نتكلم نحن الغرباء

لغة غريبة عنا نحن الاثنين، لكني طمأنت نفسي بأن لغة الإشارة تكفي لتوصيل الرسائل، سأستخدم بعض الكلمات الدالة المفتاحية التي توضح أشياء كثيرة في كلمات قليلة والتي تدل على شيء، كما فعلت هي معي من قبل حين حاولت أن تتحرش بي وقالت: هيْت لك وجو وكوران.

رائحة العطر الذي كنت أضعه كانت نفاذة بشكل كبير، مما جعل سائق التاكسي الذي أجلس إلى جواره يسألني عن نوع البرفان، فأرد قائلا one man show ولأول مرة أركز في اسم العطر الذي أستخدمه، ربما اهتممت بالعطر لشهرة الفرنسيين الذين تنتمي إليهم شقرائي بأفضل وأشهر أنواع العطور. إن السبب الرئيسي لصناعة العطور، هو أن سكان فرنسا كانوا مشهورين بأنهم لا يستحمون إلا مرة في أسبوع، فقام أحد الرجال باختراع العطر، وذلك لإزالة الروائح الكريهة. أحاول ترجمة اسم العطر الذي أضعه، وكأن ما أفعله نوع من التدريب على الترجمة، وأترجم من الشمال إلى اليمين، one man يعني رجل واحد وأكون سعيدا بترجمة هذا المقطع رغم علمي أنه بسيط جدا، وتبقى show وأتذكر ساعتها عزب شو، والذي كان يقلد الفنانين ونتابعه بشغف، وننتظر فقرته في حفلة ليالي التليفزيون، حين كان يقلد محمد منير في أغنية الليلة يا سمرة، محرفا في كلماتها: قوليلي كام باكو معاكي، وكام كمان ويا باباكي، أصل انا معذور الليلة.. الليلة يا سمرة يا سمارة.

ثم يرفع إصبعين من أصابعه على طريقة المطرب الشهير، ويظل يلفلف سلك المايك حول عنقه، حتى يتلخفن فنضحك ويقول أبي: بيقلده بالحرف ابن الكلب، وأتذكر أبي الذي كان يضحك عليَّ في مراهقتي، حين رآني أحب محمد منير. (في تلك الفترة تحول اسم محمد منير إلى منير فقط دليلا على أني أصبحت من جمهوره الخاص الذي يناديه بمنير فقط وليس محمد منير) أبي يسخر من حبي لمنير، ويقول: بتحبه على إيه المقمِّل ده. وكان أبي يريد أن يثنيني عن فلفلة شعري بطريقة تشبه شعر منير "الملولو".

أعود إلى السائق الذي ينهب الطريق إلى بيت الأجنبية، وكأنه يعرفه جيدا، حين تهب نسمة باردة تلفحني من شباك التاكسي الذي أتكئ بكوعي على أفريزه، فتؤجج النسمة الباردة مفعول "الوان مان شو"، فأتذكر أن كلمة شو تعني عرض، وأتمنى في قرارة نفسي أن تقدم لي الأجنبية عرضا عاطفيا، وأرجو أن يتوقف الأمر عند العرض العاطفي وليس الجنسي، مثل أن تطلبني للرقص، أنا مستعد أن أراقصك لكن يجب أن تنتبهي: الرقص فقط يا عزيزتي. ترد هذه الجملة هكذا إلى ذهني، كما تجيء في ترجمات أنيس عبيد للأفلام الأجنبية، لكن من يسعفني في ترجمة هذه الجملة إلى الإنجليزية، ربما يكون سائق التاكسي الذي إلى جواري فهو بمجرد أن قلت له إن العطر الذي أضعه اسمه one man show حتى أسرع وقال: عارفه.

لماذا تفترض إذن أنه لا يعرف الإنجليزية، على الرغم من كل هذه الإنجليزية التي تحاصره، فالرجل سيارته تحمل كلمة taxi فوق ظهر السيارة واضحة وضوح الشمس رغم أن حرف الـ i طارت منه النقطة، ويعلق دبدوبا متأرجحا مكتوبا عليه I love you ويعرف عطرك one man show.

وأندم أشد الندم أني لم أستخدم ذاكرتي في الحفظ في تعلم اللغات جيدا، لكني أعود وأسامح نفسي حين أتذكر أن موهبتي فقط في حفظ النصوص ذات الجرس الموسيقي، فأنا لا أحفظ بسرعة سوى القرآن والشعر والأغاني، لا أعرف لماذا؟ لكني تنبهت لذلك من سنوات طويلة، وكان هذا سببا في فشلي في الثانوية العامة حين أصر أبي على القسم العلمي لكي أتخرج طبيبا، ربما كان يفكر أني سأعالج صدره المأزوم ذات يوم.

في طريقي لبيت الأجنبية أمر بمشاتل صغيرة على النيل جعلتني أفكر في شراء باقة ورد للشقراء، فأبدو في عينيها جنتلمانا، مما يجعل اللقاء بيننا يتخذ منحى رومانسيا، حتى أهرب من احتمالية تحرشها بي مرة أخرى. أستأذن السائق أن نتوقف أمام أحد المشاتل، يبدو السائق رقيقا ويوافق بل ويطلب مني أن أزيد الزهور الحمراء قائلا: زود ورد أحمر، الستات بتحب الورد الأحمر. ساعتها أتذكر صبيّ محل الكشري حين يرفع عقيرته: زوّد واحد ورد. وهو يقصد

البصل، فأتخيل ردة فعل البلوند وأنا داخل عليها بصحبة بصل.

أنزل درجات صغيرة مفضية إلى مشتل محندق على النيل، ويُهيَّأ لي وأنا أحاسب الرجل صاحب المشتل الصغير الذي يضع برنيطة بيضاء تغطي نصف وجهه، ويطلق شواربه مثل الباشا سليمان نجيب في فيلم غزل البنات أنه سلطان العاشقين، لكن تغيرات كثيرة طرأت عليه فقد ترهل جسده، وحلت الدهون محل العضلات، ونمت شواربه مثل قط عجوز.

وحين عدت إلى السيارة ورأسي مزدحم بذكريات سلطان العاشقين يفاجئني السائق بتشمم الوردة بقوة ويقول لي وهو يشير لي بإبهامه لفوق: كده. ويسحب وردة ويلقيها أمامه على التابلوه ويسألني: إنت عارف إن العطور بتتعمل من الورد؟ وقبل أن أجيب يحكي لي حكاية زبون أجنبي، ركب معه وكان يضع برفانا رائحته نفاذة، فلما سأله أخبره الأجنبي أن اسم العطر فلاور، ويترجم السائق: يعني زهرة. أشك أن السائق يقرأ أفكاري ويعرف فيم أفكر، وإلا لما قص عليَّ محادثته مع الأجنبي، كلام السائق جعلني أجرأ، وجعلني أفكر أن أول شيء سأفعله حين أدلف إلى بيت الأجنبية الشقراء هو أن أسألها عن اسم عطرها.

(40)

حارس الحديقة والأجنبية البلوند الشقراء

"لي حبيبة يا صديقي، نام بها الشتاء وأفاق فتيّا، كمجهول قادم من الزهد صوْب النار، خالعا أقفال الاقتصاد والعزلة، يركض كقطعة الذهب المدوّرة إلى مساء الهَمّ وفجر الطيّبة.

لي حبيبة ما إن اكتشفتها الأناشيد حتى فقدتْ أثرها.

لي حبيبة يا صديقي أحبّها لأني ما كنت أحسب أنها ستحبني.

لي حبيبة تتكرر كالفعل، والفعلُ نسيان وعذراء.

لي حبيبة تتّحد بي فهل أختبئ منها؟"

أنسي الحاج ـ لي حبيبة

كنت أحرس الحب ولكني لا أتذوقه مثل حارس حديقة فاكهة يحرس ثمارها من كل معتدٍ تحاول يده أن تقطف حَبَّ أشجارها.

ضغطة يدي على زر جرس الأجنبية الشقراء قصيرة وخاطفة، وكأني أتمنى ألا تسمع، وبالتالي ألا تفتح، وأعود أدراجي من حيث أتيت، وكفى اللـه المؤمنين شر النساء الأجنبيات الشقراوات، لكن يبدو أن الأجنبية كانت تنتظرني، فبمجرد أن رفعت يدي عن الزّر حتى وجدت الباب يفتح لدرجة شككت معها أن البلوند كانت تضع كرسيا خلف الباب، وتجلس عليه بينما يدها معلقة بالأكرة.

كانت ترتدي قميصا رجاليا لونه تركواز، يغطي بالكاد مؤخرتها الجميلة ذا أكمام طويلة تمتد خارج كفها، فلا يظهر من يدها سوى طراطيف أصابعها، مثلما نرى البطلات في الأفلام الأجنبية، ونحبهم على حالتهم تلك، كانت حلوة وهادئة على غير العادة، وأفسحت لي ابتسامتها وإشارة يدها الطريق، فدخلت.

أجلستني بجوار الشراب الذي أعدته لنا زجاجة النبيذ، والكأسان

الفارغان، ومكعبات الثلج، تقول إن كل شيء مرتب تماما، كنت أريد أن أتكلم لكن حاجز اللغة اللعين قيّدني، صبت لنا كأسين، فأحدث سقوط النبيذ في الكأس صوتا كسر جدار الصمت، بينما كنت أشرب كأسي الأولى، وأفكر أن أتكلم معها مستخدما لغة الإشارة، كانت هي تفتح الكمبيوتر، تظاهرت أني غير مكترث بما تفعل، لكني ألقيت نظرة خاطفة على شاشته، وجدتها تفتح صفحة إله المعرفة جوجول الذي تأسس سنة 1998 بثلاثة موظفين، وكلمة جوجول تعني رقم 1 وأمامه مائة صفر، كنت مشغولا بتاريخ جوجول، بينما كانت هي مشغولة بالدخول إلى صفحة جوجول ترجمة.

دفعت كأس النبيذ إلى جوفها مرة واحدة، وطلبت مني أن أنظر إلى الشاشة التي كانت عبارة عن صندوقين أو مستطيلين، كل مستطيل به لغة، المستطيل الذي في ناحية اليمين ظلّلت اللغة العربية، بينما المستطيل الأيسر تظلّل بالفرنسية.

ضغطت على الأسهم التي في المنتصف، فأصبحت الفرنسية في اليمين والعربية في الشمال، كتبت في مستطيل الفرنسية جملة فرنسية طويلة، بينما كانت صفحة الترجمة لجوجل إله المعرفة تقوم بالواجب، واجب الترجمة، وكأنه تلميذ نجيب، فمع كل كلمة في مستطيل الفرنسية، تظهر في المستطيل المقابل الكلمة العربية.

كنت مبهورا بالفكرة التي توصلت إليها الفرنسية لنتواصل،

أعجبني ذكاؤها الحاد الذي حل معضلة طالما أرقتني، وربما أرقت الآلاف والملايين في العالم، إذ تحول ألسنتهم الأعجمية بينهم وبين التواصل مع بعضهم بعضًا، كل ذلك دار في خلدي بينما كانت الأجنبية قد أتمت جملتها، في نفس الوقت الذي قام فيه مترجم جوجل الفوري بدوره على أكمل وجه، قرأت ترجمة ما كتبته في مستطيل اللغة العربية:

ـ عزيزي: أرجو أن يمنحنا الاكتشاف للتواصل فرصة لأني أتمنى أن نتكلم لزمن طويل، ولي أيضا.

كنت سعيدا وأنا أقرأ الجملة، لكن فرحتي قلّت نسبيا حين اكتشفت أن الترجمة ربما تكون مضحكة في بعض الأحيان، وبينما كنت أقرأ ما قالته الأجنبية عبر شاشة الكمبيوتر، كانت هي تقرأ وجهي الذي منحت إضاءته نورا مضيئا لوجهها، لأن الكمبيوتر كان مصدر الضوء الوحيد، حيث خففت الأجنبية كل الإضاءات في أركان الشقة منذ وصولي، مما منح المكان إضاءة رومانسية أقلقتني بعض الشيء.

ما إن فرغت من قراءة جملتها الأولى الكبيرة، حتى شرعت تكتب في سرعة جملة فرنسية أخرى قصيرة ترجمها جوجل:

ـ والآن حان دورك!! اكتب.

بعد أن قرأت الجملة، بدلت الأجنبية من اتجاه الأسهم بضغطة "كليك" شمال، وأشارت بإصبعها المخضب ظفره بلون أخضر بدا لي غير مألوف، بعد تردد للحظة بدأت أكتب في مستطيلي أو صندوقي:

ـ أنا أيضا أشعر بالسعادة للتواصل.. أخيرا سأبوح.

ابتسمت لي حين قرأت الجملة الأولى لكنها رفعت حاجبيها عند قراءة الثانية، وأشارت بيدها بما يعني أنها غير فاهمة، فأدركت على الفور أنه قد تعذر على جوجل أن يترجم سأبوح، فقررت أن أغيرها إلى: أخيرا سنتكلم. فظهرت على وجهها ابتسامة عريضة، ففهمت أن جوجل قام بمهمته على أكمل وجه.

كنا نجلس متقاربين، فاضطرها ذلك إلى تحريك شاشة الكمبيوتر سنتميترات بزاوية تجاهها، حتى تتمكن من الكتابة، وبسرعة ودُربة كتبت بأصابعها الخضراء التي ما زال لون طلائها غريبا بالنسبة لي ولم أعتده بعد برغم مرور بعض الوقت، بينما تولى جوجل الترجمة:

ـ أعرف أن الأمر يبدو جنونيا بعض الشيء، لكن ما هو الذي لا يبدو جنونيا في هذه الحياة.

ثم تراجعت قليلا للوراء بابتسامة مفسحة لي المجال حتى أكتب، وجهت بدوري شاشة الكمبيوتر ولوحة المفاتيح ناحيتي وأنا سعيد

بهذه اللعبة، لعبة أن يتواصل اثنان من البشر عبر وسيط إلكتروني ليست لديه مشاعر، لكنه قادر في الوقت ذاته على منح هذين الاثنين كل المشاعر، وتذكرت حلمي الذي رأيتني فيه أستمع إلى النيل والقمر وأشجار الحدائق وهي تتشاجر على أنها شواهد قصص الحب، التي تحمل بين مياهها أو على سطحها أو فوق جذوعها كل أسرار المحبين، لكنهم تناسوا هذا الجهاز العجيب الذي يحفظ كل أسرار المحبين، دون أن يبوح بحرف واحد من حروف "الكيبورد"، ماذا لو نطقت هذه الأجهزة الصماء، ماذا لو زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها و"إنبوكسها" وحدَّثت أخبارها، ونشرت أسرارها؟ ماذا لو تطايرت كل المحادثات التي تمت داخل صناديق "الفيس بوك والهوتميل والياهو"، توجد أسرار هائلة كما أخبرني صديقي الشاعر، أسرار أوشكت على الانفجار في وجه مرتادي تلك المواقع، وجدتني دون أن أدري أكتب:

- لازم نفتح الصناديق.

وحين نظرت إلى الترجمة عجز جوجل عن ترجمة لازم وكتبها lazem، فشعرت أنه إله عاجز لا يعرف كل الكلمات، وبدأت أضعه في مصاف البشر أو أنصاف الآلهة على أحسن حال، وغيرت على الفور كلمة لازم إلى يجب حتى يترجمها.

بعد كل جملة مترجمة تقرأها الأجنبية كان وجهها يتهلل، وحماستها

للكتابة تتزايد، حتى إن نقر أصابعها الخضراء على "الكيبورد" زاد إيقاعه، فكتبت بينما قام جوجل مشكورا بالترجمة.

ـ لقد استرعيت انتباهي منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها، أتذكر، حين وهبتك أعز ما أملك.

كانت الترجمة الفورية تحدث كلمة كلمة، فاستوقفتني جملة: وهبتك أعز ما أملك، فظننت أن هذه الأجنبية ترغب في تدبيسي، لكن حين أكملت جملتها في الجانب الفرنسي، اكتملت في الجانب العربي، حيث كتبت.. الكاميرا! وبجوارها علامة التعجب تلك، شعرت أن جوجل يخرج لسانه لي بعلامة التعجب تلك، وخاصة أني حين نظرت في الجانب الفرنسي لم أجد أي علامات تعجب!

وبدأت تنمو بيني وبين جوجل مشاعر غيظ، خاصة وأنه ترجم جملتها: استرعيت انتباهي، ولم يستطع ترجمة كلمة لازم.

واصلت الأجنبية المزيد من الكتابة:

ـ عشت حياة عابثة. والآن أريد أن أصبح امرأة تعيش حياة مليئة بالحب.

في الحقيقة إن الترجمة لم تكن بهذا الترتيب، بل كانت "ملخفنة"، لكني أصريت أن أرتبها حتى تبدو واضحة، وتعرف أنت إلى أيّ مدى غيرت أنا حارس الحديقة في حياتها العابثة، فكتمت السعادة في

قلبي بهذه الكلمات الرقيقة، التي لم يخاطبني بها أحد منذ زمن طويل، فما بالك لو كانت امرأة أجنبية وحلوة، فشرعت في الكتابة إليها:

ـ وأنا قبلك كنت أعيش حياة فارغة.

فكرت وأنا أكتب هذه الجملة أن أدعوها كتابة إلى زيارة بيتي، لكن تلك المخاطرة ستضطرني إلى التخلص من أكياس المني ذات البطاقات الموجودة في غرفتي، ولم لا؟ لكني تراجعت وقررت تأجيل هذا النقاش الدائر داخلي حتى حين، وأكملت الكتابة فأكمل جوجل الترجمة:

ـ أشعر بالسعادة الآن.

وبينما كانت الأجنبية تقرأ شعوري بالسعادة، كنت أستغرب كتابتي لهذه الجملة، وأفكر لماذا أنا سعيد، رغم أني منذ فترة قصيرة كنت أهرب منها بينما كانت تتحرش بي، أما الآن فأنا أشعر براحة كبيرة، هل ساعدت هذه المقدمات اللطيفة المترجمة في كسر حاجز الخوف داخلي، الخوف من الدخول في علاقة كاملة مع امرأة، أو حتى ناقصة. وحين بدأت أشعر بالتشويش داخل رأسي، قلت لنفسي: يجب أن نؤجل مناقشة هذه الفكرة إلى ما بعد، من الواضح أن هناك أفكارا كثيرة ستؤجل هذه الليلة، ضحكت في نفسي من تفكيري بالفصحى، لأن جوجل لا يترجم العامية، فخفت أن يترجم ما يدور داخل رأسي للأجنبية، لكن حمدا لله فقد اكتفى بما أكتبه.. لا بما أفكر فيه!

في هذه الأثناء كانت الأجنبية تكتب بالفرنسية جملة، طالما حلمت أن أسمعها بالعربية من أي امرأة.. كتبت:

ـ انا أحبك.

وحين قرأتها بالعربية دق قلبي بشدة، وشعرت به ينخلع من مكانه. ولم تكتفِ تلك الشقراء بما فعلته في قلبي، فضغطت على علامة الميكروفون في مستطيل العربية، لينطق الكمبيوتر بصوت معدني لرجل غير عربي:

ـ أنا أهبك.

يُحدث صوت الرجل المعدني وهو يقول لي أنا أُهبك صدمة، جعلتني أفصل من حالة الرومانسية التي انتابتني منذ قليل، كانت الأجنبية تنظر في عينيَّ بحب، فجعلني ذلك أنسى ذلك الصوت الذكوري المعدني السخيف، وأكتب دون أن أشعر:

ـ أنا أحبك أيضا.

ثم أضغط على علامة الميكروفون في المستطيل الفرنسي فتنطق امرأة بصوت معدني رقيق:

Je t'aime aussi.

فأفهم أن جوجل اختار للعربية رجلا، ربما لأنها لغة قوية، ولغة القرآن ولا يليق بها صوت نسائي، واختار للفرنسية صوتا نسائيا،

ربما لأنها لغة ذات دلال، وكما يصفها أغلب أهل بلادي بأنها لغة حريمي، ربما لم يكن الخطأ مقصودا.

أخطرجملة كتبتها الأجنبية وقام جوجل مشكورا بترجمتها من الفرنسية إلى العربية هي: الشاعر يعتبرك عنِّينا لذلك هو لا يقلق عليَّ من وجودي معك، لكني أقلق من وجوده معنا. لا بد أن نتخلص منه. ما رأيك؟ فأجدني أرد بكلمة واحدة، بعد أن صادف ذلك هوى في نفسي، وأكتبها بالفرنسية دون الحاجة إلى الترجمة: Oui.

لكن ذلك لم يمنع فيما بعد أن أتذكر بين الحين والآخر صوت الرجل المعدني، وهو يقول **أنا** أهبك، والأجنبية تردد خلفه أنا أغبك خاصة حين انقطع التيار الكهربائي، وتوقفت حركة الترجمة بيننا، وعم الظلام مما جعل الأجنبية البلوند الشقراء تلوذ بصدري، وهي تردد في صوت يبدد ظلام الغرفة، وظلام قلبي:

ـ أنا أغبك.

شجرة المعرفة

إشـارات

كل الأشعار المنسوبة روائيا لشاعر قصيدة النثر هي من ديوان "صورة عائلية للبحر" للشاعر الصديق "أحمد محمد علي".

الحوار مع "زيتونة" هي مقابلة أجراها "إدريس ولد القابلة" معها لصالح "الحوار المتمدن".

مقال "الفاكهة والنساء" للدكتور "أيمن محمد الجندي".

"عندما يتحول الجسد العاري إلى لافتة احتجاج.." هسبريس - إسماعيل عزام.

جزء من ملف "سجون المحروسة" عدد أبريل 2012 عن ديوان الأهرام.

قصة ثور الفريزيان الذي أثار أزمة دبلوماسية بين السودان والعراق "محمد إبراهيم علي".

موسوعة جينيس للأرقام القياسية - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة في مديح الشطافة / Cave s'Charafantah.

كارنيه النقابة بين إيديك! المصدر "عشرينيات"

بالإضافة إلى "جوجول" إله المعرفة.

المؤلف في سطور

وليد خيري

- من مواليد أكتوبر 1976، القاهرة.
- درس الفلسفة في كلية الآداب جامعة عين شمس.
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "تجاوزت المقهى دون أن يراك أحدهم"، دار ميريت، ط1: 2006، ط2: 2015.
- كتب السيناريو والحوار للعديد من الأعمال الدرامية والتسجيلية.

البريد الإلكتروني

waleedkhairy@hotmail.com

حارس حديقة المُحبّين

بريشةِ حكاء من طراز خاص، يخربش (وليد خيري) على الورق كتلا من السرد الخَفيف، يكاد يطير من خفته، ليشكل شخوصا غير اعتيادية تماما: حارس الحديقة، موظف طرة الأسمنت، ربة البيت المهذبة، البرنس، شاعر قصيدة النثر، الفرنسية الشقراء، سلطان العاشقين، الولد النزق، حارسة حمام النساء، وغيرها من الشخوص التي لا يمكن أن يضمَّها مكانٌ واحد سوى تلك المساحة من الشبق السرديّ الجَموح. تلك الرحلة المرحة - التي تبطن أسًى خفيا - يخادعُنا عبرها الصوتُ السارد بتلقائية خطواته حينا وبوعيه بحركته حينا آخر ليوهمنا بعبثية ما. لكنه في تقافزه الرشيق ذاك، بين تلقائيته ووعيه، بين شخوصه وحَديقته وذاكرته، يُفاجئنا - ككلّ سارد كبير - بتشكل المصائر، والتفاف المقادير، وبالخطوة المباغتة التي تنقل الحاكي من عدسة المراقب إلى حومة المشارك، من الملاحظة إلى الفعل، دون قصدية ما ولا إرادة مضمرة، إنها الحياة حين تمنحُ حتى الذين يغفلون عنها، شريطةً أن تكون أعماقهم مُحبّة، وعيونُهم حارسة للحب.

لن يكون الرصدُ كافيا قط لتقديم صورة تُحيط بفضاء الدهشة الذي يمنحه لنا السارد هنا، عبر لغة لا تتوقفُ عند حدّ المعجميّ، ولا تنجرفُ تماما في شلالاتِ الكلام اليوميّ الهادر، تخايل بهشاشتها وهي تنزلقُ على سطوح المقدس، وتراوغ البساطة بالمعرفي والنفسي والفلسفي، وتخذلُ القبح - وهي تستعيرُ مفرداته حينا - بالجمال الخبيء للجسارة. تسخرُ وتأسى وتحاكي وتمرح وتنوح في تفجّر لا يتوازى في جنونه إلا مع حياتنا ذاتها.


9 789774 903045

